
الشيخ
عبدالقادر الكيلاني
ومنهجه في التربية والسلوك
تأليف
الدكتور عمر محمود حسين السامرائي
تقديم
الدكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

الشيخ

عبد القادر الكيلاني

ومنهجه في التربية والسلوك

تأليف

الدكتور عمر محمود حسين السامرائي

تقديم

الدكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

[سورة الكهف: الآية ٦٥]

دار الزنبقة القاهرة

سنة الطبع

١٤٤٠هـ -٢٠١٩ م

مقدمة فضيلة الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر شخصية الامام عبدالقادر الجيلي من الشخصيات القليلة عبر التاريخ التي تمكنت من اجتياز حواجز اللغة والدين والثقافة، حتى غدت أعماله متداولة ومنتشرة على مستوى العالم أجمع. ويبقى أساس هذا الانتشار والتجاوز كامناً في عمق فلسفته وحكمته، التي امتلكت القدرة على اجتذاب المريدين من مختلف الانتماءات والمشا رب.

لسيرة الجيلي أبعاد مختلفة تهمُّ الباحث في تاريخ الفكر العربي الإسلامي عامةً والمعني بدراسة الشخصيات الإسلامية المؤثّرة في أواخر عصر الخلافة العباسية خاصّة، لما له من شخصية كارزمية ودور كبير في عصره أثناء الحروب الصليبية إذ أدّى دوراً خاصاً في أعداد وتوجيه وتربية، جيل من الدعاة الذين أسهموا مع صلاح الدين الأيوبي في تحرير القدس الشريف .

وفي العقود الاخيرة اصبحت سيرة الشيخ محوراً لعدد من الدراسات العلمية، تناول اصحابها فيها حياته الثرة، بما تضمه من دين وفكر وتعليم وأدب، ومن بين هذه الكتب العلمية المتخصصة ، كتاب الدكتور عمر محمود السامرائي ، **(الداعية المعروف بفضله وعلمه وشهادتي فيه مجروحة)** ، كتابه القيِّم بمادته وأفكاره، يُعد من الدراسات الهامة التي يحتاجها القارئ، سواء كان هذا القارئ يهتم بالمعرفة الروحية في الإسلام، أم كان يتطلع إلى قراءة مادة في التراث التربوي الإسلامي في نماذجه الرفيعة، أو كان ذا اهتمام عام بالتاريخ والحضارة العربية الاسلامية .

إنّ الخطاب الصوفي في مختلف تجلّياته إنّما يحكي أطوار هذه المعرفة ويقدّم الأدلّة عليها، فالطريق بمقاماته وأحواله اختبار للسالك وإشارات ترشده إلى هدفه الأسمى، واللغة الصوفيّة

ستر من جهة، وإبانة من جهة أخرى عن خصوصيّة البحث الصوفي عن الذات، حيث يكون تفاعله معها تقبّلا وإنشاءً دالا على رغبته في تجاوز المألوف والمتعارف وإقامة الدليل على امتلاكه آليات التواصل وقدرته الخارقة على التحكّم فيها وتصريفها ..

إنه كتاب غني بمعلوماته ورموزه وإشاراته، التي تمثل في جوهرها (**رسالة لحقيقة متقدة قائمة على التجربة التربوية الشخصية**) للامام عبد القادر الجيلي ، الرجل الذي كان من أهم رجال التربية في كلِّ الأزمان ، والله أسأل أن يجعل هذا في موازين حسنات مؤلفنا.

هنا دروس وعبر جرى استخلاصها نتيجة استقراء سيرة الامام الجيلي ، فهل يمكن ان نستوعبها ونفيد منها في تحريك عجلة هذا الجيل والى الامام؟

إنّ مرادنا من هذا الكلمة هو أن نضع القارئ أمام صورة عامّة عن جهد (**الدكتور عمر السامرائي**) في دراسة الفكر التربوي عند الامام عبد القادر الجيلي ، ومحاولته توظيف هذا الفكر وتقديمه للجيل الجديد كنموذج مشرف لتراثنا .

وإذا كنّا في حالة خوف من ضياع الهويّة والقلق من حالة التبعيّة الثقافية الكاملة للآخر، فإنّ الوعي العلمي بحقيقة تراثنا وكيفية تكوّنه والعوامل التي ساهمت في حركته وتطوّره حتّى وصل إلينا سيُساعدنا على الصمود والتصدّي بل والتجاوز والتأسيس والمضيّ قدما في ترسيخ الثقافة العربية الاسلامية .

الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني
أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
الزائر بمعهد الدراسات الاسلامية
بجامعة لانجو – الصين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي نوَّر قلوب العارفين بنور أحديته، وأراح أرواح المشتاقين بنسيم مؤانسته، وشرح صدور العاشقين بأنوار محبَّته، وفتح أفئدة المقرَّبين بمفاتيح هدايته، ورفع غشاوة الغفلة عن بصائر أهل قُربته، وأطلع الخواص على كنوز رموز أسرار حكمته، وفطر الموجودات على وفق إرادته، وزيَّن السماوات والأرضين بآثار قدرته، وبيَّن للأنبياء والمرسلين منهاج عبوديته، وجعلهم مبشِّرين بشمول رحمته، ومنذرين مِن عصيانه ومخالفته . بعث أشرفهم وأفضلهم وأوضحهم محمداً رحمةً إلى كافة بريَّته وخليقته، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيِّدنا محمد المبعوث بالشريعة السنية، المؤيَّد بالفيوضات الربَّانية، اصطفاه ربُّه؛ فجمَّله وكمَّله ونزَّهه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وأيَّده بالمعجزات الباهرات، ومِن أجلِّها فتوح الغيب، وعلى آله الغر الميامين، وأصحابه جلاء الخاطر الحزين، وعلى التابعين سادات الأُمم، وعلى جميع الأولياء؛ يواقيت الحكم، مَنَّ عليهم ربُّهم بالفيض الرحماني، وأيَّدهم بالفتح الرباني، رفع مقاماتهم العليَّة، وأغناهم بغنيته عن جميع البرية؛ وبعد :

فيقول الحقُّ عزوجل : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾[1] .

إنَّ دين الإسلام دين الله الحق له مزايا تميَّز بها؛ لم تتوافر في غيره مِن الأديان، ميَّزه الله عزوجل بكتابه الخالد المحفوظ مِن الزيادة والنقصان، وميَّزه بنبي هذا الدين، هو صفوة

(١) سورة هود : مِن الآية ١١٦ .

الصفوة المختارة مِن خيرة خلق الله، وشريعته أشرف الشرائع على الإطلاق، والقرآن معجزة لا تنقضي عجائبها أبداً .

وهيّأ اللهُ عزوجل لدينه حُماة ودعاة؛ ينشرون الدين بالدعوة إلى الله والإرشاد إلى طريقه وحاشا لله عزوجل أنْ يترك عباده مِن غير مَن يدعوهم إليه؛ قال النبي ﷺ : (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)[1]؛ هؤلاء هم الذين يرشدون الخلق إلى الحق، ويضيئون السبل للخلق، ويصلحون ما أفسده الناس، فهم أمنٌ لكلِّ خائف، وطمأنينة وسكينة مِن كلِّ سوء، وبذكرهم تنزل الرحمة وتعمُّ البركة وينتشر النور.

ومِن أولئك الصالحين – رحمهم الله – الشيخُ عبد القادر الجيلاني؛ الذي ظهر صيتُه في وقتٍ عصيبٍ، وزمنٍ مريرٍ إنَّه القرن السادس الهجري الذي اختلَّت فيه الموازين، واضطربت فيه حياة الناس بتكالبهم على الدنيا في وقتٍ انتشرت فيه الأوبئة والأمراض والمفاسد والوشايات والبدع والأباطيل والفتن والمحن والتصوف المنحرف الذي انتشر في زمانه، وعمَّت الفوضى، وانتشر الادِّعاء بالوصول، وترك المفروضات، وارتكاب المحرَّمات، وعمَّ الظلم والنزعات الفلسفية، فشوَّه صورة الإسلام والتصوف الصحيح، وأُهملت الأخلاق، وانحطَّت القيم .

وفي تلك الأوقات العصيبة ظهر هذا العالِم الجليل؛ يحمل بيده مشعل النور، فأخذ يرشد الناس، وينادي على الضالِّين والتائهين، علماء ومتعلِّمين، ملوك ومملوكين، أغنياء وفقراء؛ فهدى الله على يد الإمام الشيخ كثيراً مِن الضالين، وأَيَّده ربُّه بالكرامات المتواتر ثبوتها، ومِن أجلِّها إحياء النفوس الميِّتة؛ فقد روي أنَّ كثيراً مِن أهل الكتاب أسلموا على يده، وأنَّ كثيراً مِن الضالِّين أعلنوا التوبة بين يديه .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ : مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، كتاب الإمارة، باب قول النبي ﷺ : (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ) ٣/ ١٥٢٣، برقم (١٩٢٠) .

إنَّ مِن أهمِّ الأمور التي دعتني إلى أنْ أكتب عن شخصية الإمام هو أنَّ كثيراً مِن الناس يجهلون حقيقتها، ويتصور الكثير منهم أنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني هو رجلٌ مِن أهل الطريقة والزهد فقط، أو مِن أهل البدع والخرافات كما يظنُّ بعض ضعاف النفوس .

والحقيقة أنَّه إمامٌ مِن الأئمة الحنابلة الأجلاَّء الذين كان الزمن بحاجة مُلحَّة إليهم، فهو صاحب مدرسة كبيرة في بغداد، وآلت إليه الرئاسة العلمية والإفتاء، وشهد بحقِّه العلماء آنذاك، وانتشر خبرُه في الآفاق؛ حتى أنَّ فتواه كانت تُعرَض على كبار العلماء؛ فيعجبون بها أيَّما إعجاب، أمَّا جرأته في الدعوة إلى الله؛ فقد كانت نادرة الوجود، فهو الصادق المخلص الجريء بقول الحق الزاهد بما في أيدي الناس، وكان صاحب الرحمة على عباد الله؛ ينتصر للمظلومين والمستضعفين، وهو ناصحٌ للعاصين واعظٌ للمنحرفين المقصِّرين المسرفين .

إنَّ الشيخ عبد القادر يعدُّ في طليعة الدعاة المصلحين والأئمة الناصحين الذين كُتِب عنهم الكثير، ولكن لم أجد دراسةً وافيةً كافيةً؛ تعطي هذا الإمامَ حقَّه الذي يستحقُّه ومكانته التي تبوَّأها؛ علماً أنَّ هنالك الكثير مِن الكتب عن الشيخ قدس سره، ومِنهم مَن أساء إليه مِن حيث يدري أو لا يدري؛ فنسب إلى الشيخ كلمات لا تليقُ بمسلم مِن عامة الناس، وأُلصِقَتْ به كرامات تسيء إلى مقامه الكريم، ولا يقبلها عقلٌ ولا دينٌ، فالشيخ قدس سره لا يعرفُ فضلَه إلاَّ أهلَ الفضل؛ فقد أثنوا عليه الثناء الذي يستحقُّه، وفي طليعة أهل العلم الشيخ ابنُ تيمية قدس سره؛ الذي عُرِفَ بشدَّته وصلابته؛ فقد ارتأيتُ مِن هذا أنْ أكتبَ موضوعي عن هذا العالم الرباني، ولاسيما ونحن في زمانٍ انتشرتْ فيه المادة، وكادت الروح أنْ ينطفئ نورُها، فأمَّا القلوب؛ فقد أصبحت كالحجارة أو أشدُّ قسوةً، فالكلام عن هؤلاء الرجال يبعث السكينة في النفوس والطمأنينة في القلوب والراحة في الأبدان، ويعطي العبرة والعِظة لمن يريدها .

إذن الكلام عن هؤلاء الأعلام ضرورةٌ مِن أهمِّ الضروريات؛ لأنَّ دراسة سيرة هؤلاء العظماء والوقوف عند مناهجهم واستلهام المواقف العظيمة تعطي للمؤمن والسالك قوة وهيبة؛ توصله بسلوكه إلى الله عزوجل ومرضاته، والشيخ عبد القادر قدس سره هو مؤسِّسُ

طريقةٍ صوفية التي عُرِفَت باعتدالها والتزامها بتعاليم الكتاب الكريم والسنَّة النبوية المطهرَّة وآدابها، بل تخرَّج في مدرسته الأجيال الصالحة والدعاة الناصحين لدين الله عزوجل، فلقيتْ هذه الطريقة القبول التام عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مِن زمانه إلى يومنا هذا، وما ذاك إلاَّ دليلٌ واضحٌ على صدق نيَّته وصفاء سريرته وحُسْن سيرته التي كان يتحلَّى بها مؤسِّسُ هذه الطريقة، بل ويربِّي التلاميذَ عليها .

إنَّ عنوان موضوعي هذا يُفهَمُ منه أنَّ الشيخ قدس سره كان له منهجٌ في التربية ومنهجٌ في السلوك، وأعني – هنا – في التربية: هي تربية السالك المريد؛ أي: كيف كانت التربية الروحية مِن خلال أخذ البيعة عليه، وأخذ العهد منه، ودخوله في سلك الطريق الموصل إلى الله عزوجل .

أمَّا السلوك فأعني به: السلوك الشخصي للشيخ قدس سره، وكيف كانت سيرته وصفاته وشمائله التي تحلَّى بها . إذن التربية تعني: تربية الشيخ للمريد مِن خلال منهج تربوي إصلاحي .

إنَّ مِن الدوافع التي دعتني أنْ أكتب عن الشيخ قدس سره هو الأمانة العلمية لإحياء تراث الخالدين مِن أئمتنا وعلمائنا ومربِّينا ومرشدينا، وبيان سيرتهم ومنهجيتهم في التربية والسلوك، وكذلك إزالة الغبار والشكوك عنهم وما نُسِبَ إليهم مِن أقاويل هم بريئون منها، والدافع الآخر رأيتُ أنَّ الكتابة عن شخصية عظيمة كشخصية الشيخ عبد القادر قدس سره ما هو إلاَّ وفاء لتلك الشخصية .

وفي الختام .. أسألُ الله عزوجل أنْ يجعلني قد وفَّيتُ ببعض الحق الذي يستحقُّه الشيخ «قدس سره» مع أنَّني على ثقة أنَّه أكبر مِن أنْ يكتُبَ عنه أحدٌ مثلي، وعلى أيَّة حال إنْ كنتُ قد أحسنتُ في كتابتي بعض الإحسان فهو مِن الله عزوجل وإنْ أخطأتُ فمن نفسي .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الدكتور عمر محمود حسين السامرائي

[الباب الأول]

حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني

ويشتمل على ثلاثة فصول :

* الفصل الأول : عصره وبيئته .
* الفصل الثاني : حياته الشخصية .
* الفصل الثالث : حياته العلمية .

[الفصل الأول]

عصره وبيئته

الأوضاع العامة في القرنين الخامس والسادس الهجري في العراق

ويشتمل على تمهيد وخمسة مباحث :

* التمهيد : في بيان حدود العراق في العصر السلجوقي .
* المبحث الأول : الحالة السياسية .
* المبحث الثاني : الحالة الاقتصادية .
* المبحث الثالث : الحالة الاجتماعية .
* المبحث الرابع : الحالة الدينية والفرق والمذاهب .
* المبحث الخامس : الحالة العلمية .

تمهيد

حدود العراق في العصر السلجوقي

لقد تناول الجغرافيون العرب منطقة ما بين النهرين بالدراسة من الناحية المناخية الإقليمية، ووضحوا حدوداً [١] ثابتة ومعروفة بالنسبة للعراق؛ في الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، وهم يعدُّون حدوده حدود السواد نفسها[٢]، أمّا حدود العراق الشمالية فقد اختلف الجغرافيون فيها؛ فجعلها المقدسي (ت: ٣٨٧هـ) تسير مع الخط من الأنبار إلى السنّ[٣]، أمّا ابن خرداذبة (ت: ٢٧٢هـ) والاصطخري (ت: ٣١٨هـ) وابن الفقيه (ت: ٣٦٥هـ) فيجعلون حدوده الشمالية تمتدُّ من العلث وحربي[٤]، ومنطقة ما بين النهرين، وتشمل العراق والجزيرة، ويحدُّها خط يبدأ مِن عبادان، ويسير شمالاً إلى تكريت، ثمّ السن، ثمّ حديثة، ثمّ الموصل، ثمّ جزيرة ابن عمر، ثمّ يسير غرباً إلى ميافارقين، ثمّ جنوباً مع الفرات إلى العذيب، وشرقاً بعد أنْ يدور حول البطيحة إلى البصرة [٥]، ويبدو أنّ حدود العراق ولاسيا الشمالية منها؛ لم تستقر خلال العهود

---

(١) يقصد بمصطلح (حدود): ما استعمله البلدانيون المسلمون مِن معنى عند استعمالهم هذه الكلمة بمعنى: النهايات الخاصة بإقليم، كما وردت عند المقريزي . أنظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: أحمد بن علي بن عبد القادر، المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) ١/ ٢٤ – وما بعدها .

(٢) أنظر: الأحكام السلطانية : علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ص ٢٥٩ .

(٣) أنظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: محمد بن أحمد المقدسي البشاري، ص ١٣٤ .

(٤) أنظر: المسالك والممالك: عبيد الله بن عبد الله، أبو القاسم المعروف بابن خرداذبة (ت: نحو ٢٨٠هـ) ص ١٤، والمسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المعروف بالكرخي (ت: ٣٤٦هـ) ص ٨٧، والبلدان: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه (ت: ٣٦٥هـ) ص ٣٩٠ .

(٥) أنظر: المصادر نفسها، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٣٤ .

المختلفة، حيث أنّ بلاد الجزيرة بمُدُنها الهامّة؛ كان لها ارتباط وثيق سياسياً وثقافياً مع بغداد .

لقد التقت التيارات العلمية بين مدن العراق والجزيرة متمثلة بالمدارس النظامية والرحلات العلمية للطلبة والعلماء، فكتب التراجم، وطبقات الرجال؛ تذكر – لنا – عشرات العلماء الذين رحلوا واستقروا في مدن العراق ولاسيما بغداد مدينة العلم، وملتقى العلماء، ومِن أبرز أولئك الذين رحلوا في سبيل طلب العلم والمعرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني؛ الذي أصبح صاحب مدرسة؛ يشار لها بالبنان[1] .

* * *

(١) البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ١٢/ ٣١٣ .

المبحث الأول

الحالة السياسية

إذا أردنا دراسة الحياة الفكرية في العراق وخلال مدَّة التسلُّط السلجوقي؛ فلابدّ من أنْ نتعرّف على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لِمَا لها من تأثير في تحديد البعد الثقافي والوعي الفكري في حياة المجتمع، فعلى الرغم من الدور السياسي الفعّال للأتراك بعد خلافة المعتصم؛ كان القرن الخامس الهجري يمثِّل نمطاً جديداً من أنماط التدخُّل، فقد كان تدخُّل الأتراك في القرن الثالث في شؤون الحكم يُعَدُّ تدخُّلاً مِن داخل الدولة باعتبارهم جزءاً مِن جيش الخلافة الإسلامية في العصر العباسي، أمّا في هذه الحقبة؛ فإنّه يمثِّل تدخُّلاً خارجياً هيمن على مقرِّ الخلافة، وتسلُّم مقاليد السلطة، وكان له أثرٌ في توجيه أحداث التاريخ، إضافةً إلى أثره على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للدولة العربية الإسلامية خلال مدّة هذا البحث، وقد عدّها بعضُ المؤرِّخين ((تغيُّراً عميقاً في جميع أرجاء العالم الإسلامي؛ تجلَّى في الظاهر بتأسيس دولة المرابطين في المغرب، وقيام دولة أهمّ منها في المشرق هي الدولة السلجوقية))[(١)] .

وعلى الرغم من تسلُّطهم السياسي؛ فقد جرى في تلك الحقبة توحيد أغلب مناطق المشرق تحت إمرتهم، فاتَّحدتْ البلاد بعد أنْ كانت مجزّأة، كما استطاع السلاجقة مِن احتلال الأناضول؛ حيثُ مهَّد ذلك فيما بعد مِن القضاء على بيزنطة [(٢)]، كما اكتسب الخليفة بعض هيبته بعد أنْ

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية : كاهين كلود، ص ٢٣٧ .

(٢) أنظر: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٧ .، وأثر الحروب الصليبية في العالم العربي- بعض مظاهر الحياة اليومية في مصر في عصر سلاطين المماليك: قاسم عبده قاسم، ص ١٦٨ .

فقدَها خلال التسلُّط البويهي[(١)] .

يرجع السلاجقة في أصولهم إلى قبائل تركية؛ عُرِفَتْ باسم (الغز) دفعتهم الظروف الاقتصادية والسياسية السائدة في أواسط آسيا، وبلاد المشرق إلى التنقُّل بحثاً عن أسباب العيش[(٢)]؛ حيثُ حاولت هذه القبائل الاستقرار في أقاليم ما وراء النهر وإقليم خراسان، وقد أُطلِق على هذه القبائل التركية بالسلاجقة؛ نسبةً إلى رئيسها سلجوق بن دقاق[(٣)]؛ الذي وحَّدَها وتزعَّمَها؛ فنُسِبَتْ إليه .

أصبحت الدولة السلجوقية أكبر قوّة عسكرية في المشرق الإسلامي، حيثُ أصبح جميع السلاجقة يخضعون لطغرلبك؛ الذي قرَّر أنْ يتوجَّه بنفسه لاحتلال العراق والولايات القريبة منه، واتَّخذ من مدينة الري عاصمة لدولته .

وفي عام (٤٣٢هـ) كتب طغرل رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت: ٤٦٧هـ) طلب منه الاعتراف بشرعية دولته، والإقرار له سلطاناً؛ حتى تكون ولايته شرعية، بدأ طغرل في تنفيذ خطَّته في السيطرة على إيران والعراق؛ فتقدّم بقواته إلى بغداد واحتلَّها عام (٤٤٧هـ)[(٤)] .

وبعد احتلال السلاجقة بغداد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التسلُّط التركي على الخلافة العباسية .

إنّ سياسة السلاجقة لم تسرِ على وتيرة واحدة خلال فترة تسلُّطهم على العراق .

(١) أنظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ٣٠/ ٢١، والبداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٨٤ .

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ : علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ٨/ ٥، ودولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: علي محمد محمد الصَّلاَّبي، ص ٢١ .

(٣) أنظر: المصدران نفسهما .

(٤) أنظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، أبو الفرج الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ١٥/ ٣٤٨، وراحة الصدور: الراوندي، ص ١٠٢ .

لقد قسَّم السلاجقة دولتهم منذ نشأتها إلى أقاليم ؛عيَّنوا على كلِّ إقليم منها حاكماً من أفراد البيت السلجوقي، وكان يطلقون عليه لقب (الملك) وكلُّ هؤلاء الملوك يخضعون للسلطان(١)، وكلُّ ملك يتمتَّع باستقلال ذاتي في تصريف شؤون ولايته الداخلية؛ ممّا كان له عواقب سيِّئة على الخلافة العباسية .

فكانت حالة الصراع مستمرَّة بين أفراد البيت السلجوقي من أجل التوسُّع والاستئثار بالسلطة (٢)، وكانت الخلافة العباسية في بغداد تتأثّر تجاه تلك الصراعات والحوادث بمراكز القوى لدى السلاطين السلاجقة؛ حيث كانوا يحرصون على الظفر بموافقة الخلفاء العباسيين في تولية مناصبهم؛ كي يكسبوا الصفة الشرعية، وكان الخلفاء في ظِلِّ التسلُّط الأجنبي يمنحون السلطة لمن غَلَب (٣) .

واستبدّ السلاجقة بالحكم؛ إذ ادَّعوا أنّ حكمهم مستمدٌّ من الله، ومفروض على الناس؛ طبقاً لنظرية (الحق الإلهي في الحكم) ويؤيد ذلك قول نظام الملك حين أكَّد أنّ الله عزوجل قد اختار السلطان، وميَّزه على عباده، وجعلهم جميعاً خاضعين له، منه يستمدُّون نفوذهم ودرجاتهم، أمّا هو؛ فيستمدّ قوَّتَه من ربِّه؛ الذي جعله أميناً على عباده (٤)، ويؤكِّد هذا الأمر السلطان ألب أرسلان(٥) نفسه في مرسوم تفويض ابنه ملكشاه إلى نظام الملك؛ يقول فيه : ((

---

(١) أنظر: راحة الصدور : الراوندي، ص ١٠٤ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية : كلود كان، ص ٢٤١ .

(٣) سلاجقة إيران والعراق: حسنين عبد المنعم، ص ١٥٧ .

(٤) أنظر: سياسة نامة : نظام الملك، ص ٦٢ – ٦٣ .

(٥) محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب جلال الدولة السلجوقي، ملك ألب أرسلان خراسان بعد أبيه جغري بك، وفتح العراق مِن يد ابن عم أبيه قطلمش بن اسرائيل سنة (٤٥٦هـ)، واستقر في السلطنة حين توفي عمه السلطان طغرلبك في سنة (٤٥٥هـ)، وكان ولي عهد عمه؛ لأنَّ عمَّه لم يكن له نسل، فملك ألب رسلان بعده، وهو أول مَن ذكر على منابر بغداد بالسلطان، (ت: ٤٨٥هـ) . ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، شمس الدين البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ) ٥/ ٢٨٣ – ٢٨٤، وبغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد

..، وأنْ نعدّه ونهيِّئه لنعمة الملوكية المفوَّضة من الله – تعالى –؛ والتي حصَّلها بواسطة تربيتنا له))[(١)] .

والراوندي يقول في حقِّ السلطان ملكشاه : ((كان السلطان ملكشاه مَلِكاً جبّاراً نافذ السلطة .. مؤيَّداً بالحقِّ الإلهي))[(٢)] .

ولعلّ هذا ما دفع كثيراً من الفقهاء والعلماء إلى تناول موضوع الإمامة والخلافة في هذا العصر، وعلى كلِّ حال؛ فقد كان الخليفة العباسي في عصر السلاطين السلاجقة مسلوب السلطة، فالسلطان السلجوقي طغرلبك حصل من الخليفة القائم بأمر الله على تفويض كامل بالنظر في أمور الدولة، وتدبير شؤونها دون الرجوع إليه، فقد جاء في هذا الكتاب ((يا علي، أميرُ المؤمنين حامدٌ لسعيِك، شاكرٌ لفضلك، آنِسٌ بقربك، زائدُ الشغف بك، وقد ولاَّك جميع ما ولاَّه الله – تعالى – مِن بلاده، وردَّ إليك فيه مراعاة عباده))[(٣)] .

وعندما تأزّمت علاقات طغربك بالخليفة أمرَ بحمل موارد العراق المالية إلى خزائنه بدلاً من خزانة الخليفة، بل بلغ مِن تطاوله على الخليفة أنّه كان يأمر نُوَّابَه بالحجر على أموال الخليفة [(٤)] .

وفي عهد السلطان ملكشاه حدثت جفوةٌ بينه وبين الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي [(٥)]،

بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ) ٤/ ١٩٧١ .

(١) سياسة نامة : نظام الملك، ص ٦٣ .

(٢) راحة الصدور: الراوندي، ص ١٩٧ .

(٣) المنتظم: ابن الجوزي، ١٦/ ١٩ .

(٤) أنظر: البداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ١٠٨ .

(٥) عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله، أبو القاسم، بويع له بالخلافة عند موت جده في (٤٦٧هـ) وهو ابن (١٩) سنة، وتوفي أبوه الذخيرة والمقتدي حمل، فولد بعد وفاة أبيه بستة أشهر، وأُمُّه أم ولد اسمها أرجوان، قال عنه محمد شاكر: كانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة والحرمة وافرة، وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها، وقال السيوطي: وظهر في أيامه خيرات كثيرة وآثار حسنة في البلدان، ومِن محاسنه أنَّه نفى المغنيات والحواظي ببغداد وأمر أنْ لا يدخل= أحدٌ الحمام إلاَّ بمئزر وخرب أبراج الحمام؛ صيانةً لِحُرَم الناس، وكان ديِّناً خيِّراً قويَّ النفس

فبعث ملكشاه إلى الخليفة يقول : ((لابدَّ أنْ تترك لي بغداد وتذهب إلى أيِّ بلد شئتَ . فانزعج الخليفة))[١] .

وبعد وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥هـ) واجهت دولة السلاجقة مشاكل خطيرة؛ حيث انشغل السلاطين والأمراء عن مصالح الرعية والدولة بالصراع حول الحكم، والسعي وراء الملذَّات، يقول ابن الراوندي : ((وكان ملوك العصر والوزراء العظام؛ يشتغلون بالشراب في مجالس الأُنس، والحفلات، والولائم، فكانوا مع تحقُّقهم من آية التحريم؛ يرتكبون إثماً كبيراً؛ يخسرون به أرواحهم، وما ملكتْ أيديهم))[٢] .

وأصبحت الدولة نهباً مُقَسَّماً بين الأمراء والأتابكة العديدين، وفي تلك المدّة كان الصليبيون قد احتلُّوا أنطاكية؛ التي كانت تحت حكم السلاجقة في عام (٤٩١هـ) كما استولوا على معرَّة النعمان [٣]، ومناطق واسعة من بلاد الشام؛ حيث لم يبق بأيدي المسلمين إلاّ بعض المدن الداخلية كمدينة دمشق، ومدينة حلب [٤]، ورغم هذه الأحداث فالسلاجقة كانوا مشغولين بصراعاتهم من أجل السلطة، أمّا الخليفة العباسي؛ فلم يكن له في كثير من أزمان حكم السلاجقة للعراق ((من الأمر إلاّ الاسم، لا يتعدّى حكمه بابَه، ولا يتجاوزُ جنابَه))[٥] .

عالي الهمَّة مِن نجباء بني العباس . ينظر: فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت: ٧٦٤هـ) ٢/ ٢١٩ – ٢٢٠، وتاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ص ٣٦٥ .

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت: ٨٧٤هـ) ٥/ ١٣٤، وتاريخ الخلفاء: السيوطي، ص ٣٦٥ .

(٢) راحة الصدور: الراوندي، ص ٥٨٥ .

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ : ابن الأثير، ٨/ ٤٢٠، وتاريخ ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (ت: ٧٤٩هـ) ٢/ ٤٠ .

(٤) أنظر: الكامل في التاريخ : ابن الأثير، ٨/ ٤٢٠، وزبدة الحلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ) ص ٢٤٥ .

(٥) أنظر: العبر في خبر من غبر : محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ٢/ ٢٨٩، ودولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو

ويتَّضِح أنّ الكفاح من أجل استرداد هيبة الخلافة والعمل على التخلُّص مِن التسلُّط السلجوقي بدأ في عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله [1]؛ الذي كان ذا همَّة عالية، وشهامة زائدة، وإقدام، ورأي، وهيبة شديدة، والذي ضبط أُمور الخلافة، ورتَّبها أحسنَ ترتيب[2] .

لقد حاول الخليفة المسترشد بالله التخلص من السلاجقة، وهو وإنْ كان قد أخفق في ذلك؛ إلاّ أنّه وضع بذلك البداية الأولى للخلاص مِن تسلُّطهم، ففي سنة (٥٢٩هـ) حدثت جفوة بين السلطان مسعود[3] والخليفة المسترشد انتهت بمسيرة الخليفة على رأس جيش كبير لمحاربة مسعود، حيث أخفق الخليفة المسترشد، وأُسِرَ، ثمّ قتلته الباطنية في هذا العام[4]، وفي سنة (٥٣٠هـ) جمع السلطان مسعود العلماء والفقهاء والشهود والأعيان، واتَّهم الخليفةَ

الصليبي: الصَّلاَّبي، ص ١٢١ .

(١) الفضل بن المستظهر بالله، أبو المنصور المسترشد بالله، ولد في سنة (٤٨٥هـ) وأمه أم ولد وبويع بالخلافة عند موت أبيه في (٥١٢هـ) قال عنه السيوطي: وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيَّد أركان الشريعة وطرَّز أكمامها وباشر الحروب بنفسه وخرج عدَّة نوب إلى الحلة والموصل طريق خراسان إلى أنْ خرج النوبة الأخيرة وكسر جيشه بقرب همذان وأخذ أسيراً إلى أذربيجان وقد سمع الحديث من: أبي القاسم بن بيان، وعبد الوهاب بن هبة الله السبتي، وروى عنه: محمد بن عمر بن مكي الأهوازي، ووزيره علي بن طراد وإسماعيل بن طاهر الموصلي، وأُسر في همذان وحمل إلى مراغة فقتل فيها سنة (٥٢٩هـ) ودفن بها. أنظر: سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ١٩/ ٥٦١، وتاريخ الخلفاء : السيوطي، ص ٣٧٣، .

(٢) أنظر: تاريخ الخلفاء : السيوطي، ص ٣٧٣ .

(٣) مسعود ابن السلطان محمد ابن السلطان ملكشاه، السلطان الكبير، غياث الدين، أبو الفتح السلجوقي، نشأ بالموصل مع أتابك مودود، ورباه، ثم مع آقسنقر البرسقي، ثم مع خوش بك صاحب الموصل، فلما مات والده، حسن له خوش بك الخروج على أخيه محمود، فالتقيا، فانكسر مسعود، ثم تنقلت به الأحوال، واستقل بالسلطنة في سنة (٥٢٨هـ)، وقدم بغداد، قال = ابن خلكان: كان عادلاً ليِّناً، كبير النفس، فرق مملكته على أصحابه، وما ناوأه أحدٌ إلاّ وظفر به، وقتل خلقاً مِن كبار الأمراء والخليفتين الراشد والمسترشد (ت: ٥٤٧هـ). ينظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٥/ ٢٠٠، وسير أعلام النبلاء: الذهبي، ٢٠/ ٣٨٤ .

(٤) الكامل في التاريخ : ابن الأثير، ٩/ ٦٤ .

الراشد بالله [١] بنهب الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر، فشهد الحاضرون على ذلك، وأفتى أصحاب الفتيا بجواز خلع الخليفة، واستبدال غيره به، وهكذا خُلِعَ الراشد بالله، وبويع المقتفي لأمر الله .

ويتَّضح أنّ ما عمله السلطان السلجوقي مسعود كان سببه موقف الخليفة الراشد بالله العدائي للسلطان، حيث كان مسعود قد قتَل والد الراشد، إضافةً إلى استهتاره وتهجُّمه على دار الخلافة وتفتيشها [٢] .

وفي سنة (٥٥٥هـ) توفي الخليفة المقتفي لأمر الله بعد أنْ حكم أربعةً وعشرين سنة قضاها في مناهضة السلاجقة، حيث تمكَّن مِن استرداد هيبة الخلافة، وازدادت حرمته، وعلتْ كلمته، وكان ذلك بداية انتعاش الخلافة، واستعادة سلطان الخلافة العباسية [٣]، فقد قال ابن الجوزي: ((ومِن أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء، ولم يبق لهم فيها مُنَازع. وقبل ذلك لعلَّ مِن دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلِّبين مِن الملوك، وليس للخليفة معهم إلّا اسم الخلافة))[٤]، فقد نجح المقتفي لأمر الله بتأييد ومساعدة وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة [٥] .

---

(١) منصور ابن المسترشد بالله الفضل بن أحمد، أمير المؤمنين، أبو جعفر الراشد بالله العباسي، ولد سنة (٥٠٢هـ)، وقيل: (٥٠٤هـ) وأمه أم ولد، خطب له بولاية العهد سنة (٥١٣هـ)، واستخلف سنة (٥٢٩هـ)، قال عنه الذهبي: وكان حسن السيرة، مؤثراً للعدل، فصيحاً، عذب العبارة، أديباً، شاعراً، جواداً، لم تطل أيامه حتى خرج إلى الموصل، ثم إلى أذربيجان، وعاد إلى أصبهان، فأقام على بابها مع السلطان داود، محاصراً لها، فقتلته الملاحدة هناك سنة (٥٣٢هـ) ودفن في أصبهان، وكان بعد خروجه من بغداد مجيء السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، فاجتمع بالأعيان، وخلعوا الراشد، وبايعوا عمه المقتفي . ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، ١٩/ ٥٦٨، والأعلام : الزركلي، ٧/ ٣٠٢ .

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ : ابن الأثير، ٩/ ٧١ .

(٣) أنظر : تاريخ الخلفاء : السيوطي، ص ٣٧٨ .

(٤) تاريخ الإسلام : الذهبي، ٣٨/ ١٧٤ - ١٧٥ .

(٥) يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر، عون الدين الذهلي الشيباني، ولد في قرية مِن أعمال الدجيل بالعراق سنة (٤٩٩هـ) من كبار الوزراء في الدولة العباسية، عالم بالفقه والأدب. له نظم جيد، ودخل بغداد في صباه، فتعلم صناعة الإنشاء، وقرأ التاريخ والأدب وعلوم الدين، واتصل بالمقتفي لأمر الله، فولاه بعض

المبحث الثاني

الحالة الاقتصادية

تُحَدِّثُنا المصادر التاريخية؛ التي تناولتْ التسلُّط السلجوقي على العراق عن الكوارث والأزمات الاقتصادية؛ التي اجتاحت العراق في عصر هذا التسلُّط الأجنبي، حيث يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب، وتتَّفق كثير من المصادر في وصف حالات الجدب والقحط والفيضانات والدمار؛ التي كان مِن نتائجها حصول أزمات خانقة؛ نجمَ عنها اضطرار كثير مِن الناس إلى أكل الطعام المحرَّم شرعاً؛ كالميتة وغيرها مِن أصناف اللحوم المحرَّمة، حيث نتج عن ذلك حدوث أوبئة حادَّة؛ كان مِن نتيجتها موت الآلاف مِن الناس، وانتشار الأمراض[1] .

وبما أنّ طبيعة الدراسة لا تقتضي تتبُّع المعلومات عن الكوارث، والحديث عنها لِمَا لها من تأثير سلبي في الحياة الاقتصادية للعراق انعكسَ أثره على الحياة الفكرية، والنشاط الفكري بصورة عامة؛ فإنّي أُوجِزُ القول : ففي عام (٤٤٩هـ) حدثت مجاعةٌ شديدة في أغلب مناطق العراق؛ حتى أكل الناس الكلاب، وانتشرت الأوبئة، فلم تكن الدنانير الكثيرة؛ والتي تُقَدَّمُ

الأعمال، وظهرت كفاءته، فارتفعت مكانته، ثم استوزره المقتفي سنة (٥٤٤هـ) وكان يقول: ما وزر لبني العباس مثله. وهو الّذي لقبه بـ(عون الدين)، وكان لقبه (جلال الدين)، ونعته بـ(الوزير العالم العادل). وقام ابن هبيرة بشؤون الوزارة حكما وسياسة وإدارة، أفضل قيام، ولما توفي المقتفي وبويع المستنجد، أقره في الوزارة، وعرف قدره، فاستمر في نعمة وحسن تصرف بالأمور، إلى أن توفي ببغداد، وصنف كتباً؛ منها : (الإيضاح والتبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين) و(الإشراف على مذاهب الأشراف) في الفقه، و(الإفصاح عن معاني الصحاح) (ت: ٥٦٠هـ) . أنظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٦/ ٢٣٠، والأعلام: الزركلي، ٨/ ١٧٥ .

(١) أنظر: البداية والنهاية: ابن كثير، ١٢/ ٦٣، وممَّا ذكر أنَّ الملك جلال الدولة أمر أبا طاهر بجباية أموال الجوالى، ومنع أصحاب الخليفة من قبضها فانزعج لذلك الخليفة القائم بالله، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٣٠/ ٢٢، حيث ذكر أنَّه لشدَّة نهبهم لبغداد أُبِيْعَ الثور بعشرة دراهم والحمار بدرهمين، وغير ذلك .

إلى الفقراء تجلبُ الطعام، حيث كان يُعرِضُ عنها ويقول : ((أنا أريد كسرة، أريد ما يسدُّ جوعي))[١]، حيث تصاحب فترات المجاعة غلاءً في أسعار المواد الغذائية إلى حدٍّ لا يستطيع أغلب الناس شراءها .

وفي عام (٥١٥هـ) حدثت في العراق كارثةٌ اقتصادية، حيث هطلت الأمطار مدَّةً طويلة، وكانت غزيرةً وشاملة؛ فقضت على الإنتاج الزراعي لذلك الموسم، ونزل الثلج؛ الذي استمرَّ خمسة عشر يوماً؛ فأدّى إلى هلاك الأشجار [٢] المثمرة، ممّا أدّى إلى حدوث أزمة اقتصادية خانقة؛ استمرَّت حتى الموسم الزراعي التالي .

والجدير بالذكر أنّ اقتصاد العراق في هذا العصر ؛ كان يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة، فصلاح الزراعة، أو إهمالها له تأثير كبير على اقتصاد الدولة وحياة الناس، إضافةً إلى الأمراض، وانتشار الأوبئة؛ التي تؤدي بحياة الكثير من أبناء المجتمع العباسي، ولم تكن هذه الطبيعة ترحم عند غضبها، ولا تهدأ حتى تترك آثاراً سيِّئة في المجتمع نتيجة قلَّة الموارد الغذائية، ولم يتمكَّن الفقراء من مواجهة ارتفاع الأسعار، فقد ذكر ابنُ الأثير في حوادث سنة (٤٩٢هـ) ما حدث في بلاد المشرق (خراسان) من غلاء؛ تعذّرَت فيه الأقوات لمدَّة سنتين؛ حتى كان الناس يضطرُّون إلى أكل الكلاب وغيرها من الدواب، فقد كانت هذه المجاعات؛ تعمل على تشتيت الناس وتفرُّقِهم، كما أنّ الشيخ عبد القادر الكيلاني قد بيَّن صورةً لإحدى هذه المجاعات؛ التي كان هو في جملة مَنْ تأثَّر بها؛ فقال : ((وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت أياما لم آكل فيها طعاما، بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها، فخرجت يوما من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك فأتقوت به. فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حبا، فرجعت أمشي وسط البلد أدرك منبوذا إلا وقد سبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الريحانيين ببغداد وقد أجهدني الضعف،

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٨٩ .

(٢) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ١٩٦، والكامل في التاريخ : ابن الأثير، ٨/ ٦٤٠ .

وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صافي[١] وشواء، وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي: فقلت ما هذا. وقلت: ما ههنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت إلى العجمي فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم علي فبادرت نفسي فخالفتها، فأقسم أيضًا، فأجبته، فكلت متقاصراً، فأخذ يسألني: ما شغلك. ومن أين أنت. وبمن تعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان. فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر يعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد، معي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفذت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي، إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيبًا، فإنما هو لك، وأنا ضيفك الآن، بعد أن كنت ضيفي، فقلت له: وما ذاك. فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريت منها هذا للاضطرار، فأنا معتذر إليك، فسكته، وطيبت نفسه، ودفعت إليه باقي الطعام، وشيئا من الذهب برسم النفقة، فقبله وانصرف))[٢] .

وفي مقابل تلك الصورة الكالحة، وما نجم عنها من أزمة حادَّة؛ تُقَدِّمُ المصادر صوَراً جانبية عن البذخ والإسراف في روايات متواترة؛ فابن الجوزي يروي لنا أخبار حفل زفاف الأميرة خاتون ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدي بأمر الله، فيقول: ((أمر الناس بتعليق وتزيين البلد لأجل زفاف خاتون بنت ملك شاه إلى المقتدي ..، ونقل الجهاز على مائة وثلاثين جملا، وبين يديه البوقات والطبول والخدم في نحو ثلاثة آلاف فارس، ونثر عليه بغداد، ثم نقل بعد ذلك شيء آخر على أربعة وسبعين بغلا، وكان على ستة منها الخزانة وهي اثنا عشر صندوقا من

(١) وفي قلائد الجواهر : (خبز رصافي) .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، زين الدين السَلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) ٢/ ٢٠٣ – وما بعدها .

فضة، وبين يديها ثلاثة وثلاثون فرسا، والخدم والأمراء بين يدي ذلك..))[١] .

وابن كثير الحافظ المؤرِّخ يروي لنا في تاريخه تكاليف زفاف الخليفة العباسي القائم بأمر الله من بنت أخ السلطان طغرل؛ فيقول : ((عقد الخليفة على خديجة بنت أخي السلطان طغرلبك على صداق مائة ألف دينار..، وأفاض عليها خلعا سنية وتاجا من جوهر ثمين، وأعطاها من الغد مائة ثوب ديباجا، وقصبات من ذهب، وطاسة ذهب قد نبت فيها الجوهر والياقوت والفيروزج، وأقطعها في كل سنة من ضياعه ما يغل اثنا عشر ألف دينار، وغير ذلك))[٢] .

* * *

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : ابن الجوزي، ١٦/ ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٨٥ – ٨٦ .

المبحث الثالث

الحالة الاجتماعية

إنّ دراسة الجانب الاجتماعي لحياة الناس من الأمور ذات العلاقة الوثيقة بالظروف البيئية، وبما يحصل من تطوُّر في الحياة السياسية والأوضاع الاقتصادية.

فدراسة الحياة الاجتماعية في القرنين الخامس والسادس الهجريين في ظلِّ التسلُّط السلجوقي؛ كما هو الحال في القرون الأخرى لابدَّ أنْ تكون متأثِّرة إلى حدٍّ بعيد بالظروف الاقتصادية والسياسية. وفي الحقيقة أنّ الحياة الاجتماعية للعراق في مدَّة نطاق البحث لا تختلف كثيراً عمَّا كانت عليه في الحقبة السابقة؛ حيث لم تحدُث تطوُّرات كبيرة تستلزم ذلك .

على أنَّ غلَبَةَ العنصر السلجوقي؛ إضافةً إلى مجريات الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية أدَّتْ إلى إيجاد ظواهر معيَّنة؛ كان لها آثارٌ واضحةٌ في حياة الناس الاجتماعية في هذا العصر . فقد كانت طبيعة المجتمع العباسي في هذه المدَّة؛ والذي يمكن القول فيه : أنّه مُجتمَعٌ قلقٌ؛ يرجع – حسب رأينا – إلى التركيبة الاجتماعية، فهو خليطٌ من أجناسٍ مختلفة، فالعرب دبَّ فيهم الضعف منذ أنْ خرجتْ السلطة الفعلية من أيديهم.

والشعوبية لعبتْ دوراً خبيثاً وكبيراً في سبيل الوصول إلى إضعاف الدولة، وهدم كيانها، وفعلاً توصَّلَتْ إلى ما سَعَتْ إليه؛ حين مهَّدَتْ للقضاء على الدولة الإسلامية، وذلك حين سقطتْ بغداد على يد المغول سنة (٦٥٦هـ) .

لقد قسَّم السلاجقة المجتمعَ إلى شِيَعٍ وأحزاب؛ فأصبحت حياة المجتمع العباسي مليئة بالمظاهر الشاذّة، والاضطرابات الكثيرة، فبرزَ العيَّارون [١] .

---

(١) العيار: الكثير الذهاب والمجيء في الأرض، ومِن الرجال الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها

وحركة العيَّارين استفحلت في تلك الحقبة من الزمن، وأخذت تعامل الناس تعاملاً شاذّاً في كثير من الأحيان، فالمؤرِّخون يعدُّونهم لصوصاً، وأنّ حركتَهم لم تقم إلاّ لنشر الفوضى والفساد [١]، وستمرُّ بنا كيف تعرَّضوا لقافلة الشيخ عبد القادر خلال سفره مِن جيلان إلى بغداد [٢] .

وفي ذلك العصر ظهرت حركة الشطار؛ الذين تعرَّضت لهم الكتب الإسلامية، وهم الفتيان، قال الجنيد البغدادي : ((الفتوَّةُ : كفُّ الأذى، وبذلُ الندى))[٣]، بل اعتُبِرَت الفتوّة ((خصلةٌ من خصال الدين، وصِفَةٌ مكمِّلةٌ للعارفين، وهي عهدٌ بين الكبير ورفيقه على التمسُّك بقانون الدين القويم، والعمل بالقسطاس المستقيم))[٤]، فالفتوَّة في الإسلام مسلكٌ أخلاقي يؤدِّي إلى تهذيب الأخلاق، وتؤكِّد المؤاخاةَ بين الناس، والدعوة إلى الفضائل والشجاعة، والابتعاد عن الرذائل والجُبن[٥] .

والواقع أنّ حركة الشطّار أو العيَّارين؛ الذين تعرَّضت لهم الكتب الإسلامية هم الفتيان؛ الذين ظهروا في عهد التسلُّط السلجوقي كطائفة اجتماعية هامّة؛ نظَّمَتْ صفوفها، وأصبح لها نقابات خاصة، ويرى الدكتور عبد العزيز الدوري؛ أنّها كانت تنتظم ((أسلاف حركة الفتوَّة المشهورة))[٦]، ويضيف بأنّ هذه الجماعة كانت تستهدف إجراء ((حركة إصلاحية اجتماعية

. أنظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) ١/ ١٥٣، والمعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، ٢/ ٦٣٩ .

(١) أنظر: تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) ومعه : صلة تاريخ الطبري: لعريب بن سعد القرطبي (ت: ٣٦٩هـ) ١١/ ٤٣٥، والمنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ١٨٥ .

(٢) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٨٧ .

(٣) الرسالة القشيرية : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ) ٢/ ٣٨١ .

(٤) الفتوة : ابن العمار، ص ١٣٩ .

(٥) الفتوة والفتيان قديمًا : مصطفى جواد، ٤/ ٢٤١ .

(٦) تاريخ العراق الاقتصادي: الدوري، ص ٩٣ .

للطبقة الفقيرة؛ دون أنْ يكون لها وقتئذٍ ذلك القانون الأخلاقي السامي؛ الذي تمثَّل في خلافة الناصر))[١] .

ومن الملاحَظ أنّ لفظَ (الفتى) كان شائعاً بين العيَّارين، فقد تغنَّى الشاعر[٢]:

ويقول الفتى إذا طَعَنَ الطعـ ـنة خُذْهَا مِنْ الفتى العَيَّار

ويرى الدوري ((أنّ مدلول الكلمتين (فتى) و(عيَّار) في الأصل واحد))[٣] .

غير أنّ الظروف تحكَّمَتْ في الفتوَّة؛ والتي هي في الأصل نوعٌ من الفروسية الممتزجة بالمُثُل العليا والإيثار، وقد تطوَّرتْ في بغداد، وصبَّتْ فنونها في قالب العصابات؛ التي جعلت هدفها التعرُّض للناس، ونهب الحوانيت وقوافل التجار والأسواق وبيوت الأغنياء[٤] .

وبذلك تبدو هذه الحركة على حقيقتها في هذا العصر اتِّجاهاً رمى معتنقيه إلى التخفيف في الفرق بين الغنى الفاحش؛ الذي كان يمثِّلُه الأمراء في بغداد وتجَّارُها الموسرون، والفقر المدقع؛ الذي يشمل عامّة الناس، ويقول التنوُّخي : ((حدثني بعض التجار البغداديين، قال : خرجت بسلع لي، ومتاع من بغداد ..، فقطع عليَّ، وعلى الكار الذي كنت فيه لصٌّ كان في الطريق، يقال له : ابن حمدي، يقطع قريباً من بغداد، فأفقرني، وكان معظم ما أملكه معي، فسهل علي الموت، وطرحت نفسي له ..؛ فصعدت إلى الموضع الذي هو جالس فيه، وخاطبته في أمري، وبكيت، ورققته، ووعظته، وحلفت له أن جميع ما أملكه قد أخذه، وأنِّي أحتاج إلى أن أتصدق من بعده . فقال لي: يا هذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٣ .

(٢) البيت ضمن قصيدة أوردها المؤرِّخون في كتبهم ونسبوها إلى بعض شعراء بغداد مِن دون تعيين، إلاَّ أنَّ المسعودي نسبها لعلي الأعمى . أنظر: تاريخ الطبري، ٨/ ٤٥٨، والمنتظم: ابن الجوزي، ١٠/ ٣٧، ومروج الذهب: المسعودي، ٢/ ٣٠ .

(٣) تاريخ العراق الاقتصادي: الدوري، ٩٣ .

(٤) أنظر: تاريخ الطبري، ١١/ ٤٣٥، والمنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ١٨٥، والكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٩/ ٩٤ .

وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمرا أعظم مما يرتكبه السلطان. وأنت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم، حتى أنه يأخذ الموسر المكثر، فلا يخرج من حبسه، إلا وهو لا يهتدي إلى شيء غير الصدقة، وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة، والديلم بالأهواز، وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع، والدور، والعقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد، فأحسب أنَّنا نحن مثل هؤلاء))[١]، وكان المشهور عن ابن حمدي هذا أنَّه إذا قطع؛ لم يعرض لأرباب البضائع اليسيرة، ولا يفتِّش امرأةً، ولا يسلبها، وعلى حدِّ قول ابن الجوزي : ((الفتى لا يزني، ولا يكذب، ويحفظُ الحُرَم، ولا يهتكُ سِتْرَ امرأة))[٢] .

ولا نريد أنْ نستطرد في القول فيما قيل في الفتوَّة؛ لأنّ ذلك قد يخرجنا عن نطاق البحث، وإنّما يكفي أنْ نذكر الفتوَّة من حيث هو مذهب اجتماعي؛ تطوَّر كسائر المذاهب الاجتماعية، وقد انتشرتْ تنظيمات الفتوَّة بين عشَّاق اللهو والمتعة الحسِّيَّة، والشطَّار والعيَّارة، والسلب والنهب، ممّا كان له أسوأ الأثر في تحديد قيمة حركة الفتوَّة ودورها، إلى درجة أنَّ الخلافة العباسية اعتبرت الفتوَّة خطراً على المجتمع، بعد أنْ انحرفت عن مسارها الصحيح؛ حينما دبَّ التنازع بين مجاميعها[٣] .

وعلى أيَّة حال؛ فإنَّ اتِّخاذ الفتوَّة هذا المسار في تطوُّرِها أدّى إلى تباين أوضاعها سلباً وإيجاباً؛ حيث كان الفتيان يتحوَّلون إلى شطَّار وعيَّارين؛ يخلُّون بالأدب، وينشرون الاضطراب، ويخيفون السُّبُل، ويُقْلِقون الأُمَّة [٤] .

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي : المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود، أبو علي التنوخي البصري (ت: ٣٨٤هـ) ٤/ ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٢) تلبيس إبليس: عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، أبو الفرج الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ص ٣٤٧ .

(٣) أنظر: مضمار الحقائق وسر الخلائق: محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور ابن المظفر الأيوبي (ت: ٦١٧هـ) ص ١٧٧ .

(٤) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٥/ ٢٢٢، والكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٦/ ٥٧١، ٧/ ٣٠٣، والفتوة وأطوارها: مصطفى جواد، مجلة المجمع الفقهي العراقي، ٥/ ٥٢ .

بيد أنّ الأوضاع قد تدهورت، ولم تستطع السلطة أنْ تفعل شيئاً بعد أنْ اكتشفوا انضمام بعض أفراد البيت السلجوقي في بغداد إلى التنظيمات السرِّية هذه، واحتلالهم مراتب عليا بين صفوف العيَّارين[١] .

ويبدو أنّ أوضاع العيَّارين قد تغيَّرتْ، وأنّ تنظيمهم قد تعقَّد؛ حتى أنّهم اتَّخذوا لأنفسهم جهازَ رقابة دقيقاً؛ يتولَّى رصد الناس وأموالَهم، ويتجسَّس عليهم بقصد الكشف عن أصحاب المال، وقد أدَّى هذا الوضع إلى هياج الناس بصورة عامّة، وقد شمل ذلك بغداد؛ حيث أغلقَ الناسُ دكاكينهم، وقاموا بكسر منابر الجوامع احتجاجاً لاختلال الأمن، وشيوع مصادرة العيَّارين للأموال[٢] .

وهكذا فإنّ تطوُّر الأوضاع الاجتماعية ومظاهرها كان له أكبر الأثر في حياة الناس إلى حدٍّ بعيد خلال القرنين الخامس والسادس؛ فقد دبَّ اليأس، وسيطرَ التشاؤم على نفوس العامة؛ نتيجةً لعدم الاستقرار، وكانت شكواهم تدور حول سيطرة العيَّارين، وسيادة الأتراك السلاجقة، وبزوغ نجم الشاذِّين، ورُوَّاج الفساد، والكذب، والتزوير، وتفشِّي القتل، وانتشار العادات السيِّئة بين أفراد المجتمع، وخاصة مَنْ تأثَّر بالإسماعيلية المنحرفة[٣]، ولم يكن بغريب أنْ يُسْتَغَلَّ الدينُ لخدمة الأهواء، والأغراض، والمصالح الخاصة على حساب مصلحة الأُمَّة .

بيد أنّ الصوفية في التكايا والرُبُطِ؛ قد أثَّروا إيجابياً في الإعداد النفسي في تهيئة الدراسات الشرعية : من حفظ القرآن، ودراسة الحديث، والوعظ .

* * *

---

(١) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٩/ ١٢٧ – ١٢٨ .

(٢) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٥/ ٢١٣ ،

(٣) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨/ ٧٠٣، ودائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ١٨٧، مادة (إسماعيلية) .

المبحث الرابع

الحالة الدينية والفِرَق والمذاهب

عندما تسلَّطَ السلاجقة على مقاليد الأمور في العراق كان العراق قد غصَّ بالفرق الإسلامية المختلفة، والمذاهب الدينية المتعددة، واحتدم الصراع بينها، والذي عكسَ صراعاً دينياً وسياسياً [١] .

قال ابنُ حزم : ((والأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ..، حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيد لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى ففي كل ذلك يظهر الله عزوجل الحق ..، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستشناع ظلم علي رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام))[٢] .

وقد توصَّل الدكتور عبد العزيز الدوري إلى الآثار المدمِّرة الناجمة في هذه الفِرَق؛ حيث ذهب إلى أنّ خطَّتها تنطوي على اتِّجاهات سياسية في دعوتها إلى إزالة السلطان العربي، وإحياء مجد الفُرس؛ دينية في دعوتها إلى المجوسية ومحاربة الإسلام، اقتصادية في دعوتها لأوضاع أفضل[٣] .

(١) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨/ ١٠٩، والبداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٥٠ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أبو محمد الأندلسي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ) ٢/ ٩١ .

(٣) أنظر: الجذور التاريخية للشعوبية : د. عبد العزيز الدوري، ص ٣٤ .

ومهما كان الأمر فقد انتشرت الفِرَق والمذاهب الإسلامية في هذا العصر، وكانت المنازعات والمناقشات مستمرَّةً بينهم، ولقد أصبحت بغداد بصورة خاصة والعراق بصورة عامة ميداناً للصراع الفكري، والنشاط العلمي. غير أنّ هذا الصراع كان عامل تمزُّق وضعف؛ قاسى منه العراق والأُمَّة العربية والإسلامية، فقد حدث من جرَّاء ذلك شيوع حالة الدعة والخمول، وانكسار الشوكة واللاّمبالاة، وتركَّز الصراع على وجهات ضيِّقة النظر، فأُهمل الجهاد، بل كانت أخبار الغزوات الصليبية على الوطن العربي الإسلامي تُقَابَل بحالة من عدم الاكتراث والجدِّيَّة، وعلى الرغم من وجود المذاهب الإسلامية في العراق قبل التسلُّط السلجوقي؛ فإنّ استيلاء هذه القوى الأجنبية على مقاليد الحكم في العراق كان سبباً مباشراً في إذكاء العصبيات المذهبية، وتحوُّلها من خلافات فكرية إلى صراع دموي مدمِّر.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنّ الصراع المذهبي الذي عانى منه السكّان مدَّة طويلة حمل أتْباع المذهب الواحد إلى التجمُّع والسكن في مناطق معيَّنة خاصة بهم؛ كي يواجهوا أصحاب المذاهب الأخرى متجمِّعين، فنجد أنّ الحنابلة كانوا يتجمَّعون؛ فاختاروا مكانهم في الرصافة؛ التي تشكِّل الجانب الشرقي مِن بغداد، كذلك تجمَّع الشيعة الإمامية في الكرخ [١].

وفي عصر التسلُّط السلجوقي كان أصحاب المذاهب: الحنفية والشافعية والحنابلة شديدي الوطأة على المعتزلة [٢]، فابن الجوزي يحدِّثنا عن عدد من الحوادث؛ التي وقعتْ ضدّهم، وعن

---

(١) أنظر: معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله، شهاب الدين، أبو عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ) ٤/ ٤٤٨، ولعل هذه الصراعات المذهبية قد أوحتْ بهذه الصورة، ولكنَّ الواقع الثابت خلاف ذلك؛ فقد كان الأصل في الكرخ مدينة المنصور أو (الزوراء) أو (بغداد) أو (دار السلام) المدينة التي يسكنها العباسيون الذين يصلُّون الجمعة والجماعة والعيدين، وهذا يخالف ما ذهب إليه ياقوت، والمرجَّح أنْ يكون تركُّز الإمامية قد حصل خارج أسوار مدينة السلام في المناطق التي تقع إلى الشرق مِن بغداد؛ كنهر عيسى، وبراثا، وكذلك المنطقة الواقعة إلى الغرب؛ حيث تربة الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد - رحمهما الله تعالى -.

(٢) المعتزلة: أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ، كان تلميذاً للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار، واعتزالهم يدور على أربع قواعد: الأولى: القول بنفي صفات الباري عزوجل مِن العلم والقدرة والإرادة والحياة، والثانية: القول بالقدر، والثالثة: القول بالمنزلة بين المنزلتين، والرابعة: قوله في

تكرار حرق كتب المعتزلة [١]، ويقول أحمد أمين : ((وكان بجانب هؤلاء جماعة من الشكاك؛ رأوا هذه المذاهب المختلفة، والآراء المتناقضة، والأدلة المتعارضة فشكُّوا فيها جميعاً، وكفروا بالجدل ..، ونرى الجماعة الكثيرة؛ قد طلبوا علم الفلسفة، وتبحَّروا فيها، ووسموا أنفسهم بالوقوف على الحقائق، وبالخروج على جملة العامة، ونجد آخرين؛ قد تمهَّروا في علم الكلام، وأفنوا فيه دهرهم، وفخروا بأنّه قد لاح لهم الفرق بين الحق والباطل بالحجج، ثمّ نجدهم كلَّهم – فلسفيّهم وكلاميّهم – مختلفين كاختلاف العامة وأهل الجهل، بل أشدّ اختلافاً))[٢] .

فالشيخ عبد القادر الگيلاني؛ قد تصدّى لهم في كتابه (الغنية) فقال : ((فسُمُّوا المعتزلةَ؛ لاعتزالهم الحق ....، وسمُّوا قدرية؛ لردِّهم قضاء الله عزوجل))[٣] .

أمّا عن الفِرَق المتفرِّعة؛ فقد ذكر الشيخ عبد القادر الگيلاني أنّها ستُّ فرق [٤]، ثمّ ذكر ما اتَّفَقَت عليه هذه الفرق .

وأمّا الفِرَق الأخرى التي بيَّنها الشيخ عبد القادر؛ فهي : أهل السنَّة، والخوارج، والشيعة، والمرجئة، والمشبِّهَة، والجهمية، والطرارية، والكلابية . فأهل السنَّة طائفة واحدة، والخوارج خمس عشرة فرقة، والمرجئة اثنتا عشرة فرقة، والشيعة اثنتان وثلاثون فرقة، والجهمية والنجارية والضرارية والكلابية؛ تُعَدُّ كلُّ فرقة من الفرق واحدة، وأمّا المشبِّهة؛ فهي ثلاث فرق، ومجموع هذه الفِرَق لو أضيفت إلى ما افترقت عليه المعتزلة كما مرَّ ذكره لكانت ثلاثاً وسبعين فرقة، واعتمد الشيخ – رحمه الله فيما ذهب اليه – خبر افتراق الأُمم واختلافها، وبيان الناجي من تلك الفِرَق، والهالك منها، وإليك بعض ألفاظه (وإنّ بَنِيْ إسرائيل تفرَّقَتْ على ثنتَيْنِ وسَبْعِيْنَ

الفريقين مِن أصحاب الجمل وأصحاب صفين : إنَّ أحدهما مخطئ لا بعينه . أنظر: الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ١/ ٤٥ .

(١) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٥/ ١٩٦ – ١٩٧، ١٦/ ٨٨ .

(٢) ضحى الإسلام : أحمد أمين، ٣/ ٣٤٨ – ٣٥٠ .

(٣) الغنية : الجيلاني، ١/ ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٤) أنظر: الغنية، ١/ ٣٩٣ .

مِلَّةً، وتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي على ثلاثٍ وسَبْعْنَ مِلَّةً كُلُّهُم في النَّارِ إلاَّ مِلَّةً واحدةً، قالوا : وَمَنْ هي يا رسولَ الله ؟ قال : ما أَنَا عليهِ وأصْحَابِي)[1] .

ومن هذه الفِرَق الإسماعيلية[2]:

نشطتْ الإسماعيلية في مدَّة التسلُّط السلجوقي، وكان لها خطٌّ سياسي متطرِّف، فهي في الوقت؛ الذي تتكلَّم فيه على تعاليمها الباطنية، وتَعْمَدُ إلى اتِّباع أسلوب سرِّي باطني في نشر الدعوة؛ يضمن عدم الإفصاح عن مبادئها، فإنّها اتَّخَذَت من رعاية العلوم وتنظيمات العمّال والتقاليد الخاصة بها غطاء؛ تتسترّ فيه على حقيقة دعوتها ومبادئها .

ولقد تعرَّضَت أقلامُ الكتَّاب المسلمين لهذه الفرقة بالنقاش والمعارضة وكشف الحقائق، ونشير إلى بعض من كتبَ خلال تلك الفترة؛ فمنهم : الشيخ عبد القادر الگيلاني في تعرُّضه لموضوع الفرقة في كتابه (الغنية)[3]، والإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) في كتابه (فضائح الباطنية)[4]، والإمام أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) الذي وصفهم بأنّهم ((قوم تستروا بالإسلام ومالوا إِلَى الرفض وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة فمحصول

---

(١) مِن حديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه : محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) ٤/ ٣٢٣، برقم (٢٦٤١) وقال عنه: ((هذا حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلاَّ مِن هذا الوجه))، والحاكم في المستدرك على الصحيحين: المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، أبو عبد الله الحاكم الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ) كتاب العلم، حديث عبد الله بن عمرو، ١/ ٢١٨، برقم (٤٤٤) بلفظ: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً « فَقِيلَ لَهُ: مَا الْوَاحِدَةُ ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي») .

(٢) وهم الذين قالوا بأنَّ الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق، وهو ابنه الأكبر، وقد اختلفوا في موته في حال حياة أبيه : فمنهم مَن قال : إنه مات وإنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة، ومنهم مَن قال: إنه لم يمت ولكنه أظهر موته؛ تقية عليه حتى لا يقصد بالقتل، وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنَّما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأنَّ لكلِّ ظاهر باطناً، ولكلِّ تنزيل تأويلاً . أنظر: الملل والنحل: الشهرستاني، ١/ ٩٠ .

(٣) أنظر: الغنية، ١/ ٤٢٤ .

(٤) أنظر: فضائح الباطنية : محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ص ١٨ .

قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ولكنهم لا يظهرون هَذَا فِي أول أمرهم))[١]، ويعلّل الإمام الغزالي الباعث على ظهورهم، ونصب دعوتهم، وإفاضة بدعتهم الناس؛ بقوله: ((مما تطابق عليه نقلة المقالات قاطبة ان هذه الدعوة لم يفتتحها منتسب الى ملة ولا معتقد لنحلة معتضد بنبوة فان مساقها ينقاد الى الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء اهل الدين وينفس عنهم كربة ما دهاهم من امر المسلمين حتى اخرسوا السنتهم عن النطق بما هو معتقدهم من انكار الصانع وتكذيب الرسل وجحد الحشر والنشر والمعاد الى الله))[٢] .

لقد كانت دعوة الإسماعيلية من أخطر ما تكون على الإسلام والمسلمين لِمَا تحمِل مبادئها من خطر عظيم، وما للدعاة من خُبْثٍ ودهاء، يقول البغدادي : ((اعلموا – أسعدكم الله – ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم))[٣] .

لقد كان القرنان الخامس والسادس الهجريان عصر نشاط الإسماعيلية لاسيما بعد بروز دور أحمد بن عبد الملك عطاش [٤] وتلميذه الحسن الصباح [٥] في تنظيم الدعوة الإسماعيلية؛

---

(١) تلبيس إبليس: عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، أبو الفرج الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ص ٩١ – ٩٢ .

(٢) فضائح الباطنية، ص ١٨ .

(٣) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية : عبد القاهر بن طاهر بن محمد، أبو منصور البغدادي التميمي الأسفراييني (ت: ٤٢٩هـ) ص ٢٦٥ .

(٤) أحمد بن عبد الملك بن عطاش، زعيم باطني، من أهل أصبهان، اجتمع عليه عدد من باطنيتها المعروفين بالإسماعيلية، فألبسوه تاجا وجمعوا له أموالا، فاستولى على قلعة أصبهان وقطع الطريق واستفحل أمره، وعلت شكوى الناس منه. وقاتله السلطان بركيارق فكانت له معه عدة وقائع أسر ابن عطاش في آخرها، وقتل سنة (٥٠٠هـ)، بعد أن استقر في سلطانه اثني عشر عاماً . أنظر: الأعلام: الزركلي، ١/ ١٩٣ – ١٩٤ .

(٥) الحسن بن الصباح بن عليّ الإسماعيلي، ولد سنة (٤٢٨هـ)، تتلمذ لأحمد بن عطاش، ثم كان مقدم

حيث تضاعف نشاطها في تبليغ معتقداتها، وإيجاد المراكز المناهضة لآراء المذاهب الإسلامية، والخلافة العباسية، وقد استفاد أحمد بن عبد الملك بن عطاش من اختلاف السلاجقة فيما بينهم؛ فاستولى على قلعة أصفهان (شاه دز) وهي من قلاع أصفهان الحصينة، وملأها بالأسلحة والعتاد، واتّخذها مركزاً لدعوته، فتبعه خلقٌ كثير من أصفهان [١]، وبعد رجوع الحسن الصباح من مصر عام (٤٨٣هـ) استولى على (قلعة ألموت) وهي قلعةٌ بنواحي قزوين؛ والتي كانت بداية لسقوط الكثير من القلاع في هذه المنطقة؛ كقلعة (سنكموه) قرب مدينة أبهر [٢]، وقلعة (خالنجان) قرب أصفهان؛ استولى الباطنية على هذه القلاع جميعاً، في الوقت الذي انتشر فيه دعاتهم في العراق؛ حيث جنَّدوا الانتحاريين لتصفية خصومهم، فأصبحت (قلعة الموت) مصدر رعب للسلطة، كما انطلقتْ منها فِرَقُ الحشيشية؛ التي قتلت الخليفة العباسي المسترشد بالله [٣]، والوزير السلجوقي نظام الملك سنة (٤٨٥هـ) [٤] .

ويُعَقِّبُ البنداري على هذه الأحداث؛ فيقول : ((فنابت النوائب، وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا، وكالوا بصاعنا، وكانوا معنا في المكتب، وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والأدب، وكان منهم رجلٌ أقام الفتنة كلّ قيامه، واستولى في مدَّة

الإسماعيلية بأصبهان، ورحل منها، وطاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي، وأعطاه مالاً، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته. فعاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعيا إلى المستنصر. ثم استولى على قلعة ألموت (Alamo عزوجل) من نواحي قزوين، وطرد صاحبها سنة (٤٨٣هـ) وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أنْ توفي فيها، قال عنه الزركلي: داهية شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم. (ت: ٥١٨هـ) . أنظر: الأعلام : الزركلي، ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ .

(١) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨/ ٥٤١ .

(٢) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والعجم يسمّونها أوهر. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ص ٨٢ .

(٣) أنظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت: ١١١١هـ) ٤/ ٢١٩ .

(٤) أنظر: تاريخ الإسلام: الذهبي، ٣٤/ ٣٣ .

قريبة على قلاع وحصون منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة))[١]، وقد تصدَّت لهم الخلافة العباسية، ولكن هذه الدعوة كانت تنشط وتضعف حسب الظروف السياسية .

ولا يفوتنا أنْ نذكر أنّ هذه الفِرَق : المعتزلة، والمرجئة، والجهمية كثيراً ما كانت تتعرّض لمناقشة الكثير من الأمور السياسية والدينية، وهذا بلا شك أدّى إلى صراع ومناقشات؛ احتدمت مدَّةً طويلة من الزمن، ويبرز دور العلماء والمرشدين؛ الذين وقفوا طوداً شامخاً أمام كلِّ التيارات الهدَّامة والفِرَق الضالَّة لاسيما شيوخ المدرسة النظامية وخرّيجوها لمناهضة أفكار هذه الفِرَق .

❊ ❊ ❊

(١) تاريخ دولة آل سلجوق: البنداري، ص ٦٨ .

المبحث الخامس

الحالة العلمية

إنّ ما أحاق بهذه المدّة من كوارث طبيعية، وأحداث سياسية، وفتن، واضطرابات في الإدارة، وعبث في الأمن الداخلي، ووصفٍ لطبيعة المجتمع من حيث تركيبته السكّانية، وعلى الرغم من هذه الأحداث فقد شهدت هذه الحقبة نشاطاً علمياً وفكرياً ذا طابع ديني؛ حمل لواءه المتصوفة المتجرِّدون أمثال الشيخ بد القادر الجيلاني، والفلاسفة المتصوّفون أمثال الإمام أبي حامد الغزالي، وغيرهما من العلماء .

وعلى الرغم من تأكيد المصادر التاريخية على أنّ سلاطين السلاجقة كانوا جفاة وغير مثقَّفين؛ فقد اضطرُّوا إلى الاستعانة برجال أكفاء لخدمة الدولة في مختلف الشؤون الإدارية والسياسية من وزراء، وحجَّاب، وكتَّاب ممّن كانت لهم خبرات سابقة في هذه المجالات لدى الدويلات الإسلامية في المشرق [١]، كما استعان السلاجقة بأعداد من الكتّاب؛ الذين لهم خبرة في الإدارة، وكان لهم دَورهم في إدارة البلاد السياسية والإدارية والعلمية [٢] .

فقد أدرك السلاجقة أنّ العلم هو عماد الدولة، وأنّ العلماء هم مشاعل الحضارة؛ فعملوا على تشجيع العلم، فبنوا المدارس والخوانق، وأكرموا العلماء، ولقد أدرك السلاجقة أنّ خير مَنْ يضمن لهم بقاء دولتهم أنْ يرفدوا مراكزها المختلفة بالعلماء للدفاع عن الإسلام، والدفاع عن أُمور الدولة، فقد كانت قصور السلاطين شامخةً بأهل العلم والمعرفة [٣] .

---

(١) أنظر: سلاجقة إيران والعراق: عبد المنعم حسنين، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(٢) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ٥٠٣ .

(٣) أنظر: البداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ١١١، والدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت: ٩٢٧هـ) ٢/ ١٢٩ .

لقد تهيّأ للسلاجقة أنْ يحكموا العراق أعقاب نشاط فكري متّصل عاشه العراق عند بداية القرن الثاني وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، وقد هيّأ لهم أنْ يعيشوا نهضةً علميةً شاملةً نتيجةَ نضج الثقافة والفكر الإسلامي، ولقد ظهر الغزالي أبو حامد (ت: ٥٠٥هـ - ١١١١م) في هذا العصر واحداً من روّاد العلم، ورجال التربية المعدودين، فالغزالي كان مدرسةً لجميع أفراد المجتمع في عصره، بما كان يكتب ويصنِّف من مصنَّفات؛ تتناول شتى الموضوعات، فقد كتب في شؤون التربية والتعليم على أنّ أهمّ آرائه التربوية والتعليمية ظهرتْ في كتبه : (إحياء علوم الدين)، (فاتحة العلوم)، (أيها الولد)، (الرسالة اللدنِّيَّة)، (ميزان العمل)، فقد ناقش الغزالي الكثير من الأمور التربوية والتعليمية، ويقسِّمُ العلوم إلى المحمود والمذموم، كما وضع للمعلِّم صفات مهمّة؛ إذا اتَّصف بها يكون معلِّماً ناجحاً [١] .

وقد كان للوعّاظ دور في الثقافة العامة، فقد كان الفقيه المروزي أبو الحسن أردشير بن منصور [٢] في بغداد؛ حيث كان له مجلس وعظ بالمدرسة النظامية، وكان يحضرها المشايخ، وأهل العلم، ومن الأماكن المهمّة؛ التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في إثراء الثقافة ونهضة التعليم في العراق خلال تلك الفترة (الرُبُط)، وقد أُطلِقَ الرباط في صدر الإسلام على رباط الخيل؛ من قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ [٣]، ومنه أُخِذَت المرابطة، أي : ملازمة ثغر العدو، يقول صاحب دائرة المعارف الإسلامية : ((غير أنّنا نجد أنّ صفة هذه الرباطات؛ قد تغيَّرت في الشرق، أي : في البلاد التي أصبحت في مأمن

---

(١) أنظر: إحياء علوم الدين، ١/ ٣١، ٥٥ - وما بعدها .

(٢) أردشير بن منصور، وقيل: بن أبي منصور، الأمير أبو الحسين المروزي العبّادي الواعظ، قدم نيسابور ووعظه فأبدع وأعجب المستمعين بحُسْن إيراده، ونُكَت أنفاسه، وملاحة قصصه وظهر لَهُ القبول عند الخاصّ والعام، وخرج إلى العراق، ولقي ببغداد قَبُولاً بالغاً، ثمّ عاد إلى نيسابور، سمع من: أَبِي الفضل بْن خَيْرُون، وغيره. وحدَّثَ بمَرْو، قال عنه الذهبي: وجاء عَنْهُ زُهْد وتعبُّدٌ، وتكلّم عَلَى الخواطر، وتاب عَلَى يده خلْق كثير. وكان أمّاراً بالمعروف، مُرِيقًا الخُمُور، مُكَسِّراً للملاهي، وصَلُح أهل بغداد تِلْكَ الأيام به . أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ٣، وتاريخ الإسلام : الذهبي، ٣٤/ ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) سورة الأنفال، من الآية ٦٠ .

من أهل الكفر، وعمد أهله على ترك التدريب العسكري، واستبدلوا به حياة الزهد والتقشُّف، وترديد الأوراد، وهكذا كانت سُنَّةُ الرُبُط القديمة، وقد تطوّر التصوف، وتشعَّب الصوفية طرقاً كلّ واحدة منسوبة إلى مؤسسها منذ القرن السادس الهجري، فكان هو العلّة؛ التي برّرت استمرار هذه الثكنات باتِّجاه زوايا وتكايا))[١] .

وهكذا ربّى الشيخ عبد القادر تلاميذه على العمل ونشر الدعوة والتدريس والوعظ والتربية، فقد كان يختار من تلاميذه اليقظين ممّن يشاركونه عمله الروحي، وخاصة أولاده؛ الذين شاركوه في الوعظ والتدريس والإرشاد، وهناك قِسمٌ من مريديه؛ قد انتقلوا إلى أماكن أخرى، فأسَّسوا رُبُطاً ومدارس ودورَ عبادة وإرشاد؛ من هؤلاء : أحمد بن أبي بكر ابن المبارك أبي السعود؛ الذي صار المُشار إليه بعد الشيخ عبد القادر، وصار له القبول التام عند الخاص والعام، ووفَّقَه الله لخدمة الشريعة والحقيقة، وكذلك الحسن بن مسلم؛ الذي كان له رباط خاص يربِّي فيه المريدين، وكذلك محمود ابن عثمان بن مكارم النقال البغدادي؛ الذي كانت مهنته الإشراف على رباط الطلاب الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية، وبعد وفاة الشيخ أصبح هو ومريدوه من دعاة الخير الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، المحاربين للفساد وأهله [٢] .

والرُبُط بدأت فكرتها مع بداية التعليم الإسلامي؛ حيث ارتبطت بأسماء العلماء؛ الذين كانوا سبباً في تأسيسها، فالرباط مكان تلقى فيه دروس الوعظ والإرشاد على طلاّب العلم، وقاصدي الهداية الراغبين بالتفقُّه بالدين، والرباط غير الزاوية والطائفة مع ما بينهما من صفات مشتركة، فقد وجدنا لفظ الزاوية يطلق على ناحية من نواحي المسجد الكبرى، كما هو الحال في جامع عمرو بن العاص في مصر .

وفي القاموس الإسلامي أنّ الزاوية في الاصطلاح الإسلامي؛ تطلق على خلوة تُتَّخَذُ

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مارسية، ١٠/ ٢٢ .

(٢) أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين: د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ١٨٥ – وما بعدها .

للاعتكاف والعبادة، أو تطلق على موضع للعبادة، أو للتعليم؛ لهذا قامت الرُبُط على تخوم الدولة الإسلامية على هذا الأساس .

أمّا الطائفة : فدارٌ كبيرة متعدِّدة الغرفات والمرافق موقوفةٌ على الصوفية، ويرتَّب لهم فيها الطعام، وتُقَدَّمُ لهم الكسوة [١] .

إنّ هذه الرُبُطَ وأمثالها في مدن العراق كان لها دور مهم في تاريخ الإسلام لاسيما في العصر السلجوقي، ففيها كان يلتقي العلماء وأهل المعرفة للبحث والتدريس والمناظرة، وفي مكتباتها يجد عشّاق الكتب وهُواة المعرفة نفائس الآثار وروائع المصنفات، وفي الرُبُط كان يقيم طلبة العلم المغتربون؛ الذين كانوا يقصدون بغداد للدراسة .

والزاوية في نظر الشيخ عبد القادر – رحمه الله – لابدَّ أنْ تؤدِّي دورها وتكون مركز إشعاع ينير للناس طريقهم، ويتعلَّمون فيها أُمور دينهم؛ لذلك كانت زاويته مأوى يلجأ إليه المريدون؛ يدرسون ويتعلَّمون ويأكلون وينامون ويتربَّون، ومنها ينطلقون إلى البلاد؛ يدعون الناس إلى ما دعاهم إليه الشيخ – رحمه الله – .

قال الجبائي : ((..، وقلت في نفسي : أشتهي أنْ انقطع عن الخلق، وأشتغل بالعبادة، ومضيتُ وصلَّيتُ خلف الشيخ عبد القادر، فلمّا صلّى وجلستُ بين يديه نظرَ إليَّ وقال : إذا أردتَ الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقَّه وتجالس الشيوخ وتتأدَّب بهم؛ فحينئذٍ يصحُّ لك الانقطاع، وإلاّ فتمضي وتنقطع قبل أنْ تتفقَّه، وأنت فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ؛ فإنْ أشكلَ عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك، وتسأل الناس عن أمر دينك ؟ ما يحسن بصاحب الزاوية أنْ يخرج من زاويته، ويسأل الناس عن أمر دينه؛ ينبغي لصاحب الزاوية أنْ يكون كالشمعة يُسْتَضَاء بنوره))[٢] .

ولا يمكن أنْ نغفل التطور الذي حدث لزاوية الشيخ عبد القادر، والدَور الريادي الذي

---

(١) القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله، ٣/ ١٣ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٣/ ٩١ – ٩٢ .

قامت به تلك الزاوية؛ حيث لم تقتصر على تعاليم منشئيها، بل صارت معهداً لتعليم كلِّ العلوم الشرعية واللغوية والعقلية والإنسانية .

أمّا المرشدون فقد كانوا يمنحون مريديهم الذين تأهَّلوا لحمل راية الإرشاد إجازات إرشادية وعلمية يباشرون بها إرشاد المرشدين الجُدُد وتوجيههم .

فالزاوية القادرية في جملتها أدَّت رسالتها؛ فقد قضت على كثير من الأمراض التي انتشرت في عصره، وعوامل الضعف والتحلُّل والجهل والضلالات والخزعبلات؛ التي سيطرتْ على قلب المجتمع الإسلامي .

وببركة الزاوية القادرية انتشرت الزوايا في العالم العربي وغيره، وكانت سبباً مهمَّاً في نشر الإسلام عن طريق السالكين من التجار والمتعلمين .

*** المدارس العلمية في عصره :**

ومن أهمِّ المظاهر العلمية في تلك الحقبة من الزمن انتشار المدارس في العراق والمشرق الإسلامي، قال السبكي – في حديثه عن نظام الملك –: ((وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال إنَّ له في كلِّ مدينة بالعراق وخراسان مدرسة))[1] .

لقد نشأ منذ أواسط القرن الرابع الهجري الكثير من المدارس؛ التي استقلّت عن المساجد الجامعة؛ فقد أشار ابن جبير إلى مدارس بغداد عند زيارته لها سنة (٥٨٠هـ)، فقال : ((والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك، وجددت سنة أربع وخمس مئة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير الى الفقهاء المدرسين بها،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) ٤/ ٣١٣ – ٣١٤ .

ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد))[١] .

وقد أشار أحد الباحثين المعاصرين إلى ثمان وثلاثين مدرسةً متنوعة نشأت في بغداد خلال تلك الفترة [٢]، بعضها يمثِّل اتّجاهاً مذهبياً مفرداً، في حين أنّ كثيراً منها كانت تدرس على أساس المذاهب الأربعة [٣] .

وخلاصة القول: إنّ أهمّ مميّزات هذا العصر من الناحية الأدبية والعلمية؛ إنشاء المدارس، وإخراج الموسوعات العلمية، والاهتمام بالصناعة اللفظية في الشعر والنثر، وضبط قواعد العربية [٤]، وسأعرض أهمَّ المدارس في هذا العصر :

*** المدارس الحنفية في بغداد :**

١. مدرسة تركان خاتون (ت: ٤٨٧هـ) : وتركان ابنة طراج، وزوجة السلطان ملكشاه السلجوقي، وقد بَنَتْ هذه المدرسة بالجانب الشرقي من بغداد باب الأزج (الرصافة) وسمِّيت باسمها، وبقيت عامرةً حتى أواخر القرن الخامس الهجري[٥] .

٢. المدرسة التتشية : من المدارس الحنفية ببغداد؛ أنشأها الأمير خمارتكين بن عبد الله التتشي بحدود سنة (٥٠٠هـ) وقد ذكرها ياقوت الحموي بقوله : ((ومدرسة... لأصحاب أبي حنيفة يقال لها: التتشيّة ..))[٦]، وقد درس فيها عدد من العلماء؛ منهم: محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن اللمغاني (ت: ٥٥٤هـ) كما درس بها الشيخ ابن الشاشي المدرِّس بالمدرسة النظامية، قال ابن الجوزي : ((جلس ابن الشاشي

(١) رحلة ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير، الكناني الأندلسي (ت: ٦١٤هـ)، ص ١٨٣ .
(٢) أنظر: نشأة المدارس المستقلة في الإسلام: ناجي معروف، ص ١٤ .
(٣) أنظر: تاريخ علماء المستنصرية : ناجي معروف، ١/ ٨١ .
(٤) أنظر: ابن الخشاب – حياته ونحوه: علي عبود الساهي، ص ٢٣ .
(٥) أنظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٧/ ٨١ .
(٦) معجم البلدان : ياقوت الحموي، ٢/ ١٥ .

للتدريس بالمدرسة النظامية التتشية على شاطئ دجلة بباب الأزج))[١] .

٣. المدرسة المغيثية : وهي من المدارس على المذهب الحنفي؛ نسبةً إلى السلطان مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (ت: ٥٢٥هـ) .

٤. مدرسة جامع السلطان : بنى الجامع والمدرسة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي سنة (٤٨٥هـ) قد ذكر ابن الجوزي ((...، أنَّ السلطان ملك شاه تقدَّم .. ببناء سوق المدينة ..، ونودي أن لا تعامل إلا بالدنانير، ثم بعمارة الجامع))[٢] .

٥. المدرسة الموفقية : بنى هذه المدرسة الخادم موفق بن عبد الله الخاتوني؛ خادم السيدة خاتون زوجة الخليفة المستظهر بالله (ت: ٥٣٦هـ)[٣] .

٦. المدرسة الزيركية : من مدارس الحنفية ببغداد، وتقع في سوق العميد بمنطقة سوق السلطان، ولا يعرف إلى مَنْ تُنتَسَب هذه المدرسة[٤] .

* **المدارس الشافعية :**

١. المدرسة النظامية : أول مؤسسة علمية متخصصة في البلاد الإسلامية؛ أُفرِدَت لتدريس العلوم الشرعية، وهَيأتْ للطلاب أسباب العلم، وأصبحت من دور العلم المتميِّزة، بناها الوزير نظام الملك (ت: ٤٥٧هـ)[٥] .

٢. المدرسة التاجية : تنسب هذه المدرسة إلى تاج الملك أبي الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز (ت: ٤٨٥هـ)(٦)؛ والذي أوقفها سنة (٤٨٢هـ) على أتباع المذهب الشافعي .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه، ١٦/ ٢٩٨ .

(٣) أنظر: الجامع المختصر: ابن الساعاتي، ٩/ ١٧٨ .

(٤) أنظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية : عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي (ت: ٧٧٥هـ) ١/ ٣٠٢، ومدارس بغداد في العصر العباسي: عماد عبد السلام، ص ٧٣ .

(٥) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٦/ ٩١، والكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨/ ٢٠٤ .

(٦) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٨/ ٣٣٣، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٣٣/ ١٢ .

٣. مدرسة قراح ظفر : من مدارس الشافعية، بنى هذه المدرسة الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي (ت: ٥٠٧هـ) درس بها حتى سنة (٤٨٢هـ)[١] .

٤. المدرسة الثقتية : قام بتأسيسها ثقة الدولة علي بن محمد بن يحيى بن الحسن الدريني، وافتتحها عام (٥٤٠هـ)[٢] .

٥. المدرسة الكمالية : أسس المدرسة كمال الدين، أبو الفتوح، حمزة بن علي بن طلحة الرازي (ت: ٥٥٦هـ)، افتُتِحَتْ سنة (٥٣٥هـ)[٣] .

٦. المدرسة البهائية : تقع بالقرب من المدرسة النظامية، ولا يعلم مَنْ أنشأها، وهي من مدارس الشافعية، درس في هذه المدرسة داود بن بندار بن إبراهيم الجيلاني (ت: ٦١٨هـ)[٤] .

٧. المدرسة الفخرية – مدرسة دار الذهب : أنشأها فخر الدولة، أبو المظفر، الحسن بن هبة الله البغدادي الوزير الصوفي (ت: ٥٧٨هـ)[٥]، قال ابن الفوطي : ((كان من بيت الوزارة؛ فأعرض عنها، وجعل داره رباطاً للصوفية، ومالَ إلى التصوف، وعمر المدرسة الفخرية بالمأمونية، وجعل فيها خزانة كتب جامعة لأنواع العلوم))[٦] .

٨. المدرسة الاسبابذية : وهي من مدارس الشافعية، درس بها الشيخ أبو بكر محمد بن يحيى السلامي (ت: ٦٣٩هـ)[٧] .

٩. مدرسة أبي النجيب السهروردية: بناها أبو النجيب، عبد القاهر بن عبد الله بن عمويه

---

(١) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ٤/ ٥٧ .

(٢) أنظر: تاريخ إربل: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإِربلي، المعروف بابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) ٢/ ١٢١ .

(٣) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٩/ ١١٣، والبداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٢٦٩ .

(٤) أنظر: تاريخ الإسلام: الذهبي، ٣٩/ ٢٩٨،

(٥) أنظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ٩/ ٤٦٩، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٠/ ٢٥٧ .

(٦) مجمع الآداب : ابن الفوطي، ٣/ ١٥٥ .

(٧) أنظر: طبقات الشافعية : السبكي، ٧/ ١٧٣ .

السهروردي (ت: ٥٦٣هـ)؛ الذي قال عنه ابن الجوزي: ((سمع الحديث وتفقه ودرس بالنظامية وبنى لنفسه مدرسة ورباطاً، ووعظ مدة وكان متصوفاً))[١] .

١٠. مدرسة زمرد خاتون أو (مدرسة الأصحاب) : أنشأت هذه المدرسة زمرد خاتون ابنة عبد الله التركية والدة الخليفة الناصر؛ التي أشار المنذري إلى أنّها عمَّرَتْ المدارس والرُبُط والجوامع، وأوقفت وقوفاً كثيرةً، (ت: ٥٩٩هـ)[٢] .

* **المدارس الحنبلية في بغداد :**

١١. مدرسة المخرمي : من مدارس بغداد الحنبلية، بناها القاضي أبو سعد المبارك المخرمي، قاضي باب الأزج[٣] (ت: ٥١٣هـ)، وقد درس بها الشيخ أبو صالح عبد القادر الجيلاني، وتولّى التدريس فيها، وظلّ قائماً على التدريس في هذه المدرسة حتى عُرِفت بعد باسمه؛ فارتبط بها، ولم يترك التدريس فيها، ولم يغادرها إلى غيرها حتى وافاه الأجل، قال ابن كثير في تعريفه للشيخ : ((ودخل بغداد؛ فسمع الحديث وتفقه على: أبي سعيد المخرمي[٤] الحنبلي، وقد كان بنى مدرسة ففوضها إلى الشيخ عبد القادر))[٥] .

---

(١) المنتظم، ١٨/ ١٨٠، وينظر: طبقات الشافعية الكبرى، ٧/ ١٧٤ – ١٧٥ .

(٢) أنظر: الدارس في أخبار المدارس، ١/ ٣٨٥ .

(٣) باب الأزج: محلّة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحالّ كبار في شرقي بغداد، فيها عدّة محالّ كلّ واحدة منها تشبه أن تكون مدينة، ينسب إليها الأزجيّ، والمنسوب إليها من أهل العلم وغيرهم كثير جدّا . معجم البلدان: ياقوت الحموي، ١/ ١٦٨ .

(٤) المبارك بن علي المخرمي، أبو سعد البغدادي، حدث عن: أبي جعفر بن المسلمة، وأبي الغنائم بن المأمون، وتفقه بالقاضي أبي يعلى، ثم بأبي جعفر بن أبي موسى، ويعقوب بن سطورا البرزبيني، ولازمهما حتى ساد، روى عنه: المبارك بن كامل، وتفقه به خلق، وبنى مدرسة بباب الأزج، درس بعده بها تلميذه الشيخ عبد القادر وكبرها، قال عنه الذهبي: العلاَّمة، شيخ الحنابلة، وكان نزهاً عفيفاً، ناب في القضاء، وحصل كتباً عظيمة، وفتحت عليه الدنيا، وبنى داراً وحماماً وبستاناً (ت: ٥١٣هـ) . أنظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، ١٩/ ٤٢٨، وذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، ١/ ٣٦٤ .

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير، ١٢/ ٣١٣ .

١٢. قال ابن رجب في أبي سعد المخرمي : ((وبنى مدرسة بباب الأزج ..، والمدرسة المذكورة؛ التي بناها هي المنسوبة الآن إلى تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي؛ لأنّه وسَّعَها، وسكن بها، فعرفت به))[١] .

١٣. وقال أبو الحسن ابن التبان الفقيه البغدادي : ((إنّ مدرسة عبد القادر كانت للقاضي المخرمي، فلمَّا فُوِّضَتْ إلى عبد القادر أراد أنْ يوسِّعَها ويعمِّرَها؛ فكان الرجال والنساء يأتونه بشيء فشيء إلى أنْ عمرها ..،))[٢] .

١٤. مدرسة أبي شجاع : وهي المدرسة التي بناها بهرام بن بهرام، أبو شجاع (ت: ٥٢٠هـ) فقد ترجم له ابن الجوزي، وقال بأنّه : ((بنى مدرسةً لأصحاب الإمام أحمد بباب الأزج ..، ووقف قطعةً من أملاكه على الفقهاء))[٣] .

١٥. مدرسة الابرادي: أسس هذه المدرسة الفقيه الحنبلي أحمد بن علي بن عبد الله الأبرادي، أبو البركات (ت: ٥٣١هـ) أنشئت في محلة البدرية في شرقي بغداد[٤].

١٦. مدرسة ابن الشمحل : شيَّد هذه المدرسة أبو القاسم عمر بن ثابت بن الشمحل سنة (٥٥٦هـ) وقال عنها ابن الجوزي : ((..، فتحت المدرسة التي بناها ابن الشمحل في المأمونية))[٥] .

١٧. مدرسة الوزير ابن هبيرة : أنشأها وزير الخليفة المقتفي، أبو المظفر، يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني (ت: ٥٦٠هـ) بنيت في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) سنة (٥٥٧هـ)[٦] .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ١/ ٣٦٥ – ٣٦٦ .

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ١٩١ .

(٣) المنتظم، ١٧/ ٢٤٠ .

(٤) أنظر: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن عبد الله، أبو إسحاق، ابن مفلح (ت: ٨٨٤هـ) ١/ ١٤٤، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٣٦/ ٢٣٢ .

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٤٧ .

(٦) أنظر: البداية والنهاية : ابن كثير، ١٢/ ٣٠٥ .

١٨. مدرسة ابن بكروس : تقع هذه المدرسة ببغداد الشرقية، شيَّدها أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن بكروس البغدادي (ت: ٥٧٣هـ) الذي كان زاهداً [١].

١٩. مدرسة ابن الجوزي : وتقع بدرب دينار في منطقة شرق بغداد، شيَّدَها العالم أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) قال ابن الجوزي – وهو يتحدّث عن نفسه – : ((وفي يوم الأحد ثالث المحرم : ابتدأتُ بإلقاء الدرس في مدرستي بدرب دينار))[٢].

٢٠. مدرسة بنفشا الشاطئية : تقع على شاطئ نهر دجلة في محلة من محالِّ بغداد الشرقية؛ يقال لها باب المراتب، وهو أحد أبواب دار الخلافة ببغداد [٣]، وقد بنيت على نفقة السيدة بنفشا بنت عبد الله الرومية (ت: ٥٩٨هـ)[٤]، وقال عنها سبط ابن الجوزي : ((..، وهي التي اشترتْ دار الوزير ابن جهير بباب الأزج ووقفَتْها على الحنابلة، وفوَّضَتْ نظرَها إلى جدِّي))[٥].

٢١. مدرسة ابن العطار : وهي من مدارس الحنابلة بشرقي بغداد، شيَّدها أبو القاسم، نصر بن منصور بن الحسين بن أحمد العطار (ت: ٥٩٥هـ) قال ابن الساعي : ((بنى مدرسةً للفقهاء الحنابلة بدرب القيار))[٦].

وهناك الكثير من صروح العلم والمعرفة؛ ازدهر بها العراق وبغداد على وجه الخصوص، فقد كانت فريدة عصرها في بثِّ نور العلم من خلال جهابذتها ومفكريها؛ فأذكر منهم على

(١) أنظر: تاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٠/ ١١٦، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد، أبو الفلاح العَكري الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ) ٥/ ٤٥ .

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٢١١ .

(٣) أنظر: ذيل تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد): محمد بن سعيد، أبو عبد الله ابن الدبيثي (ت: ٦٣٧هـ) ٥/ ٧٥.

(٤) أنظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، ١/ ٣١٢ .

(٥) الجامع المختصر: ابن الساعي، ٩/ ٨٩ .

(٦) مجمع الآداب: ابن الفوطي، ٤/ ١٥٨ .

سبيل الإيجاز لا الحصر بعض الذين رفعوا مشعل الهداية؛ فدرسوا في المدرسة النظامية ببغداد، ومنهم [١]:

* حجّة الإسلام محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)[٢].
* وكما تولَّى التدريس فيها فخر الإسلام، محمد بن أحمد بن الحسين، أبو بكر الشاشي (ت: ٥٠٧هـ)، والذي اشتهر بعدد مِن المصنَّفات؛ أهمُّها: كتاب (حلية العلماء في المذهب)[٣].
* كما تولى التدريس أحمد بن علي بن محمد بن برهان (ت: ٥١٨هـ)[٤].
* ومن الذين درسوا الفقه عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب، أبو محمد الشيرازي الفارسي (ت: ٥٠٠هـ)[٥].
* ودرس الفقه فيها عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، أبو النجيب السهروردي (ت: ٥٦٣هـ)[٦].
* ولم يفت الشيخ عبد القادر الحضور في هذه المدرسة لإلقاء محاضرات فيها[٧].

(١) حدَّد القلقشندي وظيفة المدرس بأنَّه: ((الـذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك)). صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، ٥/ ٤٣٦.

(٢) أنظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، ١٩/ ٣٤٣.

(٣) أنظر: طبقات الشافعيين، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ١/ ٥٣٠.

(٤) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ٦/ ٣٠.

(٥) أنظر: طبقات الشافعيين: ابن كثير، ص ٥٩١.

(٦) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ٧/ ١٧٤.

(٧) أنظر: الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار): عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، أبو محمد الشَّعْراني (ت: ٩٧٣هـ) ١/ ١١٠.

[الفصل الثاني]

حياته الشخصية

ويشتمل على تمهيد وستة مباحث :

* التمهيد : في بيان بيئته .
* المبحث الأول : اسمه ونسبه وولادته .
* المبحث الثاني : أسرته .
* المبحث الثالث : صفته وشمائله .
* المبحث الرابع : عقيدته .
* المبحث الخامس : كراماته .
* المبحث السادس : وفاته .

التمهيد

بيئته

البيئة : جيلان، قرية من قرى طبرستان، ويتَّفق كلُّ مَنْ تحدَّث عن الشيخ عبد القادر أنّ ولادته كانت في هذه المدينة، ويصف ياقوت الحموي جيلان وطبيعة أرضها؛ فيقول : ((وليس في جيلان مدينة كبيرة إنما هي قرى في مروج بين جبال، ينسب إليها جيلانيّ وجيليّ، والعجم يقولون كيلان، وقد فرَّق قوم؛ فقيل: إذا نسب إلى البلاد قيل جيلانيّ وإذا نسب إلى رجل منهم قيل جيليّ، وقد نسب إليها من لا يحصى من أهل العلم في كل فنّ وعلى الخصوص في الفقه ..))[١] .

ويقول السمعاني : ((الجِيْلِيّ : بكسر الجيم وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها، هذه النسبة إلى بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها كيل وكيلان؛ فعرب، ونسب إليها، وقيل : جيلي وجيلاني، والمنتسبون إليها كثير ..))[٢] .

ويذهب ابن الأثير في كتابه (اللباب في تهذيب الأنساب) إلى أنّ ((الجيلاني ..، هذه النسبة إلى بلاد ورجل؛ فأمّا البلاد فإلى جيلان، وهي بلاد وراء طبرستان، وقد ينسب إليها جيلي، وقد تقدَّم ذكرهم، وفيهم كثرة، وأمَّا الرجل؛ فهو جدُّ محمد بن إبراهيم بن جيلان بن محمد الجيلاني الفارسي نُسِبَ إلى جدِّه، وسكن بلخ))[٣] .

(١) معجم البلدان، ٢/ ٢٠١ .
(٢) الأنساب: عبد الكريم بن محمد بن منصور، أبو سعد السمعاني (ت: ٥٦٢هـ) ٣/ ٤٦٢ .
(٣) اللباب في تهذيب الأنساب : علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، أبو الحسن الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ١/ ٣٢٤ .

ويرى عدد من الباحثين أنّ هذه النسبة إلى جيلان ليست نسبة إلى مكان إنّما هي نسبة إلى خشب صلد؛ حيث جاء في اللباب : ((هذه النسبة إلى جيلان، وهو خشب صلب من خشب العناب؛ يقال له : جيلان، ويقال لمن يعمل منه : الجيلاني))[1] .

وذهب عددٌ آخر منهم إلى أنّ جيلان هي اسم لمن بناها؛ فيقول السمعاني : ((هذه النسبة إلى جيلان، وهي بلاد معروفة وراء طبرستان، وإنّما سمِّيَت جيلان باسم مَنْ بناها، وقيل : الخزر والبكوران وجيلان والتتر والطيلسان وموقان والكرج بنو كاشح بن يافث ابن نوح، والنسبة إليها جيلي))[2] .

وعاصمة جيلان رشت؛ التي تقع في الطرف الجنوبي الغربي لبحر قزوين، وفي الجنوب من ميناء بهلوي، وعلى نهر بعيد مِن حدود جمهورية أذربيجان، وتبعد عن طهران بمسافة (١٥٠ميل) وينسب إليها جماعة مِن الأعلام[3] .

ويظهر ممّا جاء في كتب المؤرِّخين والنسَّابين أنّ جيلان مدينة كبيرة قياساً إلى القرى الصغيرة المحيطة بها؛ فهي قرية كبيرة، وقد يطلق عليها مدينة؛ لأنّها أكبر القرى المحيطة بها ن فابن العماد الحنبلي يقول : ((الجيلاني في نسبة إلى جبل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان ...، ويقال لها ...، جيلاني وكيلان))[4] .

ويبدو أنّ بعض المؤرِّخين حسبوا أنّ جيلان اسم لبلاد تتألَّف من قرى كثيرة، أي: إنّ هذه اللفظة اسم لمنطقة، وأنّ القرية التي ولد فيها الشيخ عبد القادر تابعة لمنطقة (جيلان) فقد جاء في (معجم البلدان) ((بُشتِيرُ: موضع في بلاد جيلان؛ ينسب إليه الشيخ الزاهد الصالح عبد

---

(١) المصدر نفسه، ١/ ٣٢٤ .

(٢) الأنساب، ٣/ ٤٦٣ .

(٣) أنظر: حدود العالم من المشرق إلى المغرب: ومؤلِّفه مجهول (ت: بعد ٣٧٢هـ) تحقيق وترجمة عن الفارسية: السيد يوسف الهادي، ص ١٥٧ . والقاموس الإسلامي: أحمد عطية الله، ٢/ ٥٢٥ .

(٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد، ٤/ ٢٤٥، وأنظر: صبح الأعشى: القلقشندي، ٤/ ٣٨٠ .

القادر بن أبي صالح الحنبلي البشتيري))[١] .

كما نقل ابن الساعي في مخطوطة (الصوفية والزهاد) (ورقة ٨٢ ب) في موضع سمَّاه ياقوت الحموي (بُشْتِير) – بالضم والتاء المثناة المكسورة وياء ساكنة[٢] بوصفه موضعاً من بلاد جيلان؛ ينسب إليه الشيخ الزاهد الصالح عبد القادر بن أبي صالح الحنبلي البشتيري، وأشار ياقوت إلى أنّ جِيلان – بالكسر – اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان جنوبي بحر قزوين، أو بحر الخزر، ومن مراكزها الحالية مدينة (رشت) الإيرانية المشهورة بزراعة الأرز الفاخر .

إنّ هذا الاختلاف بين المؤرخين يبدو لي من خلاله أنّ الشيخ عبد القادر ولد في جيلان، وهي قرية من القرى المحسوبة على هذه المنطقة، وأنّ هناك مَنْ يسمّي هذه القرية؛ التي ولد فيها الشيخ (بُشْتِير) – كما أوضحنا آنفاً –، وبعضهم يسمِّيها (نيف).

إنّ السبب في هذا الاختلاف إنّما يرجع إلى كثرة القرى؛ التي في جيلان، وأنّ الاتفاق على أنّ هذه القرى الصغيرة هي جزء من جيلان، ولذلك فلا خلاف في أنّ ولادة الشيخ عبد القادر كانت في قصبة جيلان، ومن هنا جاءت نسبته بـ (الجيلي) أو (الجيلاني) .

إنّ منطقة جيلان منطقة جميلة؛ تسقط فيها الأمطار، وتكثر فيها الأشجار، كما أنّ الثلوج تسقط عليها؛ حتى إنّ الشيخ شمس الدين الدمشقي؛ قال عنها : ((والجيل موضعان: أحدهما: اسم لصعيد واسع مجاور لبلاد الديلم؛ مشتمل على بلاد كثيرة ليس فيها مدينة كبيرة، والآخر : بلدة الشيخ عبد القادر، وهي الجيل))[٣] .

ويلخِّص الدكتور كامل الشيبي طبيعة منطقة جيلان الجغرافية مِن حيث التضاريس والأمطار والوديان والجبال من مصادر متعدِّدة؛ فيقول : ((ولد الشيخ عبدالقادر في قصبة (نيف) من جيلان، وهو موضع لا يَرِدُ في البلدانيات، ولا المعاجم، وإنْ كان لا يخرج بنا عن

(١) معجم البلدان، ١/ ٤٢٦ .

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٤٢٦، وأنظر: تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ) ١٠/ ١٨٢، مادة (بشتير) .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٣٤ – ١٣٦ .

المنطقة المحيطة بالمروج الواقعة جنوب بحر قزوين ...، على أنّ هذه المنطقة تصلح أنْ تكون مفتاحاً لشخصية عبد القادر الجيلاني، ومنطلقاً لتفهُّم أخلاقه ومتابعة سيرته))[١] .

وهكذا ولد عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – في هذا الموقع الجغرافي القاسي الجميل في منطقة جيلان؛ التي حفلت بالرجال مِن المحدِّثين والمتكلمين والفقهاء[٢] .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية (مادة جيلان) ((إقليم فارسي؛ يقع في الجنوب الغربي لبحر الخزر – بحر قزوين –، وهو اسم مشتق من الجيّالي، بمعنى: الوحل؛ لكثرة المستنقعات التي تغمر أرضه))[٣] .

ويرى صاحب دائرة المعارف أنّ (جيلان) أو (كيلان) ويقال – أيضاً –: بلاد الديلم؛ ولاية من القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس؛ يحدُّها شمالاً ناحية (تاليس) الروسية، وجنوباً سلسلة جبال البرز؛ الفاصلة بينها وبين أذربيجان وعراق العجم، وجنوباً بشرق مازندران، وشمالاً بشرق بحر قزوين، وهي تُعَدُّ مِن أجمل بلاد فارس[٤] .

فأرض هذا الإقليم من الناحية الطبيعية دلتاوية التكوين؛ حيث تكوَّنت بمرور الزمن مِنْ ترسُّبات نهر (سفيدرود)[٥]، ولعل المقصود بهذا النهر ما ذكره المسعودي باسم (اسبيذروج) ويعني: النهر الأبيض[٦] .

لتفاصيل أوسع؛ أنظر كتاب جغرافية الباز الأشهب قراءة ثانية في سيرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني وتحقيق محل ولادته وفق منهج البحث العلمي)دراسة اكاديمية(للدكتور جمال الدين فالح الكيلاني مراجعة وتقديم الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني – إلمامات بشخصيته وفكره التربوي: كامل الشبيبي، مقالة في جريدة العراق، بتاريخ (٣٠/ ٩/ ١٩٨٧م) ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ٧/ ٢٢٢، مادة (جيلان) .

(٤) دائرة المعارف: البستاني .

(٥) بلدان الخلافة الشرقية : كي لسترينج، ص ٢٠٦ .

(٦) أنظر: مروج الذهب : المسعودي، تحقيق: يوسف أسعد واغر، بيروت، ١/ ٢٢٩ .

المبحث الأول

إسمه ونسبه وولادته

إسمه ونسبه :

هو السيد الشيخ أبو صالح[١]، محيي الدين، عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست[٢] بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الثاني بن عبد الله بن موسى الجون[٣]، بن عبد الله المحض[٤] بن الحسن المثنى[٥] بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب

---

(١) وقيل: أبو محمد . أنظر: المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (ت: ٧٣٢هـ) ٣/ ٤٣، وتذكرة الحفاظ : محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ٤/ ١٢٠ .

(٢) جنكي دوست: لفظ فارسي معناه : محب القتال، أو عظيم القدر. أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ٣ .

(٣) الجون: لفظ يطلق آدم اللون، وهو لقب لموسى بن عبد الله المحض، عن موسى أنَّه كان أسود اللون؛ فلقَّبته أُمُّه هند بلقب (الجون) فكانت ترقصه وهو طفل وتقول:

إنَّك إنْ تكن جوناً أنزعا ... أجدر أنْ تضرهم أو تنفعا

ينظر: تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٥٨ .

(٤) المحض: لقب لعبد الله، بمعنى: الخالص مِن كلِّ شين . أنظر: فتوح الغيب، ص ١٨٣، وبهجة الأسرار، ص ٨٩، وتاج العروس: مرتضى الزبيدي، ١٩/ ٤٣، مادة (محض)، والمحض؛ أي: الخالص؛ لأنَّ أباه الحسن بن الحسن بن علي، وأُمُّه فاطمة بنت الحسين بن علي، فنسبه مِن أبويه خالص؛ لسلامته مِن الموالي، وانتهاءه إلى علي، والمحض بضم الميم وفتح الحاء، وكان عبد الله المحض شيخ بني هاشم في زمانه، ولد عبد الله المحض بالمدينة ونشأ فيها، وبعد أنْ نبغ واشتهر التفَّ حوله عددٌ كبيرٌ مِن الناس؛ ينتهلون مِن علمه وفضله، فوشى به بعض أهل الفتنة؛ فاستقدم مع بعض أُسرته إلى بغداد سنة (١٤٤هـ) وحبس في سجن فيها، ومات في السجن، وقبره في ضاحية مِن ضواحي بغداد؛ يزار عند مسجد صغير، ويسمَّى مزاره بـ(مزار السيد عبد الله المحض) ويقع على الضفة الجنوبية مِن قناة اليوسفية، وعلى مسافة (٢٠كم) إلى الجنوب مِن جسر الخر ببغداد اليوم . أنظر: تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٦٨، وعمدة الطالب: ابن عنبة، ص ٨٧، وبهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٨٨ – ٨٩ .

(٥) المثنى: هو نعت للحسن بن الحسن السبط بن علي، وهو بضمِّ الميم وفتح النون: شريف علوي، والمثنى

رضي الله عنهما، والشيخ عبد القادر كان يعرف بسبط عبد الله الصومعي[١] .

اختلف المؤرِّخون والباحثون بنَسَب الشيخ عبد القادر، فمنهم مَنْ أكَّد نَسَبَه العلوي، وقدَّم أدلة وحججاً وبراهين على قوله، ورسم مشجِّرات لِنَسَبِه؛ تتَّصل بسيِّدنا الإمام الحسن السبط بن علي، وادّعى أنّه حسني الأب، حسيني الأُم .

ومنهم مَنْ نفى عنه ذلك النسب، وحجَّتهم في ذلك أنّ الشيخ عبد القادر - رحمه الله -؛ لم يكن يتعرَّض لذكر نسبه، فلازم الصمت هو وأولاده، فنقول : إنّ الشيخ عبد القادر عَلَمٌ من أعلام الله، ووليٌّ اتُّفِق على ولايته، وكانت حياته من أوّلها إلى آخرها جهاداً وصبراً ومصابرةً وفراقاً وألَمَاً وجوعاً وسهراً؛ ترك بلدَه وأهلَه وكلَّ ما فيها من غالٍ ونفيس، وجاء إلى بغداد من أجل هدف أسمى، وغاية أعلى، لقد كان همُّه منصرفاً إلى دعوة الناس إلى الله، ونشر العلم، وتربية السالكين؛ فلم يكن عنده وقتٌ للحديث عن نفسه، ولا عن أصله، بل كان يحثُّ تلاميذه ومريديه على عدم الاتِّكَال على النَّسَب، وإنّما يكون الوصول إلى الله عن طريق التقوى والعمل، شعاره في ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٢] .

وقد سار أولادُه على نفس نهج أبيهم، وهو أنّ شرف الانتساب إلى الإسلام أكبر من شرف النسب، حجَّتهم في ذلك قوله ﷺ : (...، ومَنْ أبطأ به عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ)[٣] .

لقب عُرف به؛ لأنَّه يحمل اسم أبيه، فبذلك تكرَّر لفظ الحسن مرتين في اسمه، فهو الحسن بن الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب، نشأ وعاش بالمدينة بعد وفاة أبيه، وكان مثله راغباً في تحاشي الفتنة، ومع ذلك فقد ارتاب فيه الوليد بن عبد الملك، واتَّهمه بمكاتبة أهل العراق للبيعة له، توفي بالمدينة عام (٩٠هـ). أنظر: الأعلام: الزركلي، ٢/ ١٨٧ .

(١) أنظر: تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٦٨، وشذرات الذهب: ابن العماد، ٤/ ١٩٨ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٠١ .

(٣) مِن حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، مسند المكثرين مِن الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ١٢/ ٣٩٣، برقم (٧٤٢٧)، والإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب العلم، حديث كعب بن مالك، ١/ ١٦٥، برقم

هذا وإنّ أول مَنْ ادّعى النسب العلوي للشيخ عبد القادر هو حفيده القاضي أبو صالح نصر بن الشيخ عبد الرزاق[١] .

ولقد أطال كثير من المؤرِّخين والنسَّابين في الحديث عن نسب الشيخ؛ فهم بين مُثبِت لنسبه العلوي، وبين نافٍ لتلك النسبة، ولكلٍّ من الاتِّجاهين دليله الذي يحتجُّ به، ويفنِّد رأي خصمه .

من هنا كان نسب الشيخ عبد القادر فيه أخذ وردّ، وقد انبرى كثير من المؤرِّخين والمنصفين مدافعين عن نسب الشيخ عبد القادر.

ومنهم على سبيل المثال: الشيخ محمد المكي بن عزوز التونسي (ت: ١٣٣٤هـ) في رسالته (السيف الرباني في عنق من اعترض على الغوث الجيلاني) وقد ذكر فيها اثنين وستِّين عالمِاً من المحقِّقين في علم النسب كلُّهم أثبتوا انتساب الشيخ عبد القادر إلى حضرة النبي ﷺ عن طريق الحسن بن علي رضي الله عنهما[٢] .

وقد نظم بعضهم نسب الشيخ عبد القادر شعراً؛ فقال مُبتدِءاً بوالده [٣]:

موسى بن عبد الله يحيى الزاهد ... محمد داود موسى الماجد

ثمَّت عبد الله موسى الجون ... ثمَّت عبد الله زال الغين

(٢٩٩) وقال عنه : ((تابعه أبو معاوية))، ووافقه الذهبي بقوله : ((على شرطهما)) .

(١) نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر، أبو صالح الجيلي الشافعي، ولد سنة (٥٦٤هـ) تفقه في صباه، ثم صحب محمد بن علي النوقاني الفقيه الشافعي، وقرأ عليه الخلاف والأصول وبرع في ذلك، وتولى التدريس في مدرسة جدِّه بباب الأزج وبالمدرسة الشاطئية عند باب المراتب، وبنيت له دار بجامع القصر للمناظرة، وعقد مجلس الوعظ في مدرسته، تقلد قضاء القضاة سنة (٦٢٢هـ)، (ت: ٦٣٣هـ) . أنظر: فوات الوفيات : محمد بن شاكر بن أحمد، الملقب بصلاح الدين (ت: ٧٦٤هـ) ٤/ ١٩٢ - ١٩٤، ومعجم المؤلفين: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت: ١٤٠٨هـ) ١٣/ ٩٠ .

(٢) لقد اعترض على نسب الشيخ عبد القادر النسَّابة ابن عنبة جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين (ت: ٨٢٨هـ) في كتابه (عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب) واعتبره شخصية فارسية؛ لأنَّه وجد في سلسلة نسبه كلمة (جنكي دوست)، وظنَّ أنَّه اسم فارسي لجد الشيخ، والصحيح أنَّه لقبٌ لُقِّبَ به موسى بن عبد الله بن يحيى والد الشيخ عبد القادر، ومعناه بالفارسية : المجاهد، أو محب القتال، وموسى : ولد في بلاد العجم .

(٣) بستان الأصاغر والأكابر: عبد الحي القادري، ص ١٠٩ .

والحَسَنان[١] ثمّ فاطمة البتول بجاههم نرجو المنى وكلَّ سول

* **نَسَبُ أُمِّه :**

أُمُّه فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد بن أبي جمال الدين محمد بن محمود بن أبي العطاء عبد الله بن كمال الدين عيسى بن أبي علاء الدين محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهما [٢] .

وأوصل بعضهم نسب الشيخ بأبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنّ جدَّة الشيخ لأبيه اسمها أُمُّ سلمة بنت الإمام محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه، أمّا اتِّصال نسب الشيخ بعثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فهو أنّ عبد الله المحض الجدُّ التاسع للشيخ عبد القادر أُمُّه بعد وفاة أبيه الحسن المثنى تزوَّجها السيد عبد الله بن المظفر بن عمر بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وللشيخ عبد القادر صلة أخرى بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه؛ وذلك أنّ والدة عبد الله بن المظفر هي حفصة بنت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [٣] .

* **ولادته :**

ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني في بيتٍ كريم اشتهر بالتقوى والورع، واتَّفقت معظم المصادر أنّه ولد في جيلان سنة (٤٧٠هـ) وفي هذا السياق يقول الواسطي: ((..، ولد سنة سبعين وأربعمائة بجيلان، وهي قرى متفرِّقة وراء طبرستان))[٤].

---

(١) الحسنان المراد بهما هنا : حسن المثنى، ووالده الحسن السبط .

(٢) أنظر: الجنى الداني: جعفر البرزنجي، ١٣١، واللباب في تهذيب الأنساب: ابن الأثير، ١/ ٣٢٣ .

(٣) أنظر: فتوح الغيب بهامش قلائد الجواهر، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

(٤) ترياق المحبين في طبقات خرقة المشايخ العارفين: الواسطي، ص ٤٨ .

ويرى بعضهم أنّه ولد سنة (٤٧١هـ)[١]؛ حيث ذكر الشطنوفي ((أنَّ مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بجيلان))[٢]، ويتحدَّث التادفي عن مكان ولادة الشيخ وشرف عائلته؛ فيقول: ((لمَّا وضعته أُمُّه رضي الله عنه...؛ تلقَّتهُ يدُ الكرامة .. بالعناية إلى أنْ قدِمَ بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وعمره ثمان عشرة سنة))[٣]، وهذا يؤكِّد على أنّ ولادته كانت سنة (٤٧٠هـ) .

ويقول ابن كثير عن سنة ولادته : ((الشيخ عبد القادر الجيلي ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي، ولد سنة سبعين وأربعمائة))[٤] .

ويرى ابن تغري بردي أنّ ((مولده بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة))[٥].

ويتَّفق ابن الأثير مع الذين يحدِّدون ولادته في عام (٤٧٠هـ)، فيقول : ((ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حالة كبيرة، وهو حنبلي المذهب، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد))[٦] .

ويرى ابن النجار أنّ ((مولده في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ..))[٧]، وابتعد الكتبي عمّا اتّفق عليه معظم مَنْ كتبَ عن الشيخ عبد القادر، وسنة ولادته؛ إذ يجعلها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة [٨]، ويبدو أنّ هذا وَهمٌ منه، أو خطأٌ في النَّسْخ؛ حيث جاءت كلمة تسعين بدل سبعين؛ لإجماع المصادر على أنّ ولادته كان سنة (٤٧٠هـ) أو (٤٧١هـ) .

---

(١) أنظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي، ٢٠/ ٤٣٩ .

(٢) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٨٨ .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٣ .

(٤) البداية والنهاية، ١٢/ ٣١٣ .

(٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : يوسف بن تغري بردي، ٥/ ٣٧١ .

(٦) الكامل في التاريخ : عز الدين ابن الأثير، ٩/ ٣٢٦ .

(٧) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : الحافظ ابن النجار البغدادي، انتقاء: الحافظ أبي الحسين أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي المعروف بابن الدمياطي (ت: ٧٤٩هـ) ١/ ١٢٨ .

(٨) فوات الوفيات : محمد بن شاكر، صلاح الدين، ٢/ ٣٧٣ .

وسئل الشيخ عبد القادر عن مولده؛ فقال : ((لا أعلمه حقيقةً، ولكنِّي قدِمتُ بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة))[1] .

❊ ❊ ❊

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: عبد الله بن أسعد بن علي، أبو محمد، عفيف الدين اليافعي (ت: ٧٦٨هـ) ٣/ ٢٦٥ .

المبحث الثاني

أُسرتُه

* **زواجه :**

لم يكن الشيخ عبد القادر الجيلاني متزوجاً قبل دخوله بغداد؛ إنّما تزوّج فيها بعد أنْ أمضى فيها سنين طويلة، وبعد أنْ بلغ الكتاب أجله على حدِّ قول الشيخ الجيلاني، فقد سُئل من بعض الصالحين : لِمَ تزوَّجْتَ ؟ فقال : ((ما تزوَّجتُ حتى قال رسول الله ﷺ : تَزَوَّجْ))، كما أنّه قال : ((كنتُ أريد الزوجة ولا أتجرَّأ على التزوُّج خوفاً مِن تكدير الوقت، فلمّا صبرتُ إلى أنْ بلغ الكتابُ أجله ساق الله لي أربع زوجات))[١]، ولقد رُزق منهنَّ بعدد من الأبناء، فقد ذكر التادفي عن ابن النجار في تاريخه أنّه سمع عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: ((وُلِدَ لوالدي تسع وأربعون ولداً : سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناثاً))[٢]، لقد تربّى أولاده تحفُّهم تربيته الإيمانية؛ فشبُّوا وهم يحملون مشاعل العلم، فقد كان جلَّةٌ منهم أئمة ومحدِّثين؛ سلكوا الطريق الذي سار فيه أبوهم، وقد ذكرهم وجمعهم الحوّات (ت: ١٢٣١هـ) في كتابه (السر الظاهر) في أبيات من الشعر على بحر الرجز[٣]:

أبناء محي الدين عبد القادر ... مَنْ أخذوا عنه علومَ الظاهر
عيسى وعبد الله إبراهيم ... قلبي غدا بحبِّهم يهيمُ
وعابدُ الوهاب نال فضلاً ... حيثُ على أبيه كان صلّى

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٤١ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٤١ . وأنظر: المستفاد مِن ذيل تاريخ بغداد، ١/ ١٢٨ .
(٣) السر الظاهر في أعقاب الشيخ عبد القادر : الحوات (ت: ١٢٣١هـ) ص ٦٩ .

يحيى محمد وعبد الرزاق نور علومِهِم سرى في الآفاق
عبد العزيز ثم عبد الجبار موسى وكلُّهم كرامٌ أبرار
فهؤلاء العلماءُ العشرة وغيرهم عدَّتهُ منتشرة

وذكر صاحب كتاب (بستان الأصاغر والأكابر) عدداً آخر من أولاد الشيخ، وهم الذي توفُّوا قيد حياة الشيخ عبد القادر، ومنهم : الشيخ حبيب الله، والشيخ الزاهد، والشيخ المنصور، والشيخ عبد الغني، والشيخ عبد الخالق، والشيخ عبد الرؤوف، والشيخ صالح، والشيخ عبد الغفور[1] .

* أولاده :

١. الشيخ عبد الله الجيلي :

وهو أكبر أولاد الشيخ عبد القادر، ولد في بغداد سنة (٥٠٨هـ)[2]، وسَمِع : هبة الله بن الحُصَيْن، وأبا غالب بن البنّاء، ويقال: إنَّه حدَّث، ولم يكن مشتغلاً بالعلم . توفي في (٢٧) صفر سنة (٥٨٧هـ) ودفن جوار قبر أبيه[3] .

٢. الشيخ عبد الرزاق الجيلي:

ولد ببغداد، تفقّه على يد والده، وسمع : منه، ومن أبي الحسن بن صرما، والقاضي أبي الفضل محمد الأرموني، وسعيد بن البناء، ومحمد بن ناصر الحافظ، ومحمد بن الزاغوني ومحمد الهاشمي، وأحمد بن علي بن السمين، ومحمد بن البطر، فدرَّس وأفتى وتخرَّج على يده عدد من العلماء؛ منهم : إسحاق بن أحمد بن غانم، وعلي بن خطيب زوبا، وكان حافظاً، متقناً، ثقةً، صدوقاً، فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل[4] .

(١) أنظر: بستان الأصاغر والأكابر: الشيخ عبد الحي القادري، ص ٩٩، وفتوح الغيب بهامش بهجة الأسرار، ص ١٧٦، والمختصر في تاريخ شيخ الإسلام عبد القادر وأولاده، ص ٥٦ .
(٢) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٣/ ٤٦٨ .
(٣) أنظر: تاريخ الإسلام: الذهبي، ٤١/ ٢٦٧ .
(٤) أنظر: التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد : محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين

كان ورعاً كثير العبادة، منقطعاً في منزله عن الناس لا يخرج إلاّ في الجمع؛ يكرم طلبة العلم، كان سخياً، جواداً، عزيز النفس؛ رغم فقره وفاقته، ومتواضعاً، سار على خطى والده، وقد ذكره الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ)؛ فقال : ((أبو بكر عبد الرزاق الجيلي الحنبلي، المحدِّث الحافظ، محدِّثُ بغداد ..، وسمع الكثير بإفادة أبيه ...، يقال له : الحلبي، نسبةً إلى الحلبة، وهي محلة شرقي بغداد))[1] .

ولد - رحمه الله - عشية الاثنين الثامن عشر من ذي القعدة سنة (٥٢٨هـ) وتوفي ليلة السبت سادس شوال سنة (٦٠٣هـ) وصلي عليه بالمصلى، ثمّ بجامع الرصافة، وبمواضع متعدِّدة، وشيَّعه خلقٌ كثير، ودفن بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل[2] .

كما أنّه صنَّف عدداً من الكتب؛ منها كتاب (جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر) وكتاب (الأربعون) عن أربعين شيخاً في الحديث .

٣. الشيخ عبد الوهاب:

ولد عام (٥٢٢هـ) وتفقَّه على والده، وسمع : منه، ومن ابن الحصين، وابن السمرقندي، ومن ابن غالب بن البناء، وابن الزاغوني، ثمّ رحل إلى بلاد العجم لطلب العلم؛ فأصبح عالماً واعظاً مرشداً، وفي سنة (٥٤٣هـ) درس بمدرسة والده في حياته، وكان عمره عشرين سنة، وبعد وفاة والده درَّس وحدَّث وصنَّف المصنَّفات، تخرَّج على يديه نخبة من العلماء والفقهاء؛ منهم : الشريف الحسيني البغدادي، وأحمد عبد الواسع، ومحمد بن يعقوب بن أبي الدنيا، ولم يكن من إخوانه أميَزَ منه، وكان فقيهاً فاضلاً حسِنَ الكلام في مسائل الخلاف، له لسان فصيح في الوعظ، وإيراد مليح مع عذوبة في الألفاظ، وحِدَّة خاطر، وكان ظريفاً لطيفاً ذا مزاح ودعابة وكياسة، وكانت له مروءة وسخاوة، روى عنه : ابن الدبيثي، وابن الغزال الواعظ، وابن خليل،

الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (ت: ٦٢٩هـ) ص ٣٥١، وذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٤/ ١٨٤ .

(١) تذكرة الحفاظ : الذهبي، ٤/ ١٢٠ .

(٢) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٤٣ .

وجعله الخليفة العباسي الناصر لدين الله على المظالم؛ فكان يوصل إليه حوائج الناس، صلَّى على والده الشيخ عبد القادر الجيلاني[١] .

توفي ليلة السبت (٢٥) شوال سنة (٥٩٢هـ) ودفن في مقبرة الحلبة، أهمّ مؤلَّفاته: (جواهر الأسرار ولطائف الأنوار) في علم الصوفية، وله مخطوط كتبه بخطه (القول الحقيق في سلوك الطريق) وهذه المخطوطة محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق؛ تحت رقم (٦٠) كما ألّف كتاب (الفتوَّة في التصوف) .

٤. الشيخ عبد العزيز:

ولد لثلاث بقين من شوال سنة (٥٣٢هـ) وكان عالماً بهيّاً متواضعاً، درس على يد والده، وسمع : منه، ومن ابن منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز، حدَّث ووعظ، تخرّج على يده جلَّة من العلماء، سكن المنطقة الشمالية في حيال في حدود سنة (٥٨٠هـ) بعد أنْ غزا عسقلان، كما أنّه زار القدس الشريف، توفي يوم الأربعاء (١٨) ربيع الأول سنة (٦٠٢هـ) ودفن في قرية الحيال (عقرة) التابعة لمحافظة نينوى[٢] .

٥. الشيخ موسى:

ولد الشيخ موسى في سلخ سنة (٥٣٩هـ) تفقّه على يد والده، وسمع : منه، وسمع من ابن البنّاء، وغيره من العلماء، استوطن دمشق، وانتفع به جُلَّةٌ من الناس، رحل إلى مصر، ثمّ رجع إلى دمشق، وكان رجلاً صالحاً، فقيهاً، محدِّثاً، أميناً، يحبُّ الفقراء، ويواسيهم، وينفق عليهم، ومن أشهر تلاميذه : إسحاق بن إبراهيم (ت: ٦٧٨هـ) وأحمد بن عبد الحميد المقدسي (ت: ٧٠٠هـ) وخليل بن أبي بكر المراغي (ت: ٦٨٥هـ)، توفي بدمشق عام (٦١٨هـ) عن ثمانين

(١) أنظر: ذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ٢/ ٤٢٧، وذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٤/ ١٦٩، والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد : إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (ت: ٨٨٤هـ) ٢/ ١٥٢.

(٢) أنظر: تاريخ إربل: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإِربلي، المعروف بابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) ١/ ٩٥، وذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٤/ ١٣٥ .

سنة، ودفن بسفح قاسيون فوق زاوية الشيخ الأرموي، وهو آخِر مَنْ توفِّيَ مِنْ أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله –[١] .

٦. الشيخ عيسى :

ولد في بغداد، وتفقّه على يد : والده، وسمع عن : أبي الحسن بن صرما، وسمع بدمشق من : علي بن مهدي بن المفرج الهلالي عام (٥٦٢هـ) صنَّف كثيراً من الكتب؛ منها : كتاب (جواهر الأسرار ولطائف الأنوار) في علم التصوف؛ شرحَ فيه سبعة وثلاثين مسألة في الأحوال والمقامات؛ التي يحتاجها السالكون لطريق الله، وبعد وفاة والده سافر إلى دمشق عام (٥٦٢هـ) ثمّ رحل إلى مصر واستوطنها إلى وفاته عام (٥٧٣هـ) ودفن بالقاهرة، درَسَ على يده جُلَّةٌ من العلماء في مصر؛ منهم: أبو تراب ربيعة بن الحسن الحضرمي الصنعاني، ومسافر بن يعمر المصري، وحامد بن أحمد الأرتاجي، ومحمد بن محمد الفقيه المحدِّث، وعبد الخالق بن صالح القرشي الأموي[٢] .

وروى عنه : أحمد بن ميسرة بن أحمد الحلال الحنبلي، وذكره ابن النجار بقوله : "قرأتُ على بلاط قبر عيسى بن الشيخ عبد القادر الجيلي بقرافة مصر أنّه توفي في الثامن عشر من شهر رمضان سنة (٥٧٣هـ) وقبره داخل حوش يعرف بـ (حوش سيدي عبد الله أبو رمانة) وكان هذا المدفن في الأصل مسجداً، وقد جدَّدته أخيراً السيدة زينب بنت الخديوي إسماعيل باشا، وكان بمسجد الحواش" .

وله شعر؛ منه قوله في البُعد والشوق والفراق والغربة:

تحمَّل سلامي نحو أرضِ أحبَّتي وقل لهم : إنّ الغريب مَشُوقُ

(١) أنظر: سير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢٢/ ١٥٠، وتاريخ الإسلام : الذهبي، ٤٤/ ٤٣١ .

(٢) أنظر: تاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٢/ ١٤١، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (ت: ١٠٦٧هـ) ١/ ٦١٢، وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت: ١٣٩٩هـ) ١/ ٨٠٧ .

فـإنْ سألوكم كيف حالي بعدهـــم فقولوا: بنيران الـفـراق حريـــقُ
فـلـيـس لــه إلـــفٌ يُــسَرُّ بقربهـم وليس له نحو الـرجـوع طريـــقُ
غـريـبٌ يـقـاسي الهــمَّ في كــلِّ بلــدةٍ ومَـــنْ لِـغَـريـبٍ في الـبـلادِ صـديـقُ

ومِن شعره – أيضاً – قوله [١]:

وإنِّي أصـــومُ الـدهـرَ إنْ لم أراكُــمُ ويــومَ أراكــم لا يَحِـلُّ صيامـــي
ألا إنَّ قلبي قــد تـــذَمَّــمَ في الهــوى إلـيـكـم فَـجُـد لي مُـنْـعِـمَاً بذمامي

٧. الشيخ عبد الجبار:

ولد في بغداد في التاسع عشر من رمضان سنة (٥٢٢هـ) وتفقَّه على يد : والده الشيخ عبد القادر الكيلاني، كما أنّه درس على يد : القزاز، سلك طريق التصوف، وكان صاحب خطٍ عجيب، صاحَبَ الفقراء، وتتلمذ على يديه عددٌ من المتصوفة؛ ومنهم : أخوه عبد الرزاق، توفي سنة (٥٧٥هـ) ودفن في الحضرة القادرية، وأُنشِأَتْ على قبره قبّة بنيتْ سنة (٩٠٤هـ)[٢] .

٨. الشيخ عبد الله :

ولد سنة (٥٠٨هـ) وسمع من : أبيه، ومن أبي غالب ابن البنّاء، وغيره من العلماء، وكان فقيهاً محدِّثاً، تخرّج عليه خلقٌ كثير، أفتى ودرَّس، وكان ورعاً صدوقاً، توفي سنة (٥٨٧هـ) ودفن بجوار أبيه، ولم يذكره التادفي في (قلائد الجواهر)[٣] .

---

(١) أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ٤٢، وتحفة الأحباب : السخاوي، ص ٣١٠، وهدية العارفين: إسماعيل البابانی، ١/ ٨٠٧، والأعلام : الزركلي، ٥/ ١٠٥، ومعجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٨/ ٢٨، والمختصر في تاريخ شيخ الإسلام: الدروبي، ص ١١١، والباز الأشهب في حياة السيد الشيخ عبد القادر: إبراهيم الدروبي، ص ١٩، والفتح المبين: ظهير الدين القادري، ص ٩٢ – ٩٣ .

(٢) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٤/ ١٥٠، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ١٤٣، ومختصر تاريخ شيخ الإسلام عبد القادر: الدروبي، ص ١٩ .

(٣) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٣/ ٤٦٨، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٤١/ ٢٦٧ .

٨. الشيخ إبراهيم:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ عبد القادر الجيلاني، ولد بواسط، ودُفِنَ فيها، تفقّه على يد: والده، وسمع : منه، ومن سعيد بن البناء، ومن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى، ولم يعقِّب أحداً، توفي سنة (٥٩٢هـ) ودرس قبره، ولم يُعْلَم[١] .

٩. الشيخ يحيى:

ولد أبو زكريا يحيى ببغداد عام (٥٥٠هـ) وتفقّه على يد والده، وسمع : منه، ومن الشيخ محمد بن عبد الباقي، حدَّث ودرس في بغداد، وانتقل إلى مصر، وتزوّج وأنجب عدَّة أبناء؛ أكبرهم عبد القادر، ثمّ عاد إلى بغداد، وهو أصغر أولاد الشيخ، توفي ليلة النصف من شعبان سنة (٦٠٠هـ) ونودي بالصلاة عليه بمدرسة والده، ودفن عند أخيه الشيخ عبد الوهاب برباط والده بالحلبة، وكانت أمُّه حبشية[٢] .

١٠. الشيخ محمد :

وهو أبو الفضل، عُرف بصلاحه وتقواه، تفقّه على يد : والده، وسمع منه، وسمع من ابن البنّاء، وأبي الوقت عبد الأول بن عيسى، وغيرهم، وكان عفيفاً، حدّث في بغداد، سمع منه أُناسٌ، وله مؤلَّفٌ في التصوف، وآخر في الحديث، وقد كتب بخطِّه الكثير، وتوفي في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة (٦٠٠هـ) ودفن بمقبرة الحلبة [٣] .

---

(١) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٢/ ٤٦٣، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٢/ ٨٦ .

(٢) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ٥/ ١٢٠، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٢/ ٤٨٦ .

(٣) أنظر: ذيل تاريخ بغداد : ابن الدبيثي، ١/ ٤٣٥، وتاريخ الإسلام: الذهبي، ٤٢/ ٤٧٦، ولسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ٥/ ٢٦٣.

ولا يفوتني أنْ أذكر بعضاً مِن ذرِّيَّته على سبيل المثال لا الحصر، وذلك إتماماً للفائدة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

حمداً لمن نوع الإنسان أشرف المخلوقات واختار منهم من اختار وعلى سالف الأزمان والأوقات وشرَّف عليهم سيد الكونين وحياة الدارين أبا القاسم محمد المحمود صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه نجوم السعود. وبعد؛

فيقول الفقيرإليه عز شأنه السيد طارق بن السيد عبد بن السيد علي بن السيد الشيخ حسين الكيلاني الآلوسي ان نسب آل الكيلاني في العراق المكتوب في سنة ٨٥٠ هـجرية الذي أشاره عليه ابراهيم الدروبي في كتابه الباز الأشهب الراجع إلى ذراري آل الكيلاني في العراق ونقباء أشراف بغداد ومتولين الحضرة القادرية في بغداد المحمية المتمثلة بأحفاد السيد الشيخ عبد العزيز القادري الكيلاني وأعني به السيد الشيخ زين الدين القادري أول نقيب أشراف في زمن السلطان سليمان القانوني إلى أن انتقلت إلى أحفاد السيد الشيخ حسام الدين القادري الجد الجامع لهذه الذرية الذي أعقب رجال أعلام وهما:

١ – أ – السيد الشيخ محمد درويش.

٢ – ب – والسيد الشيخ يحيى.

ثم السيد محمد درويش أعقب السيد زين الدين الصغير والسيد احمد وأما السيد زين الدين أعقب السيد مصطفى والسيد مصطفى أعقب السيد سلمان والسيد سلمان وأما السيد سلمان أعقب السيد علي القادري نقيب أشراف بغداد ثم أعقب السيد علي القادري أعقب السيد سلمان القادري نقيب أشراف بغداد والسيد عبد الرحمن القادري نقيب أشراف بغداد

بعده وهؤلاء هم متولي الحضرة القادرية الشريفة ونقباء أشراف بغداد إلى يومنا هذا وآخرهم هو المتولي حالياً هو السيد خالد بن السيد عبد القادري بن السيد منصور حفيد السيد عبد الرحمن القادري نقيب أشراف بغداد.

وأما السيد احمد بن السيد محمد درويش أعقب السيد الشيخ عبد الله والسيد عبد الله اعقب وزير الباز وفزع المحتاج حضرة الولي العارف بالله السيد الحاج مصطفى الكيلاني المشهور بالآلوسي ودفينها ١١٧٧هـ وهو شيخ السجادة القادرية في زمانيه له كرامات وله علم الظاهر والباطن وأشهر خلفائه الشيخ بكر الموصلي الآلوسي والسيد الشيخ محمد والسيد الشيخ علي اغا والسيد الشيخ احمد وسكناهم حديثة وبغداد وتكريت ولهم عقب صالح واعلام ومشايخ كرام إلى يومنا هذا.

٢ – ب – وأما ذرية السيد الشيخ يحيى وهما:

أ- السيد الشيخ عثمان.

ب- السيد الشيخ ابو بكر.

❋ وأما ذرية السيد الشيخ ابو بكر:

فقد اعقب السيد عبد الرحيم والسيد عبد الرحيم اعقب السيد احمد وأحفاده اليوم آل عبد الجليل والمطلك وهم سكناهم في محافظة ديالى ولهم أخيار إلى يومنا هذا.

واشير إلى ذلك العوائل التي ذكرتها آنفاً أن نسب آل النسب الجامع لهذه الذرية مكتوب سنة ٨٥٠ هـ ولهم مشجر اسمه بحر الأنساب بخط السيد علي النقيب وابنه السيد سلمان النقيب وفيه كل أنساب الحسنية والحسينية المتصلة والمنقطعة وفيه شيوخ الطريقة القادرية وقد أمضاه سلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني رحمه الله وهو يبلغ ٤٠٠ صفحة لم يطلع عليه أحد سوى المتولين على الحضرة القادرية وكان آخر واحد تحت تصرفه وهو السيد احمد ظهير الدين القادري البغدادي رحمه الله متولي الحضرة القادرية سابقاً.

أما ذرية السيد الشيخ عثمان بن يحيى ؛ فله ولد واحد هو الإمام ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين القادري شيخ الطريقة القادرية والرحالة والعالم المعروف المتوفى سنة ١٧٤١ في محافظة ديالى / بلدروز ومازالت ذريته هناك ويعرفون بآل الحجية الكيلاني وعميدهم الأستاذ فالح الحجية الكيلاني .

وأما نسب آل السيد الشيخ الحاج مصطفى الكيلاني المشهور بالآلوسي كتب سنة١١٥٠هـجرية ثم جُددَ سنة ١٣١٠ هجري وهو في حوز السيد طارق القادري الآلوسي خادم السجادة القادرية في تكريت ونقيب أشراف.

وأما نسب آل السيد الشيخ عبد الجليل المطلك وآل السيد عمر وآل الحجية في ديالى وبلدروز فقد نسب سنة ١١٣٧ هجرية وهو محفوظ عند السيد وليد الكيلاني في ديالى.

وأما السادة الحياليون وهم عشيرة عراقية أصيلة تنسب إلى السيد عبد العزيز الكيلاني وسكناهمالقرى والأرياف والمدن من الموصل إلى جنوب بغداد وفي كل مدينة لهم شيخ خاص بهم ومشايخهم في الموصل والطارمية ونسبهم محفوظ عند السيد قاسم بن حميد الشميط الحيالي في بغداد. وأما حملة العقب الكيلاني فهم كلهم من الشاميين النازحين إلى العراق أغلبهم في بغداد وبعض المدن العراقية وللذرية القادرية وجود كثيف في بلاد الشام والمغرب والأردن وغيرهم من البلدان وهي أكبر اسرة اسلامية في العالم إلى يومنا هذا ولله الحمد.

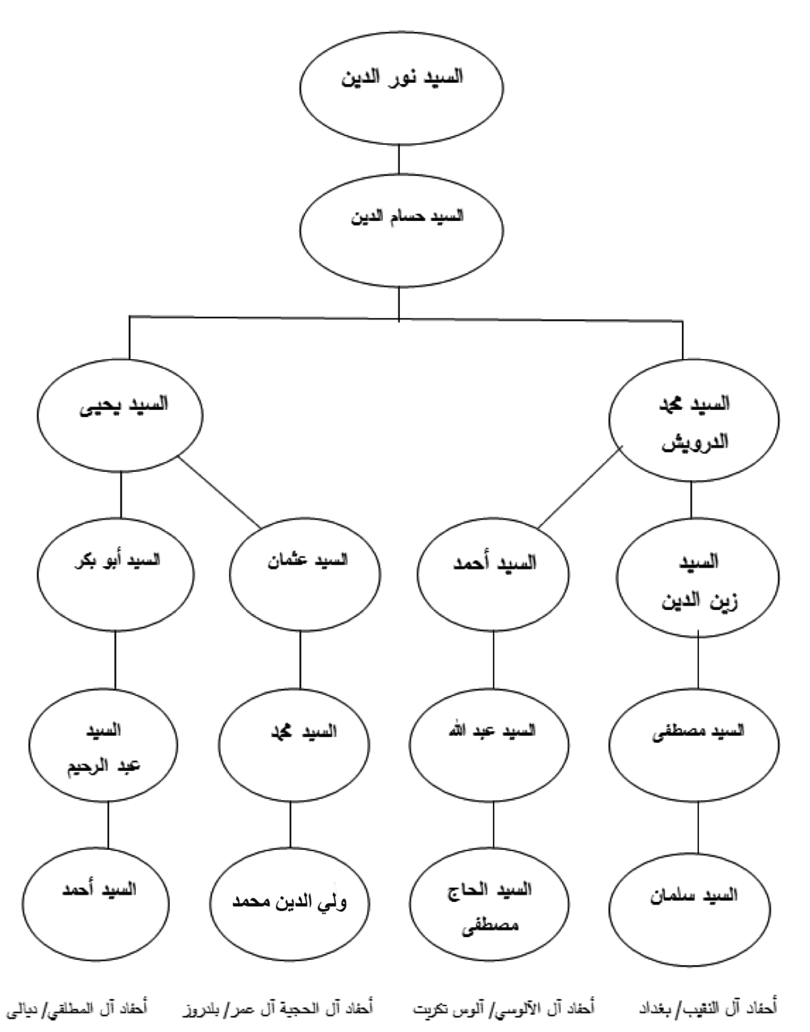
كتبه الفقير إليه

السيد طارق القادري الآلوسي

خادم السجّادة القادرية في تكريت ونقيبها

٢٨ ربيع الأول ١٤٤٠ هجرية

٧/ ١٢/ ٢٠١٨



وأمَّا الكيلانيون في الشام والأردن وفلسطين والعراق ومصر؛ فهم كالآتي:

١. آل شرف الدين الكيلاني في سوريا .

٢. آل القصير الكيلاني في سوريا .

٣. آل زيد الكيلاني في فلسطين والأردن .

٤. آل سلطان الكيلاني في العراق .

٥. آل عدوي في قرية زكريا مِن أعمال الخليل بفلسطين .

٦. آل النوباني في فلسطين والأردن .

٧. آل التنبكجي في سوريا .

٨. آل الطيار الآلوسي في العراق .

٩. آل البعاج الكيلاني في العراق .

١٠. آل الحمادي في العراق وسوريا والأردن وفلسطين .

١١. آل عشيرة البو جمعة في العراق .

١٢. آل الهنيدي في الله بفلسطين والأردن والكويت .

وهؤلاء كلُّهم ذرية أبو صاح تاج الدين نصر بن السيد عبد الرزاق بن السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني .

١٣. آل عمر الكيلاني في سوريا .

١٤. آل سلام في سوريا .

١٥. آل عقيل في سوريا .

١٦. آل لحلح في سوريا .

١٧. آل بجبح في سوريا .

١٨. آل ظبيان في سوريا .

١٩. آل كتاني في فلسطين .

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث

صفته وشمائله

تربّى الشيخ عبد القادر الجيلاني في أحضان عائلة أساسها الصلاح والتقوى؛ فابتعد عن حياة اللهو، ونشأ نشأةً إيمانيةً قائمة على مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، فكان يُضرب به المثل في عصره خُلُقاً وتقوى وعلماً .

وقد وصفه تلميذه موفق الدين ابن قدامة بقوله : ((ولا رأيت أحداً يعظم من أجل الدين أكثر منه))[1]، كما وصفه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الأشبيلي بقوله : ((كان مُجابَ الدعوة، سريعَ الدمعة، دائمَ الذكر، كثيرَ الفكر، رقيقَ القلب، دائمَ البِشْر، كريمَ النفس، سخيَّ اليد، غزيرَ العلم، شريفَ الأخلاق، طيِّب الأعراق، مع قَدَمٍ راسخٍ في العبادة والاجتهاد))[2]، ومع جلالة قدْرِه كان يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ويفلي ثيابهم، ولا يقوم لأحدٍ من العظماء وأعيان الدولة، ولا يلم بباب وزير ولا سلطان[3] .

وقال عنه الشيخ منصور بن المبارك الواسطي : ((ما رأت عيناي أحسنَ خُلُقاً ولا أوسعَ صدراً، ولا أكرم نفساً، ولا أعطف قلباً، ولا أحفظ عهداً وودّاً من الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قدره، وعلوّ منزلته وسِعَة علمه يقف مع الصغير، ويوقِّر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء))[4] .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٢ .

(٢) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٩ .

(٣) أنظر: الطبقات الكبرى: الشعراني، ١/ ١٠٩ .

(٤) بهجة الأسرار، ص ١٠٣ .

وقال عنه مفتي العراق أبو عبد الله محمد بن علي بن حامد البغدادي : ((كان أبعدَ الناس عن الفُحش أقرب الناس إلى الحق، شديد البأس إذا انْتُهِكَت محارم الله عزوجل، لا يغضبُ لنفسه، ولا ينتصر لغير ربِّه))[١] .

أمّا عن صفات الشيخ الخُلُقية؛ فقد وصفه ابن قدامة المقدسي بقوله : ((وأمّا صفة الشيخ رضي الله عنه فروي أنّه كان نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين، أدعج العينين، ذا صوت جهوري، وسمت بهي، وقدر عليٍّ، وعلم وفي))[٢].

وكان قويَّ البنية، متينَ الصحّة كما وصفه محمد الهيتي بقوله : ((إنّه يميل إلى الطول، تبدو عليه أمارات النُّبل والاستقامة، وعريض الجبهة، يميل لونه إلى السُّمرة، يصل شعره إلى كتفيه، عريض المنكبين، متناسق الأعضاء، عذب الصوت جهوريّه، ذو نُطقٍ متميِّز، نظراته حادّة ثاقبة؛ تجعل من الصعب على جليسه أنْ يديم النظر إليه، لحيته متوسطة الكثافة، ولكنّها طويلة، رمادية اللون – بعد ما تقدّمتْ به السن –، دقيقة النهاية، هيئته العامة توحي بالبساطة المحببة كما توحي بالطيبة والنُّبل والجمال – أيضاً –))[٣] .

((كان يتكلم على الخواطر، وظهر له صيت عظيم وقبول تام، وما كان يخرج من مدرسته إلاّ يوم الجمعة أو إلى الرباط، وتاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم خَلْقٌ، وكان يَصْدَعُ بالحق على المنبر، وكان له كرامات ظاهرة))[٤]، كما وصفه الإمام النووي بأنّه ((جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البِشْر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظِّماً لأهل العلم، مكرماً لأرباب السُنَّة، مُبغِضاً لأهل البدعة والأهواء، محبّاً لمريدي الحق مع دوام المجاهدة، ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عالٍ في

(١) الفتح المبين: ظهير الدين القادري، ص ٢٢ .
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: اليافعي، ٣/ ٢٦٥ – ٢٦٦.
(٣) الفتح المبين: ظهير الدين القادري، ص ١٢٩ .
(٤) سير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢٠/ ٤٤٩ .

علوم المعارف، سخيُّ الكفِّ، كريمُ النفس على أجمل طريقة))[١] .

وقال عنه ابن تغري بردي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) : ((كان شيخ العراق صاحب حال ومقال، عالماً عاملاً، قطب الوجود، إمام أهل الطريقة، قدوة المشايخ في زمانه بلا مدافعة ...، كان ممّن جمع بين العلم والعمل))[٢] .

ولو تحرَّينا الأخلاق التي فُطِر عليها الشيخ عبد القادر - رحمه الله - والشمائل التي رافقته من جيلان إلى بغداد لوجدنا أبرزها : الصدق، والكرم، والتواضع، والصبر، إضافةً إلى التقوى والورع، وسوف نلقي نظرةً سريعة على الأخلاق التي نشأ عليها الشيخ - رحمه الله - :

*** أولاً : الصدق :**

تربّى الشيخ عبد القادر الكيلاني على الصدق، وكرم الأخلاق، والتقوى؛ فنشأ صادقاً لا يكذب أبداً؛ لأنّ أهله أرضعوه لبان الصدق وحسن الخلق، وغذّوه مخافة الله عزوجل في السر والعلن .

والصدق عنده له معنىً عميق، فقد سئل عن الصدق ؟ فقال : ((الصدق في الأقوال موافقة الضمير القول في وقته، والصدق في الأعمال إقامتها على رؤية الخواطر للحقِّ؛ فلا يكدِّرها مطالعة رقيب، ولا منازعة فقيه))[٣] .

وقال - أيضاً -: مَنْ عامَلَ مولاه بالصدق والنصاح استوحش ممّن سواه في المساء والصباح، وهو يأتي بعد درجة النبوّة تحقيقاً لقول الله عزوجل : ﴿ ...، فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾[٤] .

وقد كان الشيخ صادقاً مخلصاً في أحواله وأقواله طوال حياته، وهكذا ربّاه والداه على هذه الخصلة الكريمة ...، ونشأ عليها ويُذْكَر له في باب الصدق هذه القصة التي رواها

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٣٨ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : يوسف بن تغري بردي، ٥/ ٣٧١ .

(٣) الفتح المبين: ظهير الدين القادري، ص ٢٨، وأنظر: فتوح الغيب، ص ٩٢ .

(٤) سورة النساء، من الآية ٦٩ .

التادفي وغيره، قال : قال الشيخ : جئتُ إلى أُمِّي، وقلتُ لها : هبيني لله عزوجل، وأْذَنِي لي في المسير إلى بغداد أشتَغِلُ بالعلم، وأزور الصالحين؛ فسألتني عن سبب ذلك؛ فأخبرتها خبري؛ فبكت وقامت إلى (ثمانين) ديناراً أورثها أبي، فتركت لأخي أربعين ديناراً، وخاطت في دلقي (أربعين) ديناراً، وأذِنَتْ لي في المسير، وعاهدتني على الصدق في كلِّ أحوالي، وخرجتْ مودِّعةً لي، وقالت : يا ولدي؛ إذهب فقد خرجتُ عنك لله عزوجل، فهذا وجهٌ لا أراه إلى يوم القيامة، فسرتُ مع قافلة صغيرة بطلب بغداد، فلمّا تجاوزنا همذان ..؛ خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرّض لي أحد فاجتاز بي أحدهم وقال : يا فقير ما معك ؟ فقلت : أربعون ديناراً، فقال: وأين هي ؟ فقلت : مخاطة في دلقي تحت إبطي، فظن أنّي أستهزئ به فتركني وانصرف، ومرَّ بي آخر؛ فقال مثل ما قال الأول؛ وأجبته كجواب الأول؛ فتركني، وتوافيا عند مُقَدَّمِهم وأخبراه بما سمعاه منِّي؛ فقال : عليَّ به، فأُتِيَ بي إليه ، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة، فقال : ما معك ؟ قلت : أربعون ديناراً، قال : وأين هي ؟ قلت : مخاطة في دلقي تحت إبطي: فأمر بدلقي فَفُتِقَ فوجد فيه أربعين ديناراً؛ فقال : ما حملك على هذا الاعتراف ؟ قلت: إنَّ أمِّي عاهدتني على الصدق، وأنا لا أخون عهدها؛ فبكى؛ وقال : أنت لم تَخُنْ عهد أُمِّك، وأنِّي إلى اليوم - كذا وكذا سنة - أخون عهد ربِّي، وقال : فتاب على يديَّ، وقال له أصحابه : أنت أنت مُقَدَّمُناً في قطع الطريق، وأنت الآن مقدَّمُنا في التوبة؛ فتابوا كلُّهم على يديَّ، وردُّوا على القافلة ما أخذوه منهم[1] .

وهكذا كان صِدق الشيخ وهو في أول نشأته سبباً في توبة هؤلاء العيَّارين - قطَّاع الطريق -، وإقلاعهم عن ترويع الناس، وسَلب أموالهم، وسفك دمائهم .

*** ثانياً : كرمه وسخاؤه :**

اتّصف الشيخ عبد القادر بالكرم والإيثار، فقد كان يجود بما معه ولو كان به خصاصة، ويحبُّ إطعام الطعام، وبعد أنْ أقبلتْ عليه الدنيا كان يأمر كلَّ ليلة بمدِّ السماط، ويأكل مع

---

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٩ .

الأضياف، ويجالس الضعفاء، ويصبر على طلبة العلم، ويُصَدِّقُ مَنْ يحلف له [١] .

وقد قال : ((فتشت الأعمال كلَّها، فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أودُّ لو أنَّ الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم أُبَيِّتْها))[٢] .

ولقد كان الشيخ مجبولاً على حُبِّ الإيثار والجود؛ حيث دعا الناس إلى الكرم والإيثار؛ وقال: ((يا قوم عليكم بالكرم والإيثار في طاعة الحق عزوجل لا في معصيته، كلُّ نعمةٍ تُصرَفُ في المعصية هي معرَّضةٌ للزوال))[٣] .

ومن كرمه قال الشيخ : ((أقمتُ ببغداد عشرين يوماً ما أجد ما أقتاتُ به، ولا أجدُ مباحاً، فخرجتُ إلى إيوان كسرى أطلبُ مباحاً، فوجدتُ سبعين رجلاً من الفقراء كلُّهم يطلبون، فقلتُ : ليس من المروءة أنْ أزاحمهم، فرجعتُ إلى بغداد، فلقيني رجلٌ لا أعرفه؛ مِنْ أهل بلدي، فأعطاني قراضة [٤]، وقال : هذه بعثَتْ بها أُمُّك إليك معي، فأخذتُ منها قطعة واحدة تركتُها لنفسي، وأسرعتُ بالباقي إلى خراب الإيوان، وفرَّقتُ القراضة على أولئك السبعين؛ فقالوا : ما هذا ؟ قلتُ : إنّه قد جاءني هذا من عند أُمّي، وما رأيتُ أنْ أختصّ به دونكم، ثمّ رجعتُ إلى بغداد واشتريت بالقطعة التي معي طعاماً، وناديتُ الفقراء؛ فأكلنا جميعاً))[٥] .

وكان يقول : ((ويحك ما تستحي منه عزوجل وقد جعلتَ دينارك ربّك، ودرهمك همّك، ونسيته بالكلية ؟ عن قريب ترى خبرك))[٦]، ويقول : ((ياقوم أنتم عن قريب موتى؛ انتبهوا وابكوا على أنفسكم قبل أنْ يُبكا عليكم لكم ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة، قلوبكم مرضى بحبِّ الدنيا والحرص عليها، داووها بالزهد والترك، والإقبال على الحقِّ عزوجل،

---

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٠/ ٤٤٧ .

(٣) الفتح الرباني، ص ١٧٩، مجلس ٤٩ .

(٤) القراضة هنا : هي القطع مِن النقود . أنظر: تاج العروس: مرتضى الزبيدي، ١٩/ ١٦، مادة (قرض) .

(٥) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٦ .

(٦) الفتح الرباني: ص ١٢٢، مجلس ٢٩ .

سلامة الدين رأس المال، والأعمال الصالحة هي الأرباح، اتركوا الطلب لِما يطغيكم، واقنعوا بما يكفيكم، العاقل لا يفرح بشيء حلاله حساب وحرامُه عقاب))(١) .

((وممّا يروى عن كرمه أنّه رضي الله عنه حينما شدَّ الرحال إلى بيت الله الحرام، وكان معه نفر كثير من أصحابه مرَّ في مدينة الحلة؛ فأناخ عند خربة فيها بيت صغير؛ يسكنه شيخ وعجوز وصبية، فاستأذن صاحب الخربة في النزول عنده؛ فأذِن له، فنزل هو ومَنْ معه في تلك الخربة، وجاء مشايخ الحِلَّة يومئذٍ ورؤساؤها وأعيانها لزيارة الشيخ عبد القادر وسألوه أنْ يتحوّل إلى منازلهم إلى منازلهم، أو غيرها؛ فأبى، وساق إليه أهل البلدة كثيراً من الغنم والبقر والطعام والفضة والقماش، ورحَّلوا له الرواحل للسفر، وهرع الناس إليه من كلِّ جانب، فقال لمن معه : أنا خرجتُ مِنْ كلِّ نصيبي من جميع ما هنالك لأهل هذه الخربة، فقالوا : ونحن كذلك، فأمر بجميع ما هنالك؛ فأعطاه لذلك الشيخ والعجوز والصبية، وبات، ورحل في السَحَر))(٢) .

وكان يأكل من مالِه الخاص؛ حيث كان له حنطة مربّاة من الحلال بيَدِ بعض أصحابه من الرستاق؛ يزرعها له كلَّ سنة، وكان بعضُ أصحابه يطحنها ويخبز له منها أربعة أقراص، أو خمسة، ويأتي بها إليه آخر النهار، فكان رضي الله عنه يفرِّق منها على مَنْ حضرَه كسرةً كسرةً، والباقي يدَّخره لنفسه، وكان غلامه مظفر يقف على باب داره والطبق فيه الخبز على يديه ويقول : مَنْ يريد الخبز، مَنْ يريد العَشاء، مَنْ يريد المبيت، وإذا أُهديت إليه هدية؛ فرَّقها، أو بعضها على مَنْ حَضَرَهُ، ويكافيء عليها مهديها (٣)، وكان يدعو الناس إلى الفضائل، وينهاهم عن المعاصي والرذائل، ومن جملة الفضائل التي دعا إليها : الكرم والإيثار .

* ثالثاً : التواضع :

اتّصف الشيخ عبد القادر الجيلاني بالتواضع، وعندما رأى إقبالَ الناس عليه، وازدحامهم

---

(١) الفتح الرباني: ص ١٠٠، مجلس ٢٢ .

(٢) بهجة الأسرار، ص ١٠٣ .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٨ .

كي ينالوا مِنْ دعائه وعلمه وبركته؛ لم يزده ذلك إلاّ خضوعاً وتواضعاً .

فقد كان متواضعاً من غير ذُلٍّ إلاّ لله عزوجل، وكان شجاعاً من غير تكبُّر ((مع جلالة قدره كان يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ويفلّي ثيابهم، ولا يقوم لأحد من العظماء))[١] .

((وقال الشيخ المعمِّر جرادة : ما رأت عيناي أحسن خُلُقاً، ولا أوسع صدراً، ولا أكرم نفساً، ولا أعطف قلباً، ولا أحفظ عهداً وودّاً من سيدنا الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قدره، وعلوّ منزلته، وَسِعَة علمه؛ يقف مع الصغير، ويوقِّر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء))[٢]، وكان يقول : ((تواضعوا ولا تتكبَّروا، التواضع يرفع، والتكبُّر يضع، قال النبي ﷺ : (مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله)[٣]))[٤] .

وكان يقول : ((إذا أغضبتَ الله – تعالى –؛ فقد تكبَّرتَ عليه، إذا أذَّن المؤذِّن، فلم تجبه بقيامك إلى الصلاة؛ فقد تكبَّرتَ عليه، إذا ظلمتَ أحداً من خلقه؛ فقد تكبَّرتَ عليه، تُبْ إليه))[٥]، وذكر ((أنّ الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه؛ دخل عليه بعض أولاده؛ فرآه واضعاً وجهه على الأرض، والوسادةُ مُنَحَّاة عنه، فظنّ أنّه مِنْ معالجة

(١) أنظر: الطبقات الكبرى: الشعراني، ١/ ١٠٩ .

(٢) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٨ .

(٣) مِن حديث أخرجه المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير، أبو القاسم اللخمي الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ٨/ ١٧٢، برقم (٨٣٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان : أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي، باب في حسن الخلق، فصل في التواضع وترك الزهو والصلف والخيلاء والفخر والمدح، ٦/ ٢٧٦، برقم (٨١٤٠)، والإمام أحمد في مسنده : مسند المكثرين مِن الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ١٨/ ٢٥٠، برقم (١١٧٢٣)، بلفظ : (مَنْ تَوَاضَعَ للهَّ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الله دَرَجَةً، وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ) . قال الهيثمي: ((ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني سعيد بن سلام العطار وهو كذاب)) . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : علي بن أبي بكر بن سليمان، أبو الحسن، نور الدين الهيثمي (ت: ٨٠٧ه) ٨/ ٨٢ .

(٤) الفتح الرباني: ص ٢٢٧، المجلس ٥٩ .

(٥) الفتح الرباني: ص ١٣٥، المجلس ٣٤ .

سكرات الموت؛ فعل ذلك من غير قصد، فقرَّب الوسادة، ووضع رأسه .. عليها؛ فقال له : يا ولدي دعني على حالي؛ لينظر ربّي إلى ذلِّي؛ فلعلّه يرحمني))[١]، وأوصى أولاده عند وفاته بقوله: ((بيني وبينكم وبين الخلق كلّهم بُعْدَ ما بين السماء والأرض، فلا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا عليَّ أحداً))[٢] .

لقد كان الشيخ عبد القادر خافضاً جناحه للمؤمنين، حافظاً لحدود الله مع المسلمين؛ ليِّناً في كلامه؛ يتحمّل عثراتهم وهفواتهم، يعفو عن مسيئهم، وقد تجلّت هذه الصفات فيه .

إنّ استقراء وصيّته تبيّن جانباً مهمّاً من صفاته؛ فقد أوصى ابنه عبد الرزاق بقوله : ((أوصيك بتقوى الله، وطاعته، ولزوم الشرع، وحفظ حدوده، وتعلَّم يا ولدي – وفّقنا الله تعالى وإياك والمسلمين – أنّ طريقتنا هذه مبنيةٌ على الكتاب والسنّة، وسلامة الصدور، وسخاء اليد، وبذل الندى، وكف الجفا، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان، إنّ التصوف حالٌ لا لمن يأخذه بالقيل والقال، لكن إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم، وابدأه بالرفق، فإنّ العلم يوحشه، والرفق يؤنسه، وعليك بخدمة الفقراء بثلاثة أشياء : أولها : التواضع، ثانيها : حُسْنُ الخُلُق، ثالثها : صفاء النفس))[٣] .

* **رابعاً : الصبر :**

كان الشيخ صبوراً على المكاره، صَبَرَ صَبْرَ الكرام على الجوع والعري والفقر وإساءات الناس إليه، وحيفهم عليه في أول أمره، ثمّ صبر عن زخارف الدنيا وبهارجها وشهواتها .

وحقيقة الصبر كما يراها الشيخ عبد القادر الجيلاني؛ تتمثّل في الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، والثبات مع الله عزوجل، وتلقي مُرَّ قضائه بالرحب والسعة على أحكام الكتاب

---

(١) وصايا الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص ٥٦ .

(٢) رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام : أبو الحسن الندوي، ص ٢٦٦ .

(٣) الفتوحات الربانية : الجيلاني، ص ٣٩ – ٤١ .

والسنّة [١]؛ حيث وصل الشيخ إلى قمّة الصبر بكلّ أنواعه وأشكاله [٢]، فقد عاش يتيماً، وفارق أهله وأُمّه وودَّعها الوداع الأخير متوجِّهاً إلى بغداد لطلب العلم، صبرَ على كلّ بلوى تصيبه، ولم يكن خائفاً من مصائب الدنيا متمسِّكاً بقوله تعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[٣]، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[٤] .

وكان الشيخ يروي حديث الرسول ﷺ : (الصَبْرُ عند الصَدْمَةِ الأُولى)[٥]، يشير بذلك إلى سكون القلب حين تتنزّل عليه الابتلاءات؛ حيث يقف مع البلاء بحسن الأدب والثبات، وصبره عن معصية الله عزوجل في مقاومته لمغريات الحياة؛ التي تعترض طريق الناس، وتزيِّن لهم الشهوات في اقتراف المآثم والمحظورات، فقد قال الشيخ : ((أخذتُ نفسي بالقوة حتى أهذّبها وأُميتُها، فما تركتُ هولاً إلاّ ركبتُه، فارتديتُ الصوف، ومشيتُ على الشوك، وطويتُ الأيام على الجوع، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدات والطاعات، وأنشدُ سدَّ الحياة حتى لمس قلبي ذلك السرّ العلوي؛ فصرتُ وَلِهاً، وهِمتُ على وجهي حبّاً، ثمّ زاد بي الوجد حتى سكنتْ أطرافي، وجمدتْ حواسّي، فظنّ أهلي بي الموت، فجاءوا بالكفن والغاسل، وحملوني على المغتسل ليغسلوني، وتراءت لي رقعة بيضاء فيها ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾ ﴾[٦]، فتلوتها؛ فسُرِّي عنّي، وقمتُ بين الدهشة والذهول[٧] .

---

(١) أنظر: بهجة الأسرار، ص ١٢٣، وقلائد الجواهر: الشطنوفي، ص ٩١ .

(٢) أنظر: قلائد الجواهر: الشطنوفي، ص ٩٢ .

(٣) سورة النحل، من الآية ١٢٧ .

(٤) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠ .

(٥) مِن حديث أخرجه البخاري في صحيحه (الجامع الصحيح المختصر مِن أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه): محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي، كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأُولى، ١/ ٤٣٠، برقم (١٢٤٠) .

(٦) سورة الانشراح، الآية ٦ .

(٧) مِن أعلام التصوف الإسلامي، ٣/ ١٥٥ .

لقد رأى الشيخ أنّ الصبر واجب على كلِّ إنسان؛ لأنّ الدنيا كلَّها آفات ومصائب إلاّ ما ندر، وأنّه ما من نعمةٍ إلاّ وفي جنبها نقمة، وما من فرحة إلاّ ومعها ترحة، وما من سعة إلاّ ومعها ضيق، والمؤمن يعلم أنّ الله عزوجل لا يبتليه بأمر إلاّ لمصلحة؛ تعقب ذلك إمّا دنيا أو آخرة؛ لذلك فهو راضٍ بالبلاء، صابر عليه، وغير متَّهِم لربِّه عزوجل فيما نزل به من بلاء؛ لأنّه عزوجل خير الحاكمين، وأرحم الراحمين، وكان الشيخ يربط بين الصبر والقرب من الله عزوجل مصداقاً لقوله عزوجل: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[1].

وكان يحثُّ تلاميذه على طاعة الله عزوجل، والصبر عليها؛ فيقول: ((يا قوم إنْ أردتم أنْ يكون الحقُّ عزوجل لكم فاشتغلوا بطاعته، والصبر معه، والرضا بأفعاله فيكم وفي غيركم، إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الشكر))[2]، ويضرب لهم المثل بصبره على المريدين والطالبين، فلولا تمتُّعه بهذه المزيّة؛ لم يتمكّن من الظهور بينهم، والتصدّي لإرشادهم ووعظهم وتوجيههم[3].

* * *

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٤٦.

(٢) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٣٥ – ٣٦.

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٤١.

المبحث الرابع

عقيدته

تجسّدت عقيدة الشيخ عبد القادر الكيلاني من خلال آراءه وما كتبه؛ فكانت صافية خالية من البدع، تقيّد بالكتاب والسنّة في كلِّ أحواله، وكان يؤكِّد على ذلك في مجلسه ووعظه، وكان يقول : ((اتَّبِعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، وانتظروا ولا تيأسوا))(١) .

فالشريعة هي نتيجة الخطاب الإلهي من الله؛ ولذا فإنّ أعلى مراتب الطريقة، وأسمى درجات الحقيقة لا يعدوان كونهما أجزاء من كلية الشريعة، وكان يحثُّ على الالتزام بأوامر الشريعة المستفيضة والتمسُّك بها، وكان يقول : ((يا غلام، صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار، امشِ تحت ظلِّ كتاب الله عزوجل وسنَّة رسوله ﷺ، وقد أفلحتَ))(٢)، ((عليكم بالإتِّباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح، امشوا في الجادّة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل إتِّباعاً لسنّة رسول الله ﷺ من غير تكلُّف ولا تطبُّع ولا تشدُّد ولا تمشدق ولا تمعقل، يسعكم ما وسع مَنْ كان قبلَكم، ويحك؛ تحفظ القرآن ولا تعمل به، وتحفظ سنّة رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – ولا تعمل بها، فأيِّ شيءٍ تفعل ذلك ! تأمرُ الناس وأنتَ لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي))(٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار): الشعراني، ١/ ١١٠ – ١١١ .

(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٣٢، المجلس ٤ .

(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٤٩، المجلس ١٠ .

فقد كان مذهب الشيخ عبد القادر مذهب السلف الصالح والرعيل الأول للإسلام؛ فهو من الأئمة الكبار والشيوخ العارفين، وكما يقول القشيري : ((...، أنّ شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد؛ صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنَّة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل))[١] .

وقد كان الشيخ يدعو أتْبَاعَه وتلاميذَه إلى التمسُّك بالثوابت (الكتاب والسنة) وبسيرة مَنْ كان قبلَهم من الخلفاء الراشدين والسلف، وهذا الذي كان يدعو إليه في دروسة وإرشاده : ((كلُّ ولي على قدم نبي، وأنا على قدم جدِّي محمد ﷺ، ما رفع المصطفى ﷺ قدماً إلاّ وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمه منه إلاّ قدماً مِنْ أقدام النبوة؛ فإنّه لا سبيل أنْ يناله غير نبي))[٢]، فالعقيدة التي عُرِفَتْ عن الشيخ والتي ربّى عليها تلاميذه، ودعاهم إليها هي عقيدة التوحيد الخالص النقي، فكان الشيخ لا يخاف إلاّ الله، ولا يخشى إلاّ الله، ولا يستعين إلاّ بالله، ولا يجامل على حساب دينه، بل عُرِفَ بالشدّة إذا انتُهِكَت محارم الله .

لقد دعا الشيخ الكيلاني إلى الدخول في الزمرة الناجية زمرة أهل التوحيد المتمسّكين بالكتاب العزيز وسنَّة الرسول الكريم ﷺ .

كما أنّه تصدّى للآراء والدعاوى الدخيلة على الإسلام من الفِرَق الضالّة المارقة؛ حيث وردتْ في كتبه؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر إنّ كتاب (الغنية) تناول فصولاً في الردِّ على أهل الأهواء والملل، وكذلك تناول الفِرَق في كتابه (فتوح الغيب) والردّ عليها، وحذّر الشيخ عبد القادر الكيلاني من الخوض مع المتكلّمين كما حذّرهم من قراءة كتب علم الكلام .

قال السهروردي : ((اشتغلتُ بعلم الكلام وأنا شاب، وحفظتُ فيه كتباً، وكان عمِّي أبو النجيب يزجرني عنه ولا أزدجر، فدخلنا يوماً على الشيخ عبد القادر؛ فلمّا جلسنا إليه؛ قال عمِّي: يا سيّدي هذا ابن أخي مُشتغل بعلم الكلام، وقد نهيتُه فلم ينته، فقال لي الشيخ عبد

---

(١) الرسالة القشيرية : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ) ١/ ١٩ .

(٢) الفيوضات الربانية : ص ٧٠، وأنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٢ .

القادر : يا عمر أيّ كتابٍ حفظته فيه ؟ قلتُ : الكتاب الفلاني، والكتاب الفلاني، فمرَّ بيده على صدري، فو الله ما نزعها، وأنا أحفظ من تلك الكتب لفظة، وأنساني اللهُ جميع مسائلها، ووقر في قلبي العلمَ اللدُنِّي، وقال لي: يا عمر أنت آخر المشهورين بالعراق(1) .

أمّا اعتقاده بالله عزوجل؛ فهو يُثبِتُ له ما يليق بجلاله، وينزّهه عمّا لا يليق به عزوجل من خلال الآيات القرآنية، ويؤمِنْ بصفاته عزوجل دون سؤال : كيف ولِمَ(2)، ويعتقد بأنّ القرآن كلام الله المنزّه عن الزيادة والنقصان المحفوظ من عند الله على مدى الأزمان، لا يعتريه تبديل، ولا تحويل، وأنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، وأنّ الإيمان قولٌ باللسان، ومعرفة بالجنان، وأنّ الجنة والنار مخلوقتان، وأنّ أهل الإسلام هم خير الأُمم (3) .

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يحذّر من الابتداع في الاعتقاد والخروج بالعقيدة عن سياج الشرع من الكتاب والسنّة (4)، وما ذهب إليه السلف الصالح، ولهذا يقول : ((لا تبتدع وتُحدِثَ في دين الله عزوجل شيئاً لم يكن، اتَّبع الشاهدَين العادلين : الكتاب والسنّة؛ فإنّهما يوصلانك إلى ربِّك عزوجل، وأمّا إنْ كنت مبتدعاً فشاهداك : عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ...، لا تحتجّ بالقدر؛ فلا يُقْبَل منك، لابدّ لك من الدخول إلى دار العلم والتعلُّم، ثمّ العمل، ثمّ الإخلاص))(5) .

وكان يقول: ((يا عباد الله، يا مريدين؛ عليكم بسنَّة مَنْ تقدَّمكم))(6)، ((وأطيعوا ولا تمرقوا، وحدّوا ولا تُشرِكوا))(7)، إذن عقيدة الشيخ – رحمه الله – كانت عقيدة السلف الصالح، فقد

(1) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص 32 – 33 .
(2) أنظر: الغنية : الجيلاني، 1/ 266 .
(3) أنظر: الغنية : الجيلاني، 1/ 353 .
(4) أنظر: الفتح الرباني والفيض الرحماني: الجيلاني، ص 165، المجلس 44 .
(5) الفتح الرباني والفيض الرحماني: الجيلاني، ص 173 – 174، المجلس 47 .
(6) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص 55 .
(7) فتوح الغيب: الجيلاني، ص 7 .

ذكر الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوسف الصصري الشاعر المعروف (ت: ٦٥٦هـ) عن شيخه علي بن إدريس أنّه سأل الشيخ عبد القادر: يا سيّدي؛ هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ما كان ولا يكون[١] .

فهذه عقيدة الشيخ – رحمه الله – ليست من العقائد الباطلة الحشوية وغيرها، وإنّما كانت صافيةً نقيّةً خاليةً من الأكدار والشوائب؛ مثل : التجسيم، والتعطيل، والتشبيه، وقد حكم على أصحاب هذه العقائد الضلال والكفر؛ فقال عنهم : ((حكَّموا العقول ومقائسها، واتَّبعوا الأهوية وأبالسها، فمنهم طائفة ضلُّوا في تيه التمويه، ووقعوا في التجسيم والتشبيه؛ فأولئك أهلكهم الشقاء حين ابتلى أخيارهم، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾[٢] .

ومنهم فرقة حاروا في أضاليل التعطيل، ومنهم عصابة هلكوا في أباطيل الحلول؛ ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾[٣]، ومدح أصحاب العقيدة السليمة؛ الذين هم على الحقِّ؛ فقال: أوصلهم الصدق في الحق إلى مسالك التوحيد، ومعاقد التمجيد، وعلَتْ بهم الرُّتَبُ إلى مقام الوجود، وسقوط الكيف، والشبه المحدود، ووجوب التنزيه والإجلال لواجب الوجود .

من خلال هذا القول يتبيّن – لنا – كيف كانت عقيدة الشيخ – رحمه الله –، وأنّها ليست من عقائد الحشوية، كما توهّم بعض أهل العلم، فقد نقل الشيخ اليافعي ذلك عمّن لا يُسْئَلُ في صدقه من أصحاب الشيخ نجم الدين الأصفهاني عن الأصفهاني، وهو من أصحاب الشيخ أبي العباس المرسي الشاذلي رضي الله عنه .

---

(١) أنظر: ذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ٢/ ٢٠٠ .

(٢) سورة محمد، الآية ٢٣ .

(٣) سورة نوح، من الآية ٢٥ .

والذي يقرأ كتاب (الغنية) يتّضح له أنّ الشيخ عبد القادر حنبلي في عقيدته، وفي كلِّ ما يتعلّق بمعرفة الخالق، وما يجوز في حقِّه، وما يستحيل، وما يجب؛ فقد سلك فيه مسالك الحنابلة؛ فقال: ((إنَّ الله – تعالى – واحدٌ أحدٌ فردٌ وصمدٌ لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا شبيه له، ولا نظير، ولا عون، ولا شريك، ولا ظهير، ولا وزير، ولا نِدّ، ولا مُشِير، ليس بجسم؛ فَيُمَسَّ، ولا بجوهر؛ فَيُحَسَّ، ولا عَرَض؛ فينقضي، ولا ذي تركيب، أو آلة وتأليف، أو ماهية وتحديد، فردٌ معبودٌ، حيٌّ لا يموت، أزلي لا يفوت، أبديّ الملكوت، سرمديّ الجبروت، محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1]، خلقَ الخلقَ وأفعالَهم، وقدَّر أرزاقهم وآجالهم، وأنّه – تعالى – حيٌّ بحياة، وعالِمٌ بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، وسميع بِسَمْع، وبصير ببصر...، مُدرِكٌ بإدراك، ومتكلّم بكلام، وآمرٌ بأمر، وناهٍ بنهي))[2]، ومن عقيدته أنّه كان يرى السفر لزيارة النبي وقبره ﷺ من أحسن الطاعات، وأقرب القُرُبَات، وهذا هو مذهبه وعقيدته السنِّيَّة، وهو من الأمور البديهية؛ لأنّه – أي: الشيخ – مِن أكابر أئمة أهل السنّة، ومن الفقهاء والمحدِّثين والصوفية، وكما أنّه يذهب إلى أنَّ الدعاء عند زيارة قبور الشهداء أسمَع وأقرب إلى الاستجابة[3] .

* التوحيد :

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني موحِّداً لله عزوجل مخلصاً في أقواله وأفعاله، وكان يقول: ((الدواء في توحيد الله عزوجل بالقلب لا باللسان فحسب، التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان، التوحيد في القلب، والزهد في القلب، والتقوى في القلب، والمعرفة في القلب، والعلم بالحقِّ عزوجل في القلب))[4]، ((مَن صحَّ إيمانه بالله – تعالى وجلَّ – وبقدره سلَّم كلَّ أموره إليه، ولم يجعل له شريكاً فيها ....، الإيمان به وبرسله والتصديق بهما أساس

(١) سورة فاطر، من الآية ١٠ .
(٢) الغنية : الجيلاني، ١/ ٢٥٥ .
(٣) أنظر: شواهد الحق: النبهاني، ص ٧١ .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٦٥، المجلس (١٣) .

هذا الأمر، الإعلام ثمَّ الإيمان، ثمّ العمل بكتاب الله – تعالى –، وشريعة رسوله ﷺ، ثمّ الإخلاص في العمل مع توحيد القلب عند كمال الإيمان، المؤمن يفنى عنه وعمله، وعن كلِّ ما سوى الحقِّ عزوجل، فيعمل الأعمال وهو في معزل عنها، ما زال يجاهد نفسه، والخلق كلُّهم في جنب الحقِّ عزوجل حتى هداه إلى سبيله، قال الله عزوجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1]))[2] .

((فإذا ترقّت درجة العبد مِن الإسلام إلى الإيمان، مِن الإيمان إلى الإيقان، مِن الإيقان إلى المعرفة، مِن المعرفة إلى العلم، مِن العلم إلى المحبّة، مِن المحبّة إلى المحبوبية، فحينئذٍ إذا غفل لم يُترَك، وإذا نسي ذكر))[3]، وقال – أيضاً – في التوحيد : ((وحِّدوا الحقَّ عزوجل، وعن بابه فلا تبرحوا؛ سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكّلوا عليه، ولا تتوكّلوا على غيره ...، أما سمعتم قولَه عزوجل في بعض كُتُبِه : (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)[4].))[5]، ((الموحِّدون الصالحون حجّةُ الله على بقيّة الخلق ..، الشرعُ يهذِّبُ الظاهر، والتوحيد والمعرفة يهذِّبان الباطن))[6]، ((تفنى مِنْ هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيد الله – تعالى –، وفي ظاهرك غير طاعة الله – تعالى –، وعبادته ممَّا أمر ونهى))[7] .

---

(١) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩ .

(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٩٧ – ٩٨، المجلس (٢٢) .

(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٦٩، المجلس (٤٥) .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في محبة الله عزوجل، فصل في إدامة ذكر الله عزوجل، ١/ ٤١٣، برقم (٥٧٢)، قال عنه الحافظ العراقي: ((وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً)) . المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت: ٨٠٦هـ) ص ٣٥٠ .

(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٧٣، المجلس (٤٧) .

(٦) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٦٥، المجلس (١٣) .

(٧) فتوح الغيب: الجيلاني، المقالة، ص ٦٠٢ .

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني في استدلاله على وحدانية الله عزوجل : ((أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه، ثمّ في جميع المخلوقات والمبدعات؛ فيستدلّ بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأنّ فيها دلالة على الصانع، وفي القدرة المُحكَمة آيةٌ على الحكيم؛ فإنّ الأشياء كلَّها موجودةٌ به، وفي معناه ما ذكر ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[١]، قال : في كلِّ شيءٍ اسمٌ من أسمائه، واسمُ كلِّ شيء من اسمه؛ فإنّما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطن بقدرته، وظاهر بحكمته، ظهرَ بصفاته، وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه، وظاهر في حكمته وقدرته، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[٢] .

*** موقفه من مسألة الصفات :**

قال ابن رجب في (ذيل طبقات الحنابلة) : ((وكان - يعني: الشيخ عبد القادر - متمسِّكاً في مسائل الصفات، والقدر، ونحوهما بالسُنَّة، بالغاً في الردِّ على مَنْ خالفها))[٣]، فقد تصدّى الشيخ عبد القادر للفِرَق المجسِّمة والكرّامية وغيرها من الفِرَق المشبِّهة، وكان يقول: ((لا تشبيه [٤]، ولا تعطيل، ولا تجسيم))، وبذلك نفى التجسيم الذي اتُّهِمَ به بعض علماء الحنابلة[٥]، ويكون بذلك قد أعاد إلى المذهب نقاءه الأصيل، وكان الشيخ عبد القادر يقول: ((ينبغي إطلاق صفة الاستواء مِن غير تأويل، وأنّه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسِّمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية،

---

(١) سورة الجاثية، من الآية ١٣ .

(٢) سورة الشورى، من الآية ١١ .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٩ .

(٤) المشبهة صنفان: صنف شبَّهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخرون شبَّهوا صفاته بصفات غيره . أنظر: الفرق بين الفرق: أبو منصور الإسفراييني، ص ٢١٤ .

(٥) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٦/ ١٨١ .

ولا على معنى الاستيلاء والغلَبة كما قالت المعتزلة؛ لأنّ الشرع لم يرد بذلك، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك، بل المنقول عنهم على الإطلاق، وقد روي عن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ في قوله عزوجل : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1]، قالت : (الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر)[2]))[3] .

ويرى الشيخ عبد القادر أنّ العلم الأول المفروض على العباد، وهو ما يسمِّيه معرفة العامة - التي لا تنعقد شرائط اليقين إلاّ بها [4]- على ثلاثة أركان : إثباته الصفات الإلهية بأسمائه؛ دون تشبيه بصفات الخلق، فهو عزوجل سميعٌ بصيرٌ لا كسمع الخَلق وبصرهم؛ وإنّما كما أخبر عن نفسه بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[5]، ونفى التشبيه دون تعطيل؛ فلا يقع العبد في المحظور؛ الذي سقط فيه المعطِّلَة؛ حين أرادوا تنزيه الله، فعطّلوا الصفات الإلهية، أمّا الركن الأخير؛ فهو الوقوف على شاطئ بحر التأويل؛ الذي غرق فيه المتعمِّقون؛ الذين اشتغلوا عن العلم النافع المفروض بعلم لم يؤمَروا به، ولم يصل بهم إلاّ إلى الإفراط في العقل والدين، وكما قال تعالى: ﴿ ...، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾[6]، فإذا استكمل العبد الأركان؛ التي يقوم عليها العلم؛ يمضي في استكمال المعارف الدينية؛ فيأخذ من علماء الشرع والفقهاء وأهل الحديث والتفسير، وهؤلاء الذين يُطلِقُ عليهم الشيخ عبد القادر الكيلاني ((أطباء الدين الجابرين

---

(١) سورة طه، الآية ٥ .

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة : عبيد الله بن محمد بن محمد، أبو عبد الله العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري (ت: ٣٨٧هـ) ٧/ ١٦٢، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : هبة الله بن الحسن بن منصور، أبو القاسم الطبري الرازي اللالكائي (ت: ٤١٨هـ) ٣/ ٤٤٠ .

(٣) الغنية : الجيلاني، ١/ ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٤) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٢٥٦ .

(٥) سورة الشورى، من الآية ١١ .

(٦) سورة آل عمران، من الآية ٧ .

لكسره))[١]، فمنهم يَنَالُ العبد الشرع ويهتدي في معاملته مع الله والناس .

وخلاصة القول: إنّ الشيخ عبد القادر وليٌّ مِنْ أولياء الله؛ شاعت ولايته في أقطار الأرض، ومُجْمَعٌ على علمه ومعرفته، أمّا بالنسبة إلى ما ورد عنه في كتابه (الغنية) أنّه قال عن الله عزوجل - : ((هو في جهة العلوّ؛ مستوٍ على العرش، محتوٍ على المُلك، محيطٌ علمُهُ بالأشياء، وإليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، يدبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض، ثمّ يعرج إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنة ممّا تعدُّون))[٢]، فيما يبدو لي أنّ القول الذي قال به الإمام الشعراني : ((إنّ قول الشيخ عبد القادر رضي الله عنه بأنّ الله – تعالى – في جهة العلوّ؛ يجوز أنْ يكون قد دُسَّ عليه في كتابه))[٣] . فقد كان يُثبِتُ الصفات على نحو ما يليق به ويرتضيه لنفسه، ويرتضيه الرسول ﷺ؛ حيث ذكر : ((إذا فعلتم هذا؛ زال التشبيه والتعطيل مِن قلوبكم))[٤]، وأمّا الصفات الخبرية؛ فقد كان يحملها على ظاهرها؛ حيث قال : ((مروا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغيّر، والعلم لا يتغيّر))[٥] .

وإلى هذا ذهب الإمام خاتمة الفقهاء والمحدِّثين ابن حجر الهيتمي – رحمه الله – في كتابه (الفتاوى الحديثية) : ((وإياك أنْ تغترَّ – أيضاً – بما وقع في (الغنية) لإمام العارفين وقطب الإسلام والمسلمين الأستاذ عبد القادر الجيلاني، فإنّه دسَّه عليه فيها مَنْ سينتقم الله منه وإلاّ فهو بريء من ذلك، وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلُّعِه من الكتاب والسنَّة وفقه الشافعية والحنابلة حتى كان يفتي على المذهبين، هذا مع ما انضمَّ لذلك مِنْ أنَّ الله مَنَّ عليه مِنْ المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة، وما أنبأ عنه ما ظهر عليه وتواتر مِنْ أحواله))[٦] .

---

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١١٥، المجلس (٢٧) .
(٢) الغنية : الجيلاني .
(٣) اليواقيت والجواهر: الشعراني، ١/ ٦٦ .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٧٩، المجلس (١٧) .
(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٣٢٤ .
(٦) الفتاوى الحديثية : أحمد بن محمد بن علي بن حجر، شهاب الدين، أبو العباس الهيتمي السعدي الأنصاري

المبحث الخامس

كراماتُه

إنّ من جملة الأمور المتَّفق عليها عند جمهور العلماء من أهل السنّة والجماعة الكرامة، وهي التي يتكرّم الله بها على مَنْ يشاء من عباده المؤمنين المتَّقين؛ الذين يتولّى الله رعايتهم وعنايتهم، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[(١)] .

والكرامة ثابتة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وفي آثار أصحاب النبي الكريم ﷺ، ومَنْ بعدَهم إلى يومنا هذا [(٢)] قال بها الفقهاء والمحدِّثون والأصوليون ومشايخ الطريق، ومؤلفاتهم ناطقة بذلك، ولم ينكرها إلاّ مَنْ خَفَتَ نور إيمانه مِنْ أهل البدع والانحراف[(٣)] .

والكرامة في اللغة: مأخوذة مِنْ التكريم، وفي الاصطلاح: هي الأمر الخارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوّة؛ يُظهِرُها الله على يد الصالحين من عباده، والكرامات متفاوتة كتفاوت معجزات الأنبياء [(٤)] .

والكرامة غير المعجزة، وإنْ كانتا تشتركان في كونهما خارقتين للعادة، فالمعجزة: هي أمرٌ

(ت: ٩٧٤هـ) ص ١٤٥ .

(١) سورة يونس، الآية ٦٢ – ٦٣ .

(٢) بستان العارفين: يحيى بن شرف، أبو زكريا، محيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ) ص ٥٩ .

(٣) أنكرها أكثر المعتزلة، واحتجُّوا بأنهَّا لا تتميَّز عن المعجزة؛ فلا تكون المعجزة حينئذ دالة على النبوة وينسد باب إثباتها . أنظر: المواقف: عبد الرحمن بن أحمد، عضد الدين الإيجي، ٣/ ٤٦٥ .

(٤) أنظر: مواهب الصمد في حلِّ ألفاظ الزبد : أحمد الفشني، ص ٣٤ .

خارقٌ للعادة؛ تقع لمن يدّعي النبوّة قبل ختم الرسالة المحمدية [١] .

الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة والآثار المشهورات وحكايات الصالحين مستفيضة جداً في إثبات الكرامات .

* **الدليل عليها من القرآن :**

١. قصة أصحاب الكهف وبقائهم في النوم أحياءً سالمين عن الآفات مدّةَ ثلاثمائة وتسع سنين، وأنّه عزوجل حفظهم من كلّ مكروه [٢] .

٢. هزُّ مريم البتول لجذع النخلة اليابس؛ فاخضرّ وتساقط منه الرطب الجني في غير وقته [٣] .

٣. قصة آصف بن برخيا مع نبي الله سليمان ﷺ على ما قاله جمهور المفسّرين أنّه جاء بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل ارتداد الطَّرف [٤] .

* **أمّا دليلها من السنّة الصحيحة :**

١. قصة الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه لمّا ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمةً إلاّ ربا مِنْ أسفلها أكثر منها؛ فشبعوا وصارت أكثر ممّا هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر ممّا كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوامٌ كثيرون؛ فأكلوا منها وشبعوا [٥] .

٢. خبيب بن عدي وقع أسيراً عند المشركين بمكة – شرّفها الله –، فوجدوا في يده عنباً

---

(١) أنظر: شرح النسفية في العقيدة الإسلامية : أ. د. عبد الملك السعدي، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(٢) قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [سورة الكهف: مِن الآية ١٧] .

(٣) قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة مريم: الآية ٢٥] .

(٤) قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل: مِن الآية ٤٠] .

(٥) صحيح البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، ١/ ٢١٦، برقم (٥٧٧) .

يأكله، والعنب في غير أوانه [١] .

٣. قصة أمِّ أيمن، وكيف عطشت في طريق الهجرة؛ فنزل عليها دلوٌ من السماء؛ فشربت[٢] .

٤. وهذا التابعي مِنْ عُبَّاد البصرة صلة بن أشيم (ت: ٧٥هـ) مات فرسه وهو في الغزو؛ فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ مِنَّةً، ودعا اللهَ عزوجل؛ فأحيا له فرسَه، فلمّا وصل إلى بيته قال : يا بنيّ خذ سَرْجَ الفرس؛ فإنّه عارية، وأخذ سرجه ومات الفرس[٣] .

والأدلّة كثيرة؛ قد ملأت بطون الكتب والحكايات في ذلك أُلِّفَتْ فيها مجلَّدات[٤].

وأجلُّ أنواع الكرامات - التي يتكرّم الله بها على عباده -؛ هي الاستقامة، والتوفيق إلى طاعته، والزيادة في العلم والعمل، وهداية الخلق إلى الخالق، والأصل في الكرامة الإخفاء والكتمان، وأصحاب الكرامات مِنْ الأولياء محفوظون من المخالفة كالعُجْب، والرياء، وحبّ الظهور؛ لذلك يقول عنهم الشيخ عبد القادر - رحمه الله - : ((الأولياء عرايس الله - تعالى - لايطّلع عليهم إلاّ ذا مَحْرَم))[٥] .

ويقول السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي : ((إنّ الأولياء يستترون من الكرامة كما تَسْتُرُ المرأةُ دمَ الحيض))[٦]، وهي عكس المعجزة؛ لأنّ إظهار المعجزة أمرٌ واجب يؤيّد به تبليغ الرسالة .

ولّما كان الشيخ عبد القادر واحداً من أهل الله؛ جاء من بلده مهاجراً إلى الله ورسوله؛ يبغي أنْ يكون داعياً إلى الله مخلصاً في علمه وعمله، متحلِّياً بالأخلاق العالية والشمائل الكريمة

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه، ٤/ ١٤٩٩، برقم (٣٨٥٨) .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أحمد بن عبد الله بن أحمد، أبو نعيم الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) ٢/ ٦٧ .

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ) ص ٣١٥ .

(٤) إرجع في ذلك إلى كتاب (جامع كرامات الأولياء) للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، ٢/ ٢٠٢ .

(٥) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : لابن النجار الدمياطي، ١/ ١٢٧ .

(٦) البرهان المؤيد : أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، ص ٣٣، ١٢٨ .

والسلوك الإنساني الرفيع والتعامل الحسِن مع الخلق مصلِحاً ما أفسده الناس، زاهداً في الدنيا، مُقبِلاً على الله بكلِّيته؛ فلا عجب أنْ يُكرِمَه الله بالكرامات، ويعطيه أعلى المقامات، كيف لا وقد شهد بكراماته القاصي والداني، وأجمعَ أهلُ العلم والسلوك على كراماته .

ومِنْ هؤلاء الأئمة العز بن عبد السلام (ت: ٦١٠هـ) الفقيه الشافعي؛ الذي قال : ((ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر، إلاّ الشيخ عبد القادر))[١]، وقال ابن تيمية : ((كرامات الشيخ عبد القادر ثابتةٌ بالتواتر))[٢] .

وقال ابن قدامة، موفق الدين صاحب كتاب (المغني) : ((لم أسمع عن أحد يحكي عنه من الكرامات أكثر ممَّا يحكي عن الشيخ عبد القادر))[٣] .

والكرامات أنواع كأنواع المعجزات؛ لأنّ كلَّ معجزة لنبي يجوز أنْ تقع كرامة لولي، وهذا عليه جمهور العلماء [٤] .

ولقد عدّد الشيخ تاج الدين السبكي – رحمه الله – أنواع الواقعات من الكرامات[٥]؛ ذكر منها ما وقع للشيخ عبد القادر :

١. إحياء الموتى، يقول ابن حجر الهيتمي (ت: ٦٧٤هـ) : ((ومِن المشهور ما روي مسنَداً مِن خمس طرق عن جماعة مِن الشيوخ الأجلاء أنَّ القطب الشيخ عبدالقادر– نفع الله به – جاءت إليه امرأة بولدها وخرجت عنه لله وله فقبله، ثم أمره بالمجاهدة فدخلت أُمُّه عليه يوماً فوجدته نحيلاً مصفرّاً يأكل قرص شعير فدخلت على الشيخ فوجدت بين يديه إناء فيه عظم دجاجة قد أكلها، فقالت : يا سيدي تأكل لحم الدجاج ويأكل ابني خبز الشعير، فوضع يده على ذلك الطعام وقال: قومي بالله محيي العظام. فقامت

(١) فوات الوفيات للكتبي، ٢/ ٣٧٣ .
(٢) تاريخ ابن الوردي : ابن الوردي المعري، ٢/ ٧٠ .
(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٢ .
(٤) الفتاوى الحديثية : الهيتمي، ص ٢١٥ .
(٥) طبقات الشافعية الكبرى، ٢/ ٣٣٨ – وما بعدها .

الدجاجة سوية))[1] .

٢. كلام الموتى، وهو أكثر مِن النوع الذي قبلَه، وقد ورد عن سيدنا علي أنّه كلّم أصحاب القبور؛ فأجابوه [2]، وكذلك ورد عن الشيخ عبد القادر – رحمه الله –[3].

٣. إبراء العليل، فقد حكي عن الشيخ عبد القادر – رحمه الله – أنّه قال لصبي مُقعَد مفلوج أعمى مجذوم : قُمْ بإذن الله، فقام لا عاهةَ به [4] .

٤. الإلهام، وهو ما يُلقى في روح بطريق الفيض، وقيل : هو ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العلم من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجّة [5] .

٥. أصحاب الإلهام هم أهل الفراسة، وهم الذين عناهم الله بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[6]، وتعني: أصحاب الفراسة، والمثال على ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه (ذيل طبقات الحفاظ): أنّ ((شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي صاحب (العوارف) قال : كنت قد عزمت على أنْ أقرأ شيئاً من علم الكلام، وأنا متردد: هل أقرأ الإرشاد لإمام الحرمين، أو نهاية الإقدام للشهرستاني، أو كتاباً آخر ذكره ؟ فذهبت مع خالي أبي النجيب، وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر قال : فالتفتَ الشيخ عبد القادر، وقال لي : يا عمر، ما هو مِنْ زاد القبر، ما هو مِنْ زاد القبر، فرجعت عن ذلك. قال الشيخ تقي الدين (يعني : ابن تيمية) : ورأيتُ هذه الحكاية معلقة بخط الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي – رحمه الله –))[7] .

---

(١) الفتاوى الحديثية : الهيتمي، ص ٢١٥ .

(٢) أنظر: السنة : محمد بن نصر بن الحجاج، أبو عبد الله المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ) ص ٢٣ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ٢/ ٣٣٩ .

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٣٤٠ .

(٥) التعريفات : علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ص ٣٤ .

(٦) سورة الحجر، الآية ٧٥ .

(٧) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٢٠١ .

٦. ومن كراماته؛ أنّ الخليفة العباسي المستنجد؛ قد جاء يوماً إلى مدرسته ووضع بين يديه مالاً في عشرة أكياس؛ يحملها عشرة من الخدم؛ فقال : لا حاجة لي فيها، وأبى أنْ يقبلها؛ فألحَّ عليه، فأخذ كيساً منها في يمينه وآخر في يساره؛ فعصرهما بيده فسالا دماً، فقال مخاطباً المستنجد : يا أبا المظفر أمَا تستحي مِن الله – تعالى – أنْ تأخذ دماء المسلمين، وتقابلني بها؛ فغشي عليه [١] .

٧. ومن كراماته؛ أنّه قد ازدادت مياه دجلة في بعض السنين حتى أشرفت بغداد على الغرق، فأتى الناسُ إلى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه؛ يستغيثون به، فأخذ عكّازاً وأتى إلى الشط وركزه عند الماء، وقال : إلى هنا، فنقص الماء مِنْ وقته [٢] .

وكراماته كثيرةٌ ذكَرَتها كتب المناقب والتراجم والسِيَر، وهي نتيجة لسلوكه في الطريق المستقيم؛ طريق أهل الله وأحبّائه، ويرى أهل السلوك أنّ الكرامات التي وهبها الله لأوليائه هي في الحقيقة امتداد لمعجزات الرسول الكريم، وما تحقَّقت هذه الخوارق والمكاشفات إلاّ ببركته واتِّباع سنّته الشريفة .

يقول القشيري : ((واعلم : أنّ أجلَّ الكرامات التي تكون للأولياء : دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات))[٣] .

وقد تحدث خوارق لغير المسلم [٤]، وهو الاستدراج؛ لقوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] .

أمّا الولي الذي تظهر على يده الخوارق؛ فهو المتمسِّك بحبل الله الواقف عند حدوده، فالولي مَنْ تولَّى الله رعايتَه، والتميز عن غيره من الناس بكثرة تقواه؛ قال تعالى : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

(١) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٦١ .
(٢) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٦٢ .
(٣) الرسالة القشيرية، ٢/ ٥٢٦ .
(٤) تحدث للسيخ والهندوس؛ نتيجة رياضة النفس وتدريب ذهني وجسدي، وهو مِن قبيل الاستدراج.
(٥) سورة القلم، من الآية ٤٤ .

ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[(١)]، فكلمة (ولي) مشتقّة مِن الولاء، وهو الدنوّ، والتقرّب، فوليُّ الله : مَنْ والاه الله، ومَنْ تقرّب إلى الله بمرضاته؛ متبتّلاً إليه بكلِّيَته متأدِّباً بآداب الشريعة، وهي التي يترتَّب عليها حبُّ الله عزوجل [(٢)]، فقد أشار الحديث القدسي؛ الذي رواه الإمام البخاري في إسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال؛ قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)[(٣)].

وقد عَرَّفَتْ المعاجم اللغوية الولي بعدَّة تعاريف؛ منها الولاية : وهي تملُّك الأشياء والتصرُّف فيها، فكان في أسمائه عزوجل (الولي) و (الوالي) لأنّه عزوجل المتولي أمور الخلق، المالك المتصرِّف في الأشياء جميعاً [(٤)]، وفي سياق الآيات القرآنية وردتْ (الولاية) عشرات المرات؛ لتعني ولاية أهل الحق فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الله، وتعني – أيضاً –: الولاية بين الكافرين والمنافقين، وبينهم وبين الشيطان؛ الذي تولاهم؛ ممّا يعني عموم انطباق هذه اللفظة في القرآن الكريم .

فالدكتور عبد الفتاح بركة؛ قد تتبع ورود الكلمة في الآيات القرآنية؛ حيث قدم عرضاً مطوّلاً لأغلب الآيات؛ التي تضمن الإشارة إلى مفهوم الولاية، وانتهى إلى تصنيف (الولاية الإيمانية) ينحصر في (ولاية الله) سواء بإطلاقها، أو بإضافتها للمؤمنين، ثمّ (ولاية العباد) وتفاضل المؤمنين فيها، واختصاص بعضهم بحسب الدرجات، ثم ما يسمّيه (علامات الولاية) وهي مزيد الاختصاص في الدنيا والآخرة، وحفظ الولي من سلطان الشيطان، والصلة بالملأ الأعلى ووقوع الكرامات [(٥)]، وقد أكّد الشيخ الكيلاني على أنّ الولاية : منحة إلهيّة؛ يختصُّ الله بها بعض

---

(١) سورة الأنفال، من الآية ٣٤ .

(٢) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٦/ ٤٩٢٣، مادة (ولي) .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق، باب التواضع، ٥/ ٢٣٨٤، برقم (٦١٣٧) .

(٤) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٦/ ٤٩٢٠، مادة (ولي) .

(٥) أنظر: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية : د. عبد الفتاح بركة، ٢/ ٢٤ – ٢٦ .

المقرّبين إليه مِن العباد، فعندما سأله بعض معاصريه قائلين : إنّا نصوم مثلما تصوم، ونصلي مثلما تصلي، ونجتهد مثلما تجتهد، وما نرى مِنْ أحوالك شيئاً !؟ قال لهم : ((زاحمتموني في الأعمال، أتزاحمونني في المواهب))[١]، وهذه الموهبة الربانية للأولياء؛ اختصاص إلهي اصطفى فيه الخالق أهل الولايات قبل وجودهم الزماني، فهم أولياؤه في علمه الأزلي السابق؛ حتى يأتي أوان بروزهم الدنيوي هذا ما ألمح إليه الشيخ عبد القادر في شعره، حين أشار أنّ الولاية استحقاق أزلي مِنْ عالَم الذر؛ الذي خاطب الله فيه أرواح البشر، وأخذ عليهم الميثاق بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[٢]، ففي هذا الخلق الأول تراءت الأرواح للخالق؛ فاصطفى منها صفوة الصفوة، يقول الشيخ عبدالقادر[٣]:

ولنا الولايةُ مِنْ ألستُ بربِّكُم رَشَقَتْ قلُوْبَ المُنْكِرِيْنَ سِهَامُنَا

فالأولياء عند الشيخ عبد القادر الكيلاني هم آحاد الأفراد وشيمة العباد والبلاد وأطبّاء الدين، ويظل الأولياء تحت سماء القرب والوصول؛ معلَّقة عيونهم بنبع الأنوار الفيّاض، وقلوبهم دوماً في مراقبة التجليات؛ فتحصل عندهم غرائب المعارف بدقيق المشاهدات، وينالون خلعة المعرفة، ويرى الشيخ عبد القادر أنّ الاستهانة بهم تنبع مِنْ قلّة المعرفة بالله عزوجل؛ فيقول : ((استهانتك بأولياء الله عزوجل مِنْ قلّة معرفتك بالله عزوجل))[٤]، ومِنْ هذا النص يظهر أنّ الاعتراض على الأولياء كان موجوداً في عهده رضي الله عنه، وقد تصدّى للمعترضين وبيّن لهم أنّ الاستهانة بأولياء الله إنّما هي استهانة بالذي أكرمهم بالولاية، ورضي عن فعلهم .

❊ ❊ ❊

(١) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٥٨ .
(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢ .
(٣) البيت مِن قصيدة للشيخ عبد القادر ومطلعها (رفعتُ على أعلى الورى) . ديوان الشيخ عبدالقادر .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٦٠، المجلس (١٢) .

المبحث السادس

وفاتُه

أجمع المؤرِّخون أنّ الشيخ عبد القادر الجيلاني توفي ليلة السبت العاشر من ربيع الآخر، وقيل: الثامن، وقيل : الحادي عشر ربيع الآخرة سنة (٥٦١هـ) الموافق (١١٦٦م) وقال ابن ماكولا : توفي الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد في ليلة السبت التاسع من ربيع الثاني سنة (٥٦١هـ).))[١]، في عهد الخليفة العباسي المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله (٥١٨هـ - ٥٦٦هـ) ودفن بمدرسته بباب الأزج ببغداد ليلاً لكثرة الزحام عليه، وكان عمره واحداً وتسعين عاماً؛ قضاه - رحمه الله تعالى - داعياً إلى منهج الحق مرشداً وهادياً آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، منادياً إلى الخير والنور، منذراً من عاقبة السوء، حاملاً لواء العلم والإرشاد والمعرفة، لبَّى نداء ربِّه، ولحق بالرفيق الأعلى، وقال بعضهم مشيراً إلى تاريخ ولادته ووفاته وعمره :

إنّ بـازَ الله سُـلطَـانَ الـرجـال جـاء في عِـشْـقٍ ومـاتَ في كَـمَال

فكلمة (عشق) ترمز في حساب الجُمَل إلى العدد (أربعمائة وسبعين) وكلمة (كمال) ترمز إلى العدد (واحد وتسعين) وإذا ضممنا كلمة (عشق) مع كلمة (كمال) يكون الحاصل منهما (خمسمائة وواحداً وستّين) وهو تاريخ وفاته [٢] .

---

(١) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا، سعد الملك، أبو نصر (ت: ٤٧٥هـ) ٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) أنظر: فتوح الغيب بهامش قلائد الجواهر: ص ١٣٢، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ١٣٤، مجلة دعوة الحق، العدد (٤) ص ٧ .

ورثاه نصر النميري غداة دفنه بقصيدةٍ؛ كان مطلعها [١]:

مُشْكِلُ الأمر ذا الصباح الجديد ... مَا لَهُ ذاك السَّنَا المعهود

وَمَرامِي الأَبْصَار مِنْ كُلِّ قُطْرٍ ... مُظْلِمَاتٍ على النَّوَاظِر سُوْدِ

مَطْلِعُ الشمسِ فيه دَاجٍ كأنْ قد ... كُوِّرَتْ، أو أتى عليها خمود

أتُرَى حَلَّتْ المنونُ بمحيي الد ... ين حقاً، فما لِنُوره خمود

وصلّى عليه ابنُه عبد الوهاب مع مَنْ حضر مِنْ إخوته وأصحابه ومريديه، ودفن في رواق المدرسة، ولم يُفتَح باب المدرسة ذلك اليوم حتى علا النهار، وكثُر الناس للصلاة عليه وزيارته .

* * *

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٢٠٧ .

[الفصل الثالث]

حياته العلمية

ويشتمل على تمهيد وخمسة مباحث :

* التمهيد : رحلته إلى بغداد وطلبه للعلم .
* المبحث الأول : شيوخه وتلاميذه ومعاصروه .
* المبحث الثاني : مجلسه وتدريسه .
* المبحث الثالث : مؤلفاته .
* المبحث الرابع : ثناء العلماء عليه .
* المبحث الخامس : أشهر الكتب المؤلَّفة في حقِّه .

تمهيد

رحلته إلى بغداد وطلبه للعلم

دخل الشيخ عبد القادر الجيلاني بغداد، وتعرّض فيها في أول حياته للفاقة والجوع والحرمان؛ حتى كان يقتات أحياناً من حواشي الأنهار، ويمشي على الشوك حافياً، وينام في البراري والخرب، وكانت تحدِّثُه نفسه أنْ يترك بغداد إلى غير رجعة، ثمّ لا يلبث أنْ يعود عن عزمه ويقول: لابدّ مِنْ إكمال الطريق، وبلوغ الهدف الذي جئتُ من أجله [١] .

استمرّت مدّة دراسته ثلاثاً وثلاثين سنة، وذلك من سنة (٤٨٨هـ) إلى سنة (٥٢١هـ) لا نرف فيها عنه الكثير؛ لأنّه أمضى قسماً كبيراً منها بعيداً عن الناس .

دخل الشيخ عبد القادر بغداد وهو في سنِّ الثامنة عشرة، وهو لا يعرف أحداً، ولا يملك من حطام الدنيا سوى أربعين ديناراً، ولكنّه كان يملك عقيدةً ثابتةً، وأخلاقاً ساميةً، وهدفاً حَمَلَه من (جيلان) وهو أنْ يصبح عالِماً عاملاً داعياً إلى دين ربِّ العالمين .

في هذا العصر كانت بغداد تحتضن كثيراً من علماء المسلمين؛ كالإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، والراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) صاحب كتاب (المفردات في غريب القرآن)، وأبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت: ٤٦٥هـ) صاحب (الرسالة القشيرية) في علم التصوف، ونجم الدين أبو حفص النسفي صاحب كتاب (التيسير)، والواحدي (ت: ٤٦٨هـ) صاحب كتاب (البسيط والوسيط والوجيز)، والزمخشري (٥٣٧هـ) صاحب كتاب (الكشاف)، وكان قد ظهر الإمام أبو الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، والباقلاني (ت: ٤٠٣هـ)، والشهرستاني من علماء الكلام (ت: ٥٤٨هـ)، وجملة من الفلاسفة : كابن سينا (ت: ٤٢٨هـ)، والماوردي (ت:

---

(١) ينظر، ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ٢٠٣ – وما بعدها .

٤٥٠هـ) صاحب كتاب (الأحكام السلطانية)، وكانت هذه المؤلَّفات متوفرة تتناولها الأيدي .

وعند وصول الشيخ عبد القادر إلى بغداد؛ تبدأ مرحلة جديدة في حياته العلمية؛ كرَّسها وأوقفها للدرس والبحث عن الحقيقة من خلال زهده؛ متحدِّياً فيها كلّ ما يعرقل مسيرته؛ فقد كانت إرادته قوية بحيث لم يثنه شيء عن عزمه، وانهمك في طلب العلم .

قال أبو البركات الشهرزوري : سمعتُ الشيخ عبد القادر الجيلي؛ ينشد على كرسي وعظه هذا البيت [(١)] :

ألَيسَ مِنَ الخسرانِ أنَّ لَيَالياً تَمُرُّ بلا نَفْعٍ فَتُحْسَبَ مِنْ عُمْرِي

لقد قاسى الشيخ عبد القادر الجيلاني ما كان يقاسيه طلبة العلم في ذلك العصر المليء بالأحداث؛ بيد أنّ العناية الإلهية كانت قد منحته عقلاً راجحاً، وصبراً وهِمَّةً عالية، فاستطاع بهذه السجايا أنْ يصبر على الشدائد، ويدلِّل الصعاب؛ فلم يتزعزع، ولم تفتر عزيمته عن طلب العلم، فقد تلقَّى علومَه ومعارفه العلمية والدينية على يد أساتذة أكفاء وهُم أساطين ذلك العصر [(٢)] .

وتنوّعت علوم الشيخ عبد القادر ومعارفه؛ حيث كانت دراسة شاملة جامعة بين الأصول والفروع من العلوم العقلية والنقلية، وأخذها عن ثقات أهل العلم والنقل؛ ممّن عُرِفوا بالديانة والتقوى والتمسُّك بقانون السلف من حُسن السمت والمروءة والصدق والإمامة في العلم والحفظ والرئاسة في التقوى والفتوى؛ فأخذ عنهم العلم وصحبهم، وتخلَّق بأخلاق الكثيرين منهم؛ لما رأى فيهم الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة؛ فأحبَّهم في الله، وأحبُّوه؛ لما رأوا فيه مِنْ نهم الطالب المُجِدّ الصادق المحب للعلم، فكان كلُّ واحد منهم؛ يودُّ لو أنّ العلم كان لقمة واحدة؛ ليلقمها لعبد القادر الجيلاني، ولذلك لم يبخلوا عليه بفائدة علمية وتوجيه نافع؛ ليأخذ مكانه فيما بعد في قيادة المجتمع وإصلاحه، والنهوض به إلى الكمال المُقَدَّر له، والملاحَظ

---

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٤٠ .

(٢) أنظر: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل: عبد الفتاح أبو غدة، ص ٧٥ – ٧٦ .

: أنّ جُلَّ مشايخه هم أئمة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وتلاميذ مدرسته الفقهية والعقيدية، وبرع في الأصول وفقهه حتى صار مرجع المسلمين في العلم والفتوى، وأصبح ذا سلطان بين الفقهاء ومشايخ التصوف من أهل الولاية والمعرفة، وهو مِنْ المشايخ المذكورين بين علماء الحنابلة فقهاً وعلماً وتدريساً وتأليفاً وفتوى، فقد ذكره ابن رجب الحنبلي – فيمن ترجم له – في (المائة السادسة)، في كتابه الموسوم (ذيل طبقات الحنابلة) وعدَّه الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي من أعيان (الطبقة الثامنة) من فقهاء الحنابلة، وعرّف به في ترجمة موجزة في كتابه (المنتظم). والترجمة الموجزة – هنا – لا تدلُّ على بُغض ابن الجوزي للشيخ عبد القادر الجيلاني، كما ذكر ذلك شمس الدين الذهبي[1]، فكثيراً ما كانت تراجم ابن الجوزي للكثيرين مِن العلماء في كتابه (المنتظم) موجزة .

وكان مِن بعض مقاصد هذه الرسالة بيان مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأنّه واحد مِن أئمة العلم والذكر والمعرفة؛ شارك علماء عصره في علومهم ومعارفهم، وتفرّد من بين الكثيرين منهم بمنهجه التربوي السلوكي والإصلاحي؛ حتى أذعن له أهل زمانه من الفقهاء والوعّاظ والمحدِّثين وعلماء الأصول فيهم؛ بأنّه أهلٌ لهذه الرتبة الصعبة ألا وهي قيادة الخلق إلى الخالق عزوجل، والصبر عليهم والرحمة والشفقة بهم، ونقصر في بيان مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلميّة طالباً ومطلوباً، تلميذاً وأستاذاً، ولا نوفيه حقَّه مهما أطنبنا وأطلنا في بيان تحصيله العلم ونشره وتدريسه العلوم، والرجال تُعرَف بآثارها، والمغمورون كثير، وإذا صحَّت البداية صحَّت وسلمت النهاية، ولقد صحّت بداية الشيخ عبد القادر الجيلاني بشهادة العدول الثقات من علماء عصره من رجالات العلم والفكر والذكر، كما مرّ بيان ذلك في مواضعه من هذه الرسالة .

فقد تلقَّاه عن الأئمة العدول الثقات وأصحاب الرئاسة الدينية والعلمية في كلِّ صنف من أصناف العلوم، وإليك بيان ذلك :

---

(١) تكملة إكمال الإكمال: ابن الصابوني، هامش ص ٣٥٩ – ٣٦٠ .

المبحث الأول

شيوخه وتلاميذه ومعاصروه

أ- شيوخه .

أولاً : شيوخه في الفقه :

١. الشيخ أبو الخطاب، محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني البغدادي الحنبلي، أحد أئمة المذهب وأعيانه، ولد سنة (٤٣٢هـ) وكان صحيح الاعتقاد، مفتياً، فاضلاً، عالماً، عاملاً، كثير الحفظ، غزير الفضل، حسن المجاورة، محبوب المجالسة، مأمون الصحبة، ميمون النقيّة (السجيّة) في المحبّة كرخي اللطافة مِنْ أهل الأدب والظرافة، صنّف كتباً في المذاهب والأصول، وكان يقول الشعر، سريع الجواب، حادّ الخاطر، قرأ عليه عدد مِنْ أئمة الحنابلة الفقه، منهم : الشيخ عبد القادر، ومن كتبه (الهداية) في الفقه (ت: ٥١٠هـ) [1] .

٢. أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد الحنبلي، ولد سنة (٤٣١هـ) من أهل بغداد، كان شيخ الحنابلة في عصره، وعلاّمة الفضل في وقته، صحيح الاعتقاد، مليح الانتقاد، أحد عظماء الحلّة وأذكياء البشر، استولى على عقول الفحول، وأطالوا الثناء عليه؛ فقال أبو إسحاق الشيرازي : هو إمام الدنيا وزاهدها، وفارس المناظرة، وقال الحافظ السِلَفي : ما رأيتُ مثله وما كان أحدٌ يقدر أنْ يتكلّم معه لغزارة علمه، وبلاغة كلامه، وقوّة حجّته، وقال الحافظ الذهبي : كان إماماً مُبرزاً، كثير العلوم، خارقَ الذكاء، مكبّاً على الاشتغال والتصنيف، عديم النظير، وصنّف أضخم موسوعة إسلامية على الإطلاق تتمثّل في كتابه الكبير (الفنون) والذي يبلغ ثمانمائة مجلد؛ لخّصها أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في

(١) أنظر : ذيل طبقات الحنابلة، ١/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

أحد عشر مجلداً، (ت: ٥١٣هـ) [١] .

٣. قال ابنُ رجب : ((وقيل : إنّه قرأ – أيضاً – على : ابن عقيل، والقاضي أبي الحسين، وبرع في المذهب، والخلاف في الأصول، وغير ذلك))[٢] .

٤. الشيخ أبو سعد المبارك بن علي المخرمي المخزومي – رحمه الله –، ولد سنة (٤٤٦هـ) تفقه على: يد القاضي أبي يعلى، وأبي جعفر بن موسى، ويعقوب بن سطور البرزبيني، ولازمهم حتى ساد، وأفاد، بنى مدرسة علمية بباب الأزج، ثمّ درّس فيها تلميذه ومريده عبد القادر، كان المخرمي نزيهاً، عفيفاً، نابَ في القضاء، وحصّل كتباً عظيمة، وفُتِحَت عليه الدنيا، بنى داراً وحمّاماً وبستاناً، وحدّث عن: أبي جعفر بن المسلمة، وأبي الغنائم بن المأمون، وتفقّه عليه كثيرٌ من الناس (ت: ٥١٣هـ) [٣] .

٥. قال ابن رجب : ((تفقه عبد القادر على : القاضي أبي سعد المخرمي، وأبي الخطاب الكلوذاني))[٤] .

٦. الشيخ أبو الحسين، محمد بن محمد بن الحسين بن محمد الفرّاء، المعروف بابن أبي الحسين، القاضي أبي يعلى – رحمه الله –، ولد سنة (٤٥١هـ)، (ت: ٥٢٦هـ)[٥] .

٧. وهؤلاء الفقهاء الأعلام في المذهب الحنبلي هم بعض مَنْ قرأ عليهم الشيخ عبد القادر الفقه، ولا يُراد من طالب العلم إلاّ حسن الاختيار والانتقاء فيمَن يأخذ عنهم العلم والفقه .

٨. والزمن لا يُسعِف طالب؛ أنْ يأخذ عن الكثيرين، ولذلك اقتصر الشيخ عبد القادر على أفاضل وأماثل علماء المذهب المعتَمَدين فيه؛ المأمونين في الفتوى والتقوى .

---

(١) أنظر : المصدر نفسه، ١/ ٣١٦ – وما بعدها .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٠ .

(٣) أنظر: المصدر نفسه، ١/ ٣٦٣ .

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ١٩٠ .

(٥) أنظر : المصدر نفسه، ١/ ٣٩١ .

ثانياً : شيوخه في الحديث النبوي الشريف :

١. الشيخ أبو الحسين، المبارك بن عبد الجبار بن أحمد بن القاسم بن أحمد الصيرفي، المعروف بـ (ابن الطيوري) ولد سنة (٤١١هـ) وهو من المعدودين في جملة شيوخ عبد القادر؛ الذين أخذ عنهم الحديث وغيره سماعاً وروايةً، كان صالحاً، أميناً، صدوقاً، صحيح الأصول، ديِّناً، صيِّناً، وقوراً، كثير الكتابة، كان عنده ألف جزء بخط الدارقطني (ت: ٥٠٠هـ)[١] .

٢. الشيخ أبو سعيد، محمد بن عبد الكريم بن محمد بن خشيش الكاتب، ولد سنة (٤١٤هـ) سمع: أبا علي بن شاذان، كان ثقةً، صحيح السماع (ت: ٥٠٢هـ)[٢].

٣. الشيخ أبو البركات، هبة الله بن المبارك بن موسى السقطي، ولد سنة (٤٤٥هـ) (ت: ٥٠٩هـ)[٣] .

٤. الشيخ أبو محمد، جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج، المحدِّث الأديب المقرئ، ولد سنة (٤١٧هـ) (ت: ٥٠٩هـ)[٤] .

٥. الشيخ أبو الغنائم، محمد بن علي بن ميمون بن محمد النُرسي الكوفي، ولد سنة (٤٢٤هـ) (ت: ٥١٠هـ)[٥] .

٦. الشيخ أبو طالب، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادي، ولد سنة (٤٣٦هـ) (ت: ٥١٦هـ)[٦] .

---

(١) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١٠٥ – ١٠٦، وشذرات الذهب: ابن العماد، ٥/ ٤٢٦ – ٤٢٧ .

(٢) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١١٣، وشذرات الذهب لابن العماد، ٦/ ٩ – ١٠ .

(٣) أنظر: ذيل طبقات الحنابلة، ١/ ١٦٥ – ١٦٦، والمنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١٤٤، وشذرات الذهب لابن العماد، ٦/ ٤٢ – ٤٣ .

(٤) أنظر: ذيل طبقات الحنابلة، ١/ ٢٣١ – وما بعدها، والمنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١٠٢ – وما بعدها، والعبر في خبر من غبر : الذهبي، ٢/ ٣٨٠ .

(٥) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١٥٠ – وما بعدها، والعبر للذهبي، ٢/ ٣٩٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ٥/ ٢١٢ .

(٦) أنظر: العبر للذهبي، ٢/ ٤٠٧، وشذرات الذهب لابن العماد، ٦/ ٨١،

٧. الشيخ إسماعيل بن محمد الأصبهاني، ولد سنة (٤٥٩هـ) (ت: ٥٣٥هـ)[١] .

٨. الشيخ أبو بكر، أحمد بن المظفر بن سُوسن التمار (ت: ٥٥٣هـ)[٢] .

٩. الشيخ أبو غالب، محمد بن الحسن الباقلاني، ولد سنة (٤٠١هـ) كان شيخاً صالحاً، صبوراً على سماع الحديث، (ت: ٥٠٠هـ) [٣] .

١٠. أبو القاسم، علي بن أحمد بن محمد بن بيان الكرخي، ولد سنة (٤١٣هـ) (ت: ٥١٠هـ) [٤] .

١١. أبو زكريا، يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي الأصبهاني، ولد سنة (٤٣٤هـ) كان حافظاً، ثقةً، فاضلاً، مُكثِراً، صدوقاً، كثير التصانيف، حسن السيرة، بعيد التكلُّف، وقد أخذ عنه الشيخ عبد القادر الجيلاني الحديث (ت: ٥١٢هـ) [٥] .

* **ثالثاً : شيوخه في اللغة والأدب :**

أخذ الشيخ عبد القادر اللغة والبلاغة والأدب عن عالِم العراق الإمام الجهبذ أبي زكريا يحيى بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي الأديب (ت: ٥٠٢هـ).

وإنَّما اكتفى الشيخ عبد القادر بالدراسة على التبريزي في اللغة والأدب لأنَّه كان مِن المتفردين في هذا العلم، وكان هذا شأنُ كثيرٍ مِن الطلبة الاكتفاء بالأستاذ الواحد في المادة التي برز فيها وبز فيها أهل عصره .

---

(١) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٨/ ١٠، وشذرات الذهب لابن العماد، ٦/ ١٧٤ .

(٢) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١١٨، والعبر للذهبي، ٢/ ٣٨٥ .

(٣) أنظر: العبر للذهبي، ٢/ ٣٨٠، وشذرات الذهب لابن العماد، ٥/ ٤٢٦ .

(٤) أنظر: المنتظم، ١٧/ ١٤٧ – ١٤٨، وشذرات الذهب لابن العماد، ٤/ ٢٦ ،

(٥) أنظر: المنتظم لابن الجوزي، ١٧/ ١٦٩ – ١٧٠، وذيل طبقات الحنابلة، ١/ ٢٩٠، وشذرات الذهب لابن العماد، ٦/ ٥٢ .

* **رابعاً: شيوخه في التصوف والسلوك:**

حماد بن مسلم، أبو عبد الله الدباس الرحبي الزاهد القدوة (ت: ٥٢٥هـ).

بعد أنْ برع الشيخ عبد القادر في العلوم والمعارف مِن بعد ما أخذها عن أهلها الموثوق بهم، نزعت روحه إلى مصاحبة أفراد مِن الناسكين والعابدين مِن رجال العلم والذكر، فصحب الشيخ أبا عبد الله حماد بن مسلم الدباس الرحبي الزاهد القدوة (ت: ٥٢٥هـ) فحبب إليه الشيخ الدباس المجاهدات والرياضات الروحية والبدنية، وكان الشيخ حماد بن مسلم الدباس قدوةً لمشايخ بغداد في التربية والسلوك، ومِن هنا بدأ الشيخ عبد القادر حياة المجاهدة تحت رعاية المؤدبين والمربين، وهذا مِن لازم الطريق.

والشيخ عبد القادر الجيلاني بعد تحصيله العلوم والمعارف مِن فقه وحديث وأصول، وبعد تبحُّره في علوم القوم مِن مشايخ الصوفية لا يخشى عليه مِن صحبة أُناس قيل عن بعضهم: أنَّهم أُمِّيون لا يكتبون[١]، غير أنَّ الله عزوجل أكرمهم وعلَّمهم ونوَّر بصائرهم، وما يدرينا أنَّه بصحبته لهم؛ قد أفادهم، كما أنَّه أفاد عنهم ومنهم.

والشيخ حماد الدباس الرحبي، رغم أُمِّيَّته إلاَّ أنَّه سمع الحديث[٢]، وكان يقتفي أثر السلف الصالحين فيما يسمع عنهم، وفيما يسمع منهم مِن روايات عن خير البشر سيدنا محمد ﷺ، فقد شهد له معاصروه بأنَّه مِن أصحاب الكرامات والأحوال والمكاشفات صحبه الكثيرون، وكان مِن مشاهير أصحابه الشيخ عبد القادر، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: لقد اقترن اسمه باسم صاحبه ومريديه عبد القادر الجيلاني، فالإمام الذهبي حين عرَّف به في (العبر) قال: ((وهو شيخ الشيخ عبد القادر)) ووصفه بالزاهد والقدوة، وأنَّه كان شيخ العارفين في زمانه[٣].

---

(١) أنظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم: ابن الجوزي، ١٧/ ٢٦٦، والعبر في خبر مَن غبر: الذهبي، ٢/ ٤٢٥.

(٢) أنظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم: ابن الجوزي، ١٧/ ٢٦٦.

(٣) أنظر: العبر: الذهبي، ٢/ ٤٢٥.

ومِن هذا نقول : صحَّ للشيخ عبد القادر الجيلاني صحبة هؤلاء القوم، وهذا الفرد منهم[١] .

والشيخ أبو سعد المبارك بن علي المخرمي المخزومي الفقيه هو مِن المعدودين في شيوخ عبد القادر في التصوف والتربية والسلوك[٢] .

ب- تلاميذه :

لقد كان الشيخ عبد القادر أستاذاً دَرَسَ على يديه طالبو العلم، وعندما نتكلم على تلاميذه نقول: إنَّ جملة الذين درسوا على يديه كانوا يمثلون فريقين: الفريق الأول: تتلمذ عليه علماً، فأخذ عنه العلوم على اختلاف صنوفها ومواضيعها، ومذاهبها، وأصولها، وآدابها، وهؤلاء هم تلاميذه .

الفريق الثاني: تربَّى عليه، فأخذ عنه التصوف والزهد، ولبس الخرقة، وهم مريدوه الذين تعلَّقوا به، فأصبحوا مِن أتباعه المنتسبين إليه، وإليهم يرجع الفضل - أيضاً - في نشر طريقته الصوفية في العالَم الإسلامي، وهناك اتِّجاه آخر مِن تلاميذه؛ جمعوا بين العلم والتصوف؛ فأصبحوا مِن أتباعه والمنتسبين إليه؛ ومنهم:

١. الفقيه الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ولد بقرية (جماعيل) وهي مِن قرى بلاد الشام قرب نابلس في شهر شعبان سنة (٥٤٠هـ) وقام بتصنيف عدد مِن الكتب، سمع مِن الشيخ أبي المكارم عبد الواحد بن محمد الأزدي، وعندما بلغ العاشرة مِن عمره قدم مع أهله إلى دمشق، وحفظ (مختصر الخرقي)، وسمع مِن علماء دمشق، ثم رحل مِن دمشق إلى بغداد؛ حيث تفقَّه بها على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وسمع مِن الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومِن الشيخ هبة الله الدقاق، وتفقه على ابن المنى؛ حتى فاق أقرانه، وحاز قصب السبق، وانتهت إليه معرفة المذهب وأصوله . كان زاهداً تقيّاً، عليه هيبة ووقار، وكان حليماً ورعاً، درس في مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني،

---

(١) أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٢ - ١٦ .

(٢) تقدمت ترجمته في شيوخه في الفقه ص ١٠٣ .

مع ابن خالته عبد الغني المقدسي، وكان – رحمه الله – منشغلاً بالعبادة، وعمل الخير، ودراسة الفقه والعلوم، وقد وصفه سبطه ابنُ الجوزي بقوله: ((مَن رآه كأنَّه رأى بعض الصحابة))[١]، وكان صاحب كرامات، وقد صنَّف في الأصول والفروع والفقه والحديث والزهد واللغة، ومِن مؤلفاته : (المغني) كتاب في الفقه الحنبلي، و(منهاج القاصدين) و(مختصر العلل) و(الكافي) و(المقنع) و(فضائل الصحابة) و(البرهان في مسألة القرآن) وكتاب (القدر وذم التأويل) . توفي في عيد الفطر في دمشق سنة (٦٢٠هـ)، ودفن بسفح جبل قاسيون[٢] .

٢. الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي: التقى الشيخ عبد القادر في موسم الحج عند جبل عرفات، ولبس منه خرقة التصوف، وسمع جزءاً مِن مروياته، ثمَّ رحل إلى مصر، واستوطن فيها، وأصبح مرشداً، وانتهت إليه تربية السالكين، وانتمى إليه جلَّةٌ مِن العلماء، وقد أثنى عليه المشايخ، توفي سنة (٥٦٤هـ) وقد جاوز السبعين، ودفن شرقي قبر الإمام الشافعي محمد بن إدريس في مصر، ومِن تلاميذه محمد بن عبد الله المقري، وأحمد ميسرة الحنبلي المصري[٣] .

٣. الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج الشامي الجبائي، ولد سنة (٥٢١هـ) وسئل عن نسبه ؟ فقال: نحن مِن قرية؛ يقال لها: (الجبة) مِن ناحية بسرى مِن أعمال طرابلس، وكنَّا قوماً نصارى، فتوفي أبي ونحن صغار، وكان أبي مِن علماء النصارى، وهم يعتقدون فيه أنَّه يعلم الغيب، فلمَّا مات نفذتُ إلى المعلم، فقالت والدتي: الكبير للكسب

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، ٣/ ٢٨٤ .

(٢) أنظر: العبر: الذهبي، ٣/ ١٨٠، وسير أعلام النبلاء: الذهبي، ٢٢/ ١٦٥، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان: اليافعي، ٤/ ٣٨، وفوات الوفيات: محمد شاكر صلاح الدين، ٢/ ١٥٨، وذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ٣/ ٢٨١، وشذرات الذهب: ابن العماد، ٥/ ٨٧ .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، ٢/ ٢٢٢، والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد : ابن مفلح، ٢/ ٢٠٠، والطبقات الكبرى: الشعراني، ١/ ١٢٨، والأعلام: الزركلي، ٤/ ٢١٤ .

وعمارة أرضنا، وولدي الصغير يضعف عن الكسب، وأشارت إليَّ، ولنا أخٌ أوسط، فقال المعلم : أمَّا هذا الصغير يعنيني فما يتعلم، ولكن هذا، وأشار إلى أخي، فأخذه وعلَّمه؛ ليكون مقام أبي، فقدَّر الله أنْ وقعت حروب، فخرجنا مِن قريتنا، فهاجرت مِن بينهم، وكان في قريتنا جماعة مِن المسلمين يقرأون القرآن، وإذا سمعتهم أبكي، فلمَّا دخلتُ أرض الإسلام أسلمتُ وعمري بضعة عشرة سنة، ثمَّ بلغني إسلام أخي الكبير، وتوفي مرابطاً، ثمَّ أسلم الذي كان يعلِّمه المعلم، ودخلتُ بغداد في سنة (٥٤٠هـ) وكان يحكى عنه كثير مِن أحوال كراماته . صحب الجبائي الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكان زاهداً مِن أهل الصلاح، وانقطع إلى العبادة، وكان ورعاً، تفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقال ابن الحنبلي: "كان للشيخ عبد الله مكانة مرموقة في بغداد، وموضع تقدير، وكذلك في أصبهان؛ حيث كان يقوم له الناس إجلالاً لعلمه، وكان له رياضات ومجاهدات"، وعندما توفي الشيخ عبد القادر الجيلاني سافر إلى أصفهان، وتوفي بها في الثالث مِن جمادى الآخرة سنة (٦٠٥هـ)[١] .

٤. الشيخ عمر بن محمد بن عبد الله، أبو حفص القرشي التيمي السهروردي، ولد ببغداد سنة (٥٣٩هـ) صحب عمَّه أبا النجيب السهروردي[٢]، أخذ عنه التصوف والوعظ؛

---

(١) أنظر: إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا) : محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (ت: ٦٢٩هـ) ٢/ ٢٠٢، وذيل تاريخ بغداد: ابن الدبيثي، ٣/ ٥٣٦، وسير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢١/ ٤٨٨، والوافي بالوفيات: خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) ١٧/ ٦٩، وذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ٣/ ٨٨ – ٨٩، وشذرات الذهب: ابن العماد، ٥/ ١٤ .

(٢) عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، أبو النجيب القرشي، التيمي، البكري، السهروردي، الشافعي، الصوفي، الواعظ، شيخ بغداد. ولد في سهرورد تقريباً في سنة (٤٩٠هـ) وقدم بغداد نحو (٥١٠هـ)، فسمع من: أبي علي بن نبهان كتاب (غريب الحديث)، وسمع من: زاهر الشحامي، وأبي بكر الأنصاري، وجماعة، فأكثر، وحصل الأصول، وكان يعظ الناس في مدرسته، وحدث عنه: أبو القاسم ابن عساكر، والقاسم ابنه، والسمعاني، وخلق. قال عنه الذهبي: الشيخ، الإمام، العالم، المفتي، المتفنن، الزاهد، العابد، القدوة، شيخ

حتى أصبح قدوة أهل التوحيد، وشيخاً للسالكين، تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر الكيلاني، فبرع بالفقه والحديث والنحو والأدب، عقد مجلس الوعظ في مجلس عمِّه أبي النجيب، فحضر عنده خلقٌ كثير، ومِن شيوخه : أبو المظفر هبة الله بن أحمد بن الشبلي، وأبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد، وأبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، وأبو أحمد بن معمر بن الفاخر، وأبو القاسم يحيى بن نايف ابن بندار، وأبو بكر أحمد بن المقرب . حدَّث في بغداد ومكة المكرمة ودمشق، وبعد وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني انتهت إليه تربية المريدين ومشيخة العراق؛ قال ابن خلكان: ((كان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وعلى وعظه قبول كثير))[١]، قال له الشيخ عبد القادر: أنت آخر المشهورين بالعراق، كان يكثر مِن زيارة بيت الله الحرام للحج، ومجاورة الرسول ﷺ، توفي في أوائل شهر شعبان سنة (٦٣٢هـ) ودفن بالوردية . ومِن مؤلفاته : (عوارف المعارف) و(بغية البيان في تفسير القرآن) و(إرشاد المريدين) و(أدلة العيان والبرهان) و(الرحيق المختوم لذي العقول والفهوم) و(رسالة في السلوك) و(رشف النصائح الإيمانية) و(اعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى) و(جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب) و(اليسر والصبر)[٢] .

أشهر تلاميذه :

١. حامد، أبو حجر الحراني الخطيب، ولد سنة (٥١٣هـ) سمع من الشيخ، وقد لازمه الصحبة، توفي بحران سنة (٥٧٠هـ) .
٢. أبو السعود بن الشبل العطار الزاهد (ت: ٥٨٢هـ) .

المشايخ، (ت: ٥٦٣هـ) ودفن بمدرسته . أنظر: سير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢٠/ ٤٧٥ – ٤٧٦، وطبقات الشافعيين: ابن كثير، ص ٦٦٢ .

(١) وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٣/ ٤٤٦ .

(٢) أنظر: إكمال الإكمال: ابن نقطة، ٣/ ٥٥٥، وسير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢٢/ ٣٧٣، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ٨/ ٣٣٨، وطبقات الشافعيين: ابن كثير، ص ٨٣٥، والأعلام: الزركلي، ٥/ ٦٢، ومعجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٧/ ٣١٣ .

٣. طلحة بن مظفر بن غانم العلثي (ت: ٥٩٣هـ) .

٤. شعيب، أبو مدين المغربي (ت: ٥٩٤هـ) .

٥. أبو القاسم بن أبي بكر أحمد بن أبي السعادات (ت: ٥٩٧هـ) .

٦. علي بن أبي طاهر بن إبراهيم، أبو الحسن الأنصاري (ت: ٥٩٩) .

٧. عبد الغني المقدسي (ت: ٦٠٠هـ) .

٨. الحسن بن مسلم، أبو علي، ولد سنة (٥٠٤هـ) (ت: ٥٩٤هـ) ودفن بالقادسية .

❋ **أشهر الشيوخ الذين عاصروه :**

١. بقاء بن بطو (ت: ٥٥٣هـ) .

٢. عدي بن مسافر (ت: ٥٥٧هـ) .

٣. أبو سعيد القلوبي (ت: ٥٦٣هـ) .

٤. عبد القاهر السهروردي (ت: ٥٦٣هـ) .

٥. علي بن الهيتي (ت: ٥٦٤هـ) .

٦. أحمد بن صالح الحلبي (ت: ٥٦٥هـ) .

٧. ماجد الكردي (ت: ٥٦٥هـ) .

٨. السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي (ت: ٥٧٨هـ) .

٩. الحسين، أبو عبد الله، قضيب البان (ت: ٥٧٣هـ) .

١٠. عمر بن مسعود البزاز (ت: ٦٠٨هـ) .

١١. علي بن إدريس اليعقوبي (ت: ٦١٩هـ) .

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني

مجلسه وتدريسه

لقد تحمَّل الشيخ الإمام القدوة عبد القادر الجيلاني الأمانة العلمية، وكان أحقَّ بها وأهلها، فنشر العلم والمعرفة مِن فقه، ولغة، وأدب، وأصول حديث، وتفسير، وكلُّ ذلك في دراسة نظامية، وفي مدرسة شيخه المخرمي، والذي ولاَّه عليها، وآلت إليه فيما بعد .

واتَّخذ مِن مدرسته – التي لاتزال إلى اليوم عامرة – مجالس للإرشاد العام، وللوعظ والنصح، وهذه المجالس يقلُّ أصحابها، ويكثرون، وما يقال فيها فهو ممَّا تحتاجه عامة المسلمين والمسلمات، ولاشك أنَّ للشيخ عبد القادر في هذه المجالس أصحاباً ومريدين مِن التائبين والذاكرين، ومِن الذين أسلموا مِن أهل الكتاب، كما كان يحضر مجالس وعظه وإرشاده أقرانه وتلاميذه؛ لأنَّهم رأوا عنده مِن العلم والمعرفة والفقه بأمراض القلوب والنفوس ومعرفة دواء كلِّ ما لم يجدوه عند غيره، فلازمه الكثيرون؛ فانتفعوا بمعاني وعظه، وأنفاس روحه – رحمه الله – .

ولاشك أنَّ العلم والمعرفة ينموان بالتدريس والتعليم، ويترعرعان بتفاعل العالم، مع أهل زمانه ومَن حوله مِن الناس .

والعالم المفيد : هو الذي يعطي الناس مِن علمه ووقته، هو الذي يأخذ ويعطي للأجيال والأمصار في حياته وبعد وفاته .

ومجالس الإرشاد العام لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن مدرسة الشيخ النظامية، إنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني استطاع مِن خلال مجالس الوعظ والإرشاد العام أنْ يحافظ على بقاء الفكر والاتجاه موحداً لدى جمهور المسلمين؛ فإنَّه إذا توحدت الأُمَّة في فكرها ومنهجها العبادي والعملي

والسلوكي انحسر الخلاف بينها إنْ لم ينعدم، وحفظت الأُمَّة مِن التفرق، وصلح حالها، واستقرَّ أمرها، وارتاح بالها، وأصبحت الأُمة بهذا التجمع والتآزر والتوافق قوية، بل وشوكة في عيون أعدائها .

والشيخ عبد القادر الجيلاني حين جلس للناس مرشداً عاماً، ومربياً وقائداً موجِّهاً للمسلمين، واستجاب له الناس، وسارعوا إلى مجالسه انحسر أهل الزيغ والضلال مِن الذين كان يتصدَّى لهم ويصوِّب سهام وعظه إليهم، وهو بذلك قد أكسب المسلمين قوة ووحدة أمام أهل الباطل ممَّن كانت لهم صيحات وهيشات؛ فخذلوا واندحروا، ومَن يقرأ كتاب (الغنية) أو (الفتح الرباني) يجد الفارس المترجل الذي يقول لأهل الباطل : هل مِن مُنازِل ؟ سواء في ميدان القتال أو في ميدان الاعتكاف والمنهج العبادي، فله في هذا وذاك صولات وجولات .

نعم قد يكون الشيخ ظهر للناس أنَّه مِن الوعَّاظ والمُصلحين أكثر منه عالماً ومدرِّساً للعلوم، أو يكون هذا هو الشيء العالق في أذهان الناس عموماً .

ولكن المراجِع والمصادر التاريخية قد ذكرت الشيخ بصفة المدرس الفقيه العالِم بالأصول والمذهب والخلاف، والأدب، وأنَّه بعد وفاة شيخه أبي سعد المخرمي تصدَّر للتدريس والفتوى بمدرسة باب الأزج، أولها سنة (٥٢٨هـ) وآخرها سنة (٥٦١هـ)[١] .

وقال الكتبي في (فوات الوفيات) : ((...، ثمَّ جلس في مدرسة أبي سعد للتدريس والفتوى سنة ثمانٍ وعشرين – أي: وخمسمائة –، وصار يقصد بالزيارة))[٢] .

وقال التادفي: ((وكلت المدرسة في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وصارت منسوبة إليه، وتصدَّر بها للتدريس والفتوى والوعظ مع الاجتهاد في العلم والعمل))[٣].

(١) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٩٥ .

(٢) فوات الوفيات: محمد شاكر صلاح الدين، ٢/ ٣٧٤ .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٥ .

وقال ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب) كلاماً مثل هذا أو قريباً منه[١] .

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: ((وكان رضي الله عنه يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكانوا يقرءون عليه في مدرسته درساً من التفسير، ودرساً من الحديث ودرساً من المذهب، ودرساً من الخلاف، وكانوا يقرءون عليه طرفي النهار التفسير، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأصول، والنحو وكان رضي الله عنه يقرأ القرآن بالقراءات، بعد الظهر. وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب فيقولون: سبحان من أنعم عليه))[٢] .

وقد أُلقي إليه سؤال في رجل حلف بالطلاق الثلاث إنه لابدَّ أنْ يعبد الله عزوجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فماذا يفعل من العبادات فأجاب على الفور يأتي مكة ويخلي له المطاف، ويطوف سبعاً وحده، وينحل يمينه فأعجب علماء العراق، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها[٣] .

*** منهجه في التدريس :**

كان الشيخ الإمام القدوة عبد القادر يجلس للتدريس في أيام معيَّنة مِن الأسبوع، كما أخبر بذلك ولده عبد الوهاب بقوله : ((كان والدي رضي الله عنه يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة : بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد، وقال الشريف أبو عبد الله محمد بن الخضر الحسيني: سمعتُ أبي يقول: كان سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يتكلَّم في ثلاثة عشر علماً، وكان يذكر في مدرسته درساً مِن التفسير، ودرساً مِن الحديث، ودرساً مِن المذهب، ودرساً مِن الخلاف، وكان يُقرأ عليه طرفي النهار التفسير، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأصول، والنحو، وكان يقرأ القرآن بالقراءات، بعد الظهر))[٤] .

---

(١) أنظر: شذرات الذهب: ابن العماد، ٤/ ١٩٨ .

(٢) الطبقات الكبرى : الشعراني، ١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى : الشعراني، ١/ ١٠٩ .

(٤) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١١٨، والدر الفريد في إحياء طريقة الجنيد : الشيخ محمد سعيد الكردي،

والظاهر أنَّ الشيخ عبد القادر كان يتولى التدريس وحده في مدرسة باب الأزج؛ إذ لم يذكر الإخباريون والمترجمون لحياته العلمية أنَّه شاركه في التدريس المعيدون؛ كما هو الحال في كثيرٍ مِن المدارس العلمية النظامية، منذ ذلك الوقت وإلى هذا الأوان .

ولعل الشيخ عبد القادر أراد أنْ لا يتشتت أمر الطلبة في التوجيه والتعليم، فرأى أنْ يقصرهم عليه، ولم يحوجهم إلى الانتقال إلى غيره، ولاسيما وأنَّ بعض الحنابلة في عصره قد خرجوا عن المذهب، وأشغلوا العامة بمسائل الصفات وتأويلاتها .

وكان ملتزماً برسم الواقف، فلم يخرج مِن مدرسته ويترك التدريس فيها، وإنَّما كان خروجه يوم الجمعة، فيغادرها إلى المسجد الجامع أو إلى رباطه [1] .

ويذكر عنه أنَّه حضر مرَّةً المدرسة النظامية فألقى فيها محاضرة على جمع مِن الفقهاء؛ تكلَّم فيها عن القضاء والقدر، ولكنه كان يؤثِر البقاء في مدرسته ورباطه[2] .

*** مجالسه للوعظ والإرشاد العام :**

قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي البغدادي: ((...، فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت فضاقت مدرسته بالناس فكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت)) [3] .

ويتحدَّث ابن الوردي عن بداية مجالس الشيخ للوعظ والإرشاد العام قائلاً : ((كَانَ يجلس لوعظه رجلَانِ وَثَلَاثَة، ثمَّ تسامعوا وازدحموا فَجَلَسَ فِي الْمصلى بِبَاب الحلبة ثمَّ ضَاقَ بهم الوسع فَحمل الْكُرْسِيّ إِلَى خَارج الْبَلَد وَجعل فِي الْمصلى وَجَاء النَّاس على الْخَيل وَالْبِغَال وَالْحمير

ص ٩٤، وأنظر: الطبقات الكبرى : الشعراني، ١/ ١٠٩ .

(١) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١٢ .

(٢) أنظر: المصدر نفسه، ص ١٢ .

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، ١٨/ ١٧٣ .

وَالْجهال يقفون بمدار الْمجْلس كالسور))[١] .

وكان يحضر مجالس وعظه العلماء والفقهاء ومشايخ الصوفية[٢]، ومع الألوف مِن عامة الناس؛ إذ كان واعظاً؛ يرسل وعظه مِن أعماق قلبه، وكان حديثه بليغاً بكلِّ ما في البلاغة مِن معنى دون أنْ يتكلَّف في استعمال فنون السجع السائد في عصره .

ويصف بعض المعاصرين فيما حكاه الشطنوفي طبيعة مجلس وعظ الشيخ الجيلاني بقوله : ((وكان له نقباء؛ يجلسون على مراقي سُلَّم كرسيِّه الكبير الذي اتَّخذه للوعظ، وكانوا يجلسون أزواجاً على كلِّ مرقاة منهم اثنان على عادة كبار الوُعَّاظ في عصره، وكان يقرأ القرآن الكريم في مجلسه بلا ألحان، ولكن بقراءة مجودّة وهي القراءة المفضَّلة في المذهب الحنبلي، ثم يبدأ بالوعظ، فقد روى أبو عبد الله محمد ابن الْخضر الْحُسَيْنِي الْموصِلِي أَنَّه قال: سمعتُ أبي يقول: كان الشَّيْخ محيي الدين عبد القادر يتكَلَّم فِي أول مَجْلِسه بأنواع الْعُلُوم وَكَانَ إِذا صعد الْكُرْسِيّ لَا يبصق أحد وَلَا يتمخط وَلَا يَتَنَحْنَح وَلَا يتكَلَّم وَلَا يقوم هَيْبَة لَهُ إِلَى وسط الْمجْلس فَيَقُول الشَّيْخ مضى القال وعطفاً بِالْحَال فيضطرب النَّاس اضطراباً شَدِيدا ويتداخلهم الْحَال والوجد، وَكَانَ يعد من كراماته أَن أَقْصَى النَّاس فِي مَجْلِسه يسمع صَوته كَمَا يسمعهُ أَدْنَاهُم مِنْهُ على كثرتهم، وَكَانَ يتكَلَّم على خواطر أهل الْمجْلس ويواجههم بالكشف. وكان إذا قام مِن فوق الكرسي يقوم الناسُ لجلالته، وإذا قال لهم: اسكتوا . سكتوا؛ حتى لم يسمع لهم سوى أنفاسُهُم هيبةً له))[٣] .

* سمات مجلس وعظه وإرشاده العام:

لقد امتاز مجلس الشيخ - رحمه الله - بروعة التنظيم، والدقَّة في الترتيب، فمجلسه له مزايا وسمات، فقد وصف ولده الشيخ عبد الجبار (ت: ٥٧٥هـ) النظام الذي كان يتبعه والده في مجلس وعظه، فذكر ((أنَّه كان يفتتح المجلس بقوله : الحمد لله ربِّ العالَمين. ثمَّ يسكت، ثمَّ

(١) تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٦٩ .

(٢) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٩٥، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ١٨ .

(٣) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٩٤، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ٧٤، وأنظر: تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٦٩ .

يقول: الحمد لله ربِّ العالَمين. ثمَّ يسكت، ثمَّ يقول: الحمد لله ربِّ العالَمين. ثمَّ يسكت، ثمَّ يقول: عدد خلقه وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته، ومنتهى علمِه، وجميع ما شاء وذرأ وبرأ، عالِمِ الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الملك القدوس العزيز الحكيم، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له مالك الملك، وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كلِّ شيء قدير، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون. اللهم اصلح الأنام والأُمة والراعي والرعية، وألِّف بين قلوبهم في الخيرات، وادفع شرَّ بعضهم عن بعض، اللهم أنت العالِمِ بعيوبنا فاسترها، وأنت العالِمِ بحوائجنا فاقضها لا ترنا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا حيث أمرتنا، ولا تنسنا ذكرك، ولا تؤمِّنَّا مكرنا، ولا تحوجنا إلى غيرك، ولا تجعلنا مِن الغافلين، اللهمَّ ألهمنا رشدنا، وأعذنا مِن شرور أنفسنا، أعزَّنا بالطاعة، ولا تذلَّنا بالمعصية، أشغلنا بك عمَّن سواك، إقطع عنَّا كلَّ قاطع يقطعنا عنك، ألهمنا ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك، ثمَّ يلتفت إلى يمينه ويقول: لا إله إلاَّ الله ما شاء الله كان لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم. ثمَّ يشير تلقاء وجهه بأصبعه ويقول: لا إله إلاَّ الله ما شاء الله كان لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم. ثمَّ يلتفت عن يساره ويقول هكذا – أي: مثل ما سبق –، ثمَّ يقول: لا تبد أخبارنا ولا تهتك أسرارنا، ولا تؤاخذنا بسوء أعمالنا، لا تحينا في غفلة، ولا تأخذنا على غِرَّة، ربَّنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا، ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين مِن قبلنا، ربَّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنَّا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. ثمَّ يتكلَّم رضي الله عنه في الوعظ والتوجيه والإرشاد، ثمَّ يختم مجلسه بالصلاة على النبي ﷺ، ثمَّ الترضِّي على الخلفاء الراشدين، والحسن والحسين، وحمزة والعباس، ثمَّ الأنصار، والمهاجرين والتابعين لهم بالإيمان والإحسان، ثمَّ يقول: جعلَنا الله وإيَّاكم ممَّن تنبَّه لخلاصه، وتنزَّه عن الدنيا، فتذكَّر يوم حشره، واقتفى آثار الصالحين، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه))[١] .

---

(١) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٩١ – ٩٣ .

ولم يتَّخذ الشيخ الإمام القدوة – رحمه الله – التدريس والإرشاد مهنةً وكسباً للمال، فالتعليم عنده عمل صالح وواجب شرعي؛ يتنزَّه مثله عن أخذ أُجرة على التعليم، وإنْ كان أخذه مشروعاً .

ولقد دفع الشيخ عن نفسه مظنة السوء به مِن أنَّه يطلب ما يطلبه غيره مِن الوعَّاظ مِن المال والمتاع؛ فقال: ((يا قوم أزيلوا التُهَمَةَ لي مِن قلوبكم؛ فلستُ بلعَّابٍ ولا طالبَ دنيا، إنَّما أقول الحقَّ، وأُشيرُ إلى الحقِّ ما زلتُ في عمري كلِّه أُحسنُ الظنَّ بالصالحين، وأخدمهم، وذلك الذي ينفعني، لا أُريد منكم أُجرةً على نُصحي لكم وكلامي عليكم، ثمن كلامي العمل به))[١] .

❊ ❊ ❊

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٥٩، المجلس (٤٢) .

المبحث الثالث

مؤلفاته

لقد صنَّف الشيخ عبد القادر عدداً مِن المصنفات التي تمتاز بالدقة العلمية والفهم السليم لأهداف الدين الحنيف، والتحليل الواقعي لعصره، ونظم كثيراً مِن القصائد، وكتبه هذه ودواوينه ذكرت في فهارس المخطوطات، ولابدَّ مِن القول أنَّ كتب التراجم القديمة لم تذكر أكثرها .

وجُلُّ هذه الآثار يتحدَّث فيها الشيخ عن السلوك والتربية وحال أهل الطريق، وهناك مكاتبات باللغة الفارسية خاطب بها تلاميذه، وسوف أتناول مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة معاً، والتي تناولها فهارس المخطوطات والمطبوعات مِن المصادر القديمة والحديثة :

١. أوراد الجيلاني: أدعية وآيات تقرأ الظهر، وتسمَّى – أيضاً – بـ(الحزب الرباني) توجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية، تحت الرقم (٥٠٨٣)[١] .

٢. إرشاد المريد : توجد منه نسخة مخطوطة في دار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٣٢٨٩١) .

٣. أوراد الأيام والأوقات: مخطوط، تحت رقم (١١٣٧٨) في دار الكتب الظاهرية[٢] .

٤. أدلة الخيرات : مخطوط في الأزهر – مصر، تحت الرقم (٨٠٥/ ٣٤٣٠٨) .

٥. أوامر الشيخ عبد القادر: توجد نسخة منه خطية في مكتبة فوز الله الشيخ مراد في تركيا، تحت الرقم (٢٥١) .

---

(١) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ١٤٣ .

(٢) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ١٤٠ .

٦. آداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك[1].

٧. بشائر الخيرات في الصلاة على صاحب الآيات البيِّنات: طبع في الاسكندرية – مصر، سنة (١٣٠٤هـ)، وطبع ببغداد سنة (١٣٣٤هـ).

٨. بداية المريدين: توجد نسخة منه بدار صدام للمخطوطات، تحت رقم (١٨٧٧/ ٢).

٩. بيان الأسرار: توجد نسخة مخطوطة منه بدار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٢٩٩٢١).

١٠. تحفة السالكين: مخطوطة بدار صدام، تحت رقم (٨٩٤٧).

١١. تحفة المتقين وسبيل المؤمنين[2].

١٢. تنبيه الغبي إلى رؤية النبي: توجد نسخة منه في المكتبة القادرية ببغداد، تحت رقم (١٣٦٧).

١٣. تفسير القرآن: مخطوط بجزأين في مكتبة رشيد كرامة – طرابلس الشام، خط سنة (٦٢٢هـ).

١٤. تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق: أرجوزة في أخلاق أهل التصوف، في مكتبة الحضرة القادرية، تحت رقم (٦٨٨)[3].

١٥. تحفة الأبرار ولوامع الأنوار: توجد نسخة منه في دار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٨٩٤٣).

١٦. جلاء الخاطر مِن كلام الشيخ عبد القادر: وهو مجالس وعظ ودروس؛ ابتدأها مِن (٩) رجب، إلى (٢٤) رمضان سنة (٥٤٦هـ)، وتوجد نسخة خطية منه في المكتبة القادرية،

---

(١) أنظر: معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٥/ ٣٠٧، وفهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية: محمد رياض المالح، ١/ ٣٨.

(٢) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦.

(٣) أنظر: الآثار الخطية في المكتبة القادرية: عماد عبد السلام، ٣/ ٢٦.

ونسخة في دار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٢٨١٠)[١]، ونسختان في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (٤٨٤٩)، والرقم (٨٤٨١)[٢]، وذكره علي بن سلطان القاري[٣]، وحاجي خليفة[٤]، وعمر رضا كحالة[٥]، وذكره بيروكلمان في كتابه مادة (جيلي)[٦] .

١٧. الحديقة المصطفوية : توجد نسخة منه في مكتبة الشيخ عبد القادر، وهو مطبوع باللغة الفارسية، واللغة الأردية .

١٨. حزب الشيخ عبد القادر (حزب الرجاء والانتهاء) : توجد نسخة منه في مكتبة الأوقاف العامة، ويسمَّى (حزب الرجاء والانتهاء) ذكره الحاج خليفة[٧]، وهناك حزب آخر اسمه (الحزب الكبير) وهو أدعية وابتهالات وصلوات، يوجد في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (٦٣٠٢)[٨]، وحزب آخر اسمه (حزب الصلاة على الرسول ﷺ) تحت رقم (٤٥٦/ ٤) وهو مخطوط في الخزانة العلمية الصبيحية في سلا، وهناك حزب اسمه (حزب الرجاء) ذكره البغدادي[٩]، وحزب آخر يسمَّى (حزب الكيلاني)[١٠] .

١٩. ديوان شعر: وتوجد نسخة منه في دار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٩٩٩) كما يوجد

---

(١) أنظر: الآثار الخطية في المكتبة القادرية : عماد عبد السلام، ٣/ ١٢٧ .

(٢) باسم : (جلاء الخاطر الرايق في الوعظ والتصوف والرقايق) . أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ١/ ٣٦٤ .

(٣) أنظر: نزهة الخاطر الفاتر، ص ١٧٣ .

(٤) أنظر: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، ١/ ٥٩٢ .

(٥) أنظر: معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٥/ ٢١٨ .

(٦) أنظر: تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، مادة (جيلي) .

(٧) أنظر: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، ١/ ٦٦٤ .

(٨) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ٤٣٣، برقم (٨٠٨٩) .

(٩) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(١٠) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ٤٣٤ .

بجامعة اسطنبول، تحت رقم (١٨٦٥) وله عدَّة قصائد[١].

٢٠. دعاء أوراد الفتحية : توجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (٩١٧٧)[٢].

٢١. دعاء البسملة : في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (٥٨٥٧)[٣].

٢٢. الدلائل القادرية : ترجمها إلى التركية : سليمان حسين أفندي، طبع اسطنبول[٤].

٢٣. رد الرافضة : مخطوط في المكتبة القادرية .

٢٤. الرسالة الغوثية : توجد نسخة منه في مكتبة الأوقاف العامة، وفي دار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٤٠٣١/ ٥)، وفي مكتبة الشيخ عبد القادر[٥].

٢٥. رسالة في الاسماء العظيمة للطريق إلى الله : وهي في منافع وخواص[٦]، وحقائق الاسماء الإلهية، وكيفية الدعاء بها، وتوجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية .

٢٦. رسالة في خواص سورة الفاتحة : توجد نسخة منه في المكتبة القادرية، ضمن مجموعة برقم (٦٧٣) .

٢٧. سر الأسرار: وهو كتاب عن آداب السلوك والتصوف، ذكره عمر رضا كحالة[٧]، وقد طبع في الهند، وله ترجمة باللغة الفارسية لولي شاه الصديقي .

٢٨. السيف القاطع: مخطوط، وتوجد نسخة منه بدار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٤٦٧٢/ ١) .

---

(١) أنظر: تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، مادة (جيلي) .

(٢) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٣) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ٥٤٢ .

(٤) أنظر: دعوة الحق: مجلة معربة، العدد (٤)، عام (١٩٨٠م) ص ٧٤، وتاريخ الأدب العربي: بروكلمان، مادة (جيلي) .

(٥) أنظر: الآثار الخطية في المكتبة القادرية : عماد عبد السلام، ٥/ ٢٢٢ .

(٦) أنظر: فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية : محمد رياض المالح، ١/ ٦٥١، برقم (٣٨٧٩) .

(٧) أنظر: معجم المؤلفين، ٥/ ٣٠٧ .

٢٩. صلوات الشيخ عبد القادر: توجد نسخة منه بجامع الزيتونة – تونس .

٣٠. طريقة كيفية أخذ العهد : مخطوط وتوجد نسخة منه بدار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٣٩٨١/ ٢) .

٣١. العقيدة السنية : مخطوط، وتوجد نسخة منه بدار صدام للمخطوطات، تحت رقم (٧٧٧٨/ ٢) .

٣٢. الغنية لطالبي طريق الحق : هو كتاب مِن أجَلِّ كتب الشيخ – رحمه الله –، فهو من الكتب الجامعة الشاملة يبحث في الأخلاق والتصوف وغيره؛ تناول المؤلف في القسم الأول منه الآداب الشرعية التي يجب أنْ يتحلى بها المؤمن وأركان الإسلام وآدابه بكلِّ أُموره الخاصة والعامة، وخص بالذكر العقيدة، وهو ما يجب أنْ يعتقده المؤمن في حقِّ الله، والقرآن والنبيين، ثمَّ ذكر سمات أهل البدع والفرق الخارجة، وذكر فضل الإستعاذة بالله مِن الشيطان الرجيم، وبيَّن النفس وحقيقتها، والروح، ومجاهدة الشيطان، وبيَّن فضل بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وتفسيرها، ثمَّ شروط التوبة، والتقوى وطريقها، والجنة وصفتها، والنار وصفتها، وفضائل شهري رجب وشعبان، وأمَّا القسم الأخير مِن الكتاب؛ فيحتوي على ذكر فضائل شهر رمضان، وليلة القدر، ثمَّ عيد الفطر، ثمَّ عشر ذي الحجة، ويوم عرفة، ويوم النحر، ثمَّ يوم عاشوراء، والجمعة، وفضائلها، والأسبوع، وفضائل أيامه، والأيام البيض، ثمَّ فضل صلاة الليل وأوراده، والنهار وأوراده، ثمَّ أوقات الصلاة الخمس المفروضة، وسننها الراتبة، ومكروهات الصلاة، وجمعها، وقصرها، وصلاة الجنازة، وفضل عيادة المريض، ثمَّ السنن والأدعية المأثورة، وختم القرآن، وأخيراً يأتي دور التصوف والسلوك، وما يجب على المريد مع شيخه والشيخ مع مريده، والصحبة، وأنواعها، والعشرة وآدابها، والسفر وآدابه، والسماع وآدابه، والمجاهدة وخصالها، والتوكل، وحسن الخلق، والشكر، والصبر، والرضاء، والصدق .

وأكثرَ الشيخُ – رحمه الله – مِن الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ولقد قيَّض

الله لهذا الكتاب مَن يظهره بالمظهر اللائِّق به، فقام الأستاذ المساعد في كلية العلوم الإسلامية (فرج توفيق الوليد) بتحقيق هذا الكتاب، فخرَّج آياته وأحاديثه، وقابل نسخه المخطوطة والمطبوعة، وبيَّن أدلة الأحكام، وترجم للأعلام الواردة فيه، وفهرس للأماكن والبقاع، إضافة إلى ترجمة لحياة الشيخ وآثاره في أول الكتاب، ذكر هذا الكتاب في (كشف الظنون)[١]، والزركلي في أعلامه[٢]، وفي (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة[٣]، وذكره البغدادي في كتابه[٤]، وذكره بروكلمان في تاريخه[٥].

٣٣. الفتح الرباني: هو مجموعة مِن المواعظ الدينية التي كان يلقيها في مدرسته؛ تحتوي على عدَّة موضوعات موزَّعة على شكل مجالس لها أرقام، وهذه المواعظ لم يسجِّلها الشيخ بنفسه، وإنَّما سجَّلها عند تلميذه (عفيف الدين بن المبارك) تقع في (٦٢) مجلساً، المجلس الأول في (٣) شوال، سنة (٥٤٥هـ) والمجلس الأخير في يوم الجمعة سلخ شهر رجب سنة (٥٤٦هـ).

٣٤. وعبارة هذا الكتاب تظهر عليها سمة السهولة واللين، فكثيراً ما كان يخاطب بقوله: (يا غلام) للتحبب، ويطغى على أسلوبه النصح، ويستعمل في بعض الأحيان كلمات الخشونة والشدَّة، والظاهر أنَّه كان يشكو مِن عصره وفساد زمانه؛ حيث دائماً يستعمل كلمة (يا فسَّاق) أو (يا منافقون)، وقد جمع الشيخ في مواعظ هذا الكتاب بين الشدَّة واللين، والترغيب والترهيب، وكثيراً ما كان يدعو إلى التمسُّك بحبل هذا الدين والمحافظة على العقيدة السليمة، والتوحيد الخالص، واحتوى هذا الكتاب على نصيحة لأولاده، ذكره

---

(١) أنظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، ٢/ ١٢١١.
(٢) أنظر: الأعلام: الزركلي، ٤/ ٤٧.
(٣) أنظر: معجم المؤلفين، ٥/ ٣٠٧.
(٤) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦.
(٥) أنظر: تاريخ الأدب العربي، مادة (جيلي).

عمر كحالة[١]، والبغدادي في كتابه[٢] .

٣٥. الفيوضات الربانية : وهو كتاب يحتوي على الأوراد التي يدعو بها الشيخ عبد القادر، ويتقرَّب بها إلى الله، ويحتوي على أدعية وصلوات مثل أوراد أيام الأسبوع، والصلوات الخمس، ودعاء النصر والحفظ، ويحتوي على قصائد شعرية جمعها ورتَّبها الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القادري الجيلاني، طبع سنة (١٣٤٠هـ) في القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ذكره البغدادي[٣]، وذكره الزركلي[٤] .

٣٦. فتوح الغيب: هو مقالات ومواعظ دوَّنها الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر عن والده، وهو يحتوي على (٨٧) موعظة في العقيدة والتربية والسلوك والإرشاد، وقد شرح الإمام ابن تيمية بعض كلماته، ويمتاز هذا الكتاب بسلاسة ألفاظه، وبساطة معناه، ذكره حاجي خليفة[٥]، والبغدادي[٦]، والزركلي[٧]، وتوجد عدَّة نسخ لهذا الكتاب في المكتبة القادرية، وفي مكتبة الأوقاف، ونسخة في دار صدام للمخطوطات، وذكره بروكلمان[٨] .

٣٧. الفتوحات: رسالة مخطوطة في دار صدام للمخطوطات، برقم (٢٦١٣٢) .

٣٨. قصيدة في مدح الرسول ﷺ (تائية) : توجد نسخة منها في خزانة سلا المغربية، تحت رقم (٤٥٦/ ١٣) وهنالك قصيدة أخرى؛ تسمى الغوثية، وهي قصيدة لأمية تنسب إلى

---

(١) أنظر: معجم المؤلفين، ٥/ ٣٠٧ .

(٢) أنظر: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل البغدادي، ٤/ ١٦٣ .

(٣) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(٤) أنظر: الأعلام : الزركلي، ٤/ ٤٧ .

(٥) أنظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، ٢/ ١٢٤٠ .

(٦) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(٧) أنظر: الأعلام : الزركلي، ٤/ ٤٧ .

(٨) أنظر: تاريخ الأدب العربي، مادة (جيلي) .

الشيخ عبد القادر بدايتها :

سقاني الحبُّ كاسات الوصال فقلتُ لخمرتي نحوي تعالى

١. كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى وزيادة : توجد نسخة منه في كامبرج، ونسختان في المكتبة القادرية، برقم (٦٦٦/ ٦٦٧) .

٢. الكبريت الأحمر في الصلاة على النبي ﷺ : توجد نسخة منه مخطوطة منه في دار الكتب المصرية، ذكره البغدادي[١] .

٣. مولد النبي الكريم ﷺ : توجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية، رقم (٩٩٢٢) .

٤. مجموعة خطب : توجد نسخة منه في المكتبة القادرية .

٥. مراتب الوجود : ذكره البغدادي[٢] .

٦. معراج لطيف المعاني[٣] .

٧. يواقيت الحكم : ذكره حاجي خليفة [٤]، والبغدادي[٥] .

❊ ❊ ❊

(١) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(٢) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(٣) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

(٤) أنظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، ٢/ ٢٠٥٣ .

(٥) أنظر: هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، ١/ ٥٩٦ .

المبحث الرابع

ثناء العلماء عليه

لقد أثنى على الشيخ أُمَّة مِن العلماء والفضلاء بكلمات عطرة؛ أشادوا بها بعلمه وصلاحه وهُداه وتقواه، وأثره في المجتمع، والسير به إلى الله عزوجل، وقد تواردت هذه الكلمات على أنَّه كان إماماً في العلم والدين ومدرسة للتربية والسالكين طريق الحق، فهو أُسوة يُقتدى به في نصح المسلمين وإفادة الطالبين، ومِن هذه الكلمات ما قاله السمعاني: ((كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة، وشيخهم في عصره، فقيه صالح دين خير، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، تفقه على المخرمي، وصحب الشيخ حماداً الدباس، وكان يسكن بباب الأزج في مدرسة بنيت له، مضينا لزيارته، فخرج وقعد بين أصحابه، وختموا القرآن، فألقى درسا ما فهمت منه شيئا، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهموا لإلفهم بكلامه وعبارته))[١].

وذكره ابن تغري بردي بقوله : ((وكان شيخ العراق صاحب حال ومقال، عالما عاملا قطب الوجود، إمام أهل الطريقة، قدوة المشايخ في زمانه بلا مدافعة. ومناقبه وشهرته أشهر مِنْ أنْ تذكر. كان ممَّن جمع بين العلم والعمل، أفتى ودرّس ووعظ سنين، ونظم ونثر؛ وكان محقّقاً، صاحب لسان في التحقيق، وبيان في الطريق. وهو أحد المشايخ الذين طنّ ذكرهم في الشرق والغرب. أعاد الله علينا من بركاته وبركات أسلافه الطاهرين))[٢].

(١) سير أعلام النبلاء : الذهبي، ٢٠/ ٤٤١؛ وذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب، ٢/ ١٩٠ .
(٢) النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي، ٥/ ٣٧١ .

وقال ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) : ((وتفقه على أبي سعد المخرمي وكان أبو سعد قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج ففوضت إلى عبد القادر فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت فضاقت مدرسته بالناس فكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت وتعصب في ذلك العوام وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي))[1] .

وقال موفق الدين بن قدامة المقدسي: ((دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علما وعملا ومالا واستفتاء. وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين، وسعة الصدر. وكان ملء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة، وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله))[2] .

وقال محيي الدين عبد الله بن النجار في تاريخه : ((عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، من أهل جيلان. أحد الأئمة الأعلام، صاحب الكرامات الظاهرة ...، م إن الله تعالى أظهره للخلق وأظهر الله الحكمة في قلبه على لسانه، وظهرت علامات من الله تعالى وأمارات ولايته))[3] .

وقال عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية: ((أنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر، فإن كراماته نقلت بالتواتر))[4] .

وقال الشيخ ابن تيمية: ((وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء: مثل الجنيد بن محمد وأتباعه ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي))[5] .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، ١٨/ ١٧٣؛ وينظر: .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٦ .

(٣) المستفاد مِن ذيل تاريخ بغداد، ١/ ١٢٧ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة : ابن رجب الحنبلي، ٢/ ١٩٢ .

(٥) مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تقي الدين الحراني (ت: ٧٢٨هـ) ٨/ ٣٦٩ .

ووصفه أحد رجال عصره (حرادة) بقوله : ((ما رأت عيناي أحسن خُلُقاً ولا أوسع صدراً ولا أكرم نفساً ولا ألطفَ قلباً ولا أحفظ عهداً ووداً مِن سيدنا الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قدره وعلوِّ منزلته، وسعة علمِه يقف مع الصغير، ويوقِّر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، وما قام لأحدٍ مِن العظماء والأعيان، ولا ألمَّ بباب وزيرٍ ولا سلطان))(١) .

وقال السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي: ((الشيخ عبد القادر مَن يستطيع وصف مناقبه ؟ ومَن يبلغ مَبلَغَه ؟ ذاك رجلٌ بحرُ الشريعة عن يمينه، وبحر الحقيقة عن يساره، مِن أيِّهما شاء اغترف لا ثاني له في وقتنا هذا))(٢) .

وقال العلاَّمة ابن رجب الحنبلي: ((وكان الشيخ عبد القادر – رحمه الله – في عصره معظَّماً؛ يعظمه أكثر مشايخ الوقت مِن العلماء والزهاد. وله مناقب وكرامات كثيرة))(٣).

وقال عنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي صاحب كتاب (المشيخة البغدادية) : ((عبد القادر الجيلاني فقيه الحنابلة والشافعية ببغداد وشيخ جماعتها، وله القبول التام عند الفقهاء والفقراء والعوام، وهو أحد أركان الإسلام، وانتفع به الخاص والعام، وكان مُجاب الدعوة سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البشر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم شريف الأخلاق طيب الأعراف، مع قدمٍ راسخٍ في العبادة والاجتهاد))(٤) .

وقال الشيخ محيي الدين النووي في كتابه (بستان العارفين) : ((ما علمنا فيما بلغَنا مِن الثقات الناقلين كرامات الأولياء أكثر ممَّا وصلَ إلينا مِن كرامات القطب شيخ بغداد، وانتهت

(١) الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٧ – ١٢٨ .

(٢) طبقات الأولياء : عمر بن علي بن أحمد، ابن الملقن، سراج الدين، أبو حفص الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ) ص ١٠٠ .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ٢/ ١٩٤ .

(٤) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٧ .

إليه رئاسة العلم في وقته، وتخرَّج بصحبته غير واحد مِن الأكابر، وانتمى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق، وقال بإرادته جمٌّ غفير مِن ذوي الأحوال الفاخرة، وتتلمذ له خلقٌ لا يحصون عدداً وكثرةً مِن أرباب المقامات الرفيعة، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء - رضي الله تعالى عنه - بالتبجيل والتعظيم والاحكام والرجوع إلى قوله، والمصير إلى حكمه، وأهرع إليه أهل السلوك مِن كلِّ فجٍّ عميق، وكان جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع دائم البشر وافر العلم والعقل شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظِّماً لأهل العلم مُكرِماً لأرباب الدين والسنة مُبغضاً لأهل البدعة والأهواء، محبّاً لمريدي الحق، مع دوام المجاهدة، ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عالٍ في علوم المعارف، شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله عزوجل، سخي الكف، كريم النفس، على أجمل طريقة، وبالجملة فلم يكن في زمنه مثله - رضي الله تعالى عنه -))[(١)] .

وقال الذهبي: ((والشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست أبو محمد الجيلي الزاهد شيخ العصر وقدوة العارفين صاحب المقامات والكرامات ومدرس الحنابلة محيي الدين. انتهى إليه التقدم في الوعظ والكلام على الخواطر))[(٢)] .

وقال ابن حجر العسقلاني: ((كان الشيخ عبد القادر متمسِّكاً بقوانين الشريعة، يدعو إليها، وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها مع تمسُّكه بالعبادة والمجاهدة، ومزج ذلك بمخالطة الشاغل عنها غالباً كالأزواج والأولاد، ومَن كان هذا سبيله كان أكملَ مِن غيره))[(٣)] .

وقال عنه اليافعي في تاريخه : ((قطب الأولياء الكرام، شيخ المسلمين والإسلام، ركن الشريعة، وعلم الطريقة، وموضح أسرار الحقيقة، حامل راية علما للمعارف والمفاخر، شيخ الشيوخ وقدوة الأولياء العارفين الأكابر، أستاذ أرباب الوجود أبو محمد محيي الدين عبد القادر

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٣٧ .
(٢) العبر في خبر مَن غبر، ٣/ ٣٦ .
(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٢٣ .

بن أبي صالح الجيلي، قدس الله روحه ونوَّر ضريحه))[١] .

ولقد كان الشيخ عبد القادر ((مستنّاً عابداً واعظاً قامعاً لنفسه ناصحاً لغيره صادقاً في حاله مُبغضاً للبدعة وأصحابها))[٢] .

ويقول الشيخ الندوي عن الشيخ عبد القادر : ((مجدِّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة، وحارب النفاق، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه؛ يدخل منه المسلمون، ويجدِّدون العهد والميثاق مع الله - تعالى -، ظلَّ الشيخ يربِّيهم ويحاسبهم ويُشرِف عليهم؛ فأصبحوا يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان))[٣] .

ويقول السيد محمد بن أحمد العبدلي البحريني في (لباب المعاني) عن الشيخ عبد القادر : ((رجلٌ ممدوح الشِيَم عليُّ الهمم مِن خواص الأقطاب الأكابر الجامعين بين علمي الباطن والظاهر، وأحد الأقطاب الأربعة الذين شاعت ولايتهم في الأقطار، واشتهرت اشتهار الشمس في جميع الديار))[٤] .

❊ ❊ ❊

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ٣/ ٢٦٢ .

(٢) سالم عمار، وابو الحسن الشاذلي، ص ١٣٠ .

(٣) رجال الفكر والدعوة في الإسلام: أبو الحسن الندوي، ص ٢٨٢ .

(٤) لباب المعاني، ص ٥ .

المبحث الخامس

أشهر الكتب المؤلفة في حقِّه

نال الشيخ عبد القادر الجيلاني اهتمام المؤرخين والعلماء والمؤلفين، فكتب الكثير منهم عن شخصيته ومآثره ومنهجه وكراماته ووصاياه، فمنهم مَن خصَّه في كتاب ومنهم مَن استشهد بأقواله، ومنهم مَن ترجم له مَع مَن ترجم مِن أهل الفكر والعلم، فقد كتب عنه العلماء القدماء والمُحدَثون عرباً وغير عرب مِن المسلمين وغير مسلمين، وسوف نتناول في هذا المبحث ما استطعنا الاحاطة به منهم :

١. أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر: للإمام عبد الله بن سعد اليافعي (ت: ٧٦٨هـ) .
٢. أنوار الناظر : لأبي بكر عبد الله بن ناصر البكري البغدادي .
٣. أنهار المفاخر: محمد غوث الدين الشافعي من (مدارس) في الهند .
٤. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار : للشيخ نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف اللخمي الشطنوفي الشافعي (ت: ٧١٣هـ) .
٥. الباز الأشهب : إبراهيم الدروبي، طبع بغداد، عام (١٩٥٥م) .
٦. بستان الأصاغر والأكابر ترجمة الشيخ عبد القادر: عبد الحي القادري – رئيس الطريقة القادرية بتطوان – (١٩٤٠م) .
٧. البهجة الصغرى في مناقب عبد القادر الجيلاني: لعبد العزيز بن أحمد سعيد، أبي محمد، عز الدين الدميري الدهري (ت: ٦٩٤هـ) .
٨. تفريج الخاطر في مناقب عبد القادر : للإمام عبد القادر كمال الدين (ت: ١٩٢٤م) بمدينة

أُورقا (أودية) بشبه جزيرة القرم بالاتحاد السوفييتي سابقاً (ت: ١٣١٥هـ) .

٩. تنشيط الخاطر : لضياء الدين ترك زادة، طبع استانبول (١٩٢٤م) .

١٠. توفيق الملك القادر بسلوك طريق الغوث عبد القادر : زادة كمال الدين الحريري، (ت: ١٣٠٢هـ) .

١١. تحفة الأبرار ولواقع الأنوار : علي بن يحيى الجيلاني (ت: ١١١٣هـ) مخطوط في المكتبة القادرية .

١٢. تزيين الدفاتر : للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي (ت: ١٣٦٣هـ) .

١٣. تحفة القادر: محمد أبي علي المعالي، باللغة الفارسية .

١٤. الجاني والداني : للسيد جعفر البرزنجي .

١٥. الحق الظاهر في شرح أحوال الشيخ عبد القادر .

١٦. حال عبد القادر الجيلي: عمر بن أحمد، سراج الدين ابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ) تحت رقم (٤٤٠٧) .

١٧. خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر: الإمام عفيف الدين أسعد اليافعي (ت: ٧٦٨هـ) .

١٨. الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر : عبد الرحمن بن محمد بن علي السائح، مخطوط في المكتبة الظاهرية، تحت الرقم (٤٦٥٦) .

١٩. الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر : السيد عبد القادر بن الشيخ العيدروسي اليمني (ت: ١٠٣٨هـ) .

٢٠. در الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر : للشيخ عمر بن علي بن أحمد، سراج الدين، أبي حفص ابن الملقن المصري (ت: ٨٠٤هـ) موجود في مخطوطات المجمع العلمي العراقي .

٢١. الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر: للشيخ أحمد بن محمد، أبي العباس القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) .

٢٢. رياض البساتين في أخبار مولانا عبد القادر محيي الدين: محمد الأمين مِن تونس، كان حيّاً عام (١٢٦٣هـ) .
٢٣. روضة الناظر في ترجمة عبد القادر : للشيخ حمد، مجد الدين، أبي طاهر .
٢٤. الروض الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر : محمد سعيد السنجادي .
٢٥. الروض الناظر : محمد بن يعقوب، مجد الدين أبي طاهر الفيروزآبادي .
٢٦. رشف المهلين في تخميس أبيات الشيخ محيي الدين عبد القادر : تقي الدين أبي البركات ابن حجة (ت: ٨٣٧هـ) .
٢٧. زبدة الأسرار في مناقب غوث الأبرار: عبد الحق الدهلوي (١٠٥١هـ) طبع مدارس بالهند .
٢٨. زبدة الاعصار في أخبار قطب الأخيار : مؤلف باللغة الفارسية .
٢٩. السر الظاهر: سليمان العلمي، الشهير بالحوات (ت: ١٢٣١هـ) بمدينة فاس- بالمغرب .
٣٠. السيف الرباني في عنق مَن اعترض على الشيخ الجيلاني : للسيد محمد المكي بن السيد مصطفى بن محمد عزوز، مفتي تونس .
٣١. السفينة القادرية : منلا التونسي القادري، طبع بغداد .
٣٢. سلطان العارفين: صلاح الدين عبد القادر محمد فائز .
٣٣. الشرف الباهر : للشيخ الإمام قطب الدين موسى (ت: ٧٢٦هـ) .
٣٤. الشراب النيلي في ولاية الجيلي: الشيخ محمد بن إبراهيم الحلبي (ت: ٩٧١هـ).
٣٥. شمس المفاخر لذيل كتاب قلائد الجواهر : محمد بن حمد بن أحمد، المعروف بالبخشي، في مكتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: ١٠٩٨هـ) .
٣٦. الشيخ عبد القادر – حياته وآثاره : الشيخ يونس إبراهيم السامرائي .
٣٧. الطريقة القادرية العلية : الناشر حكيم محمد حسن .
٣٨. عبد القادر أكبر ولي في الإسلام : محمد علي عيسى .

٣٩. غبطة الناظر: ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) طبعة الهند .
٤٠. الفتح المبين: عبد الرحمن الكيلاني، ظهير الدين التفازي .
٤١. الفتح الرباني في حياة سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني: طاهر علاء الدين القادري .
٤٢. قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر : الشيخ محمد بن يحيى التادفي الحنبلي (ت: ٩٦٣هـ) .
٤٣. الكوكب الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر: للشيخ أبي الهدى الصيادي، طبع عام (١٣١٣هـ) .
٤٤. الكواكب الدرية في المناقب القادرية : محمد رشيد الرافعي، طبع بطرابلس عام (١٣١٢هـ) بعد وفاة المؤلف .
٤٥. كرامات الشيخ الجيلاني : للمستشرق مرجيلوث .
٤٦. الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب : فخري نوري الجيلاني .
٤٧. مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني : الشيخ قطب الدين موسى بن محمد الحنبلي (ت: ٧٢٦هـ) .
٨٤. المختصر في تاريخ شيخ الإسلام عبد القادر وأولاده : إبراهيم الدروبي .
٤٩. مختصر الروض الزاهر: إبراهيم الديري الشافعي (ت: ٨٨٠هـ) .
٥٠. الإمام عبد القادر الجيلاني : أبو الحسن الندوي .
٥١. مناقب الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني: عبد الرحمن بن محمد السائح، نسخة منه في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (٤٦٥٦) .
٥٢. منظومة رائية مِن البحر الوافر في مناقب الشيخ عبد القادر : نظم الشيخ محمد الكيلاني بن إبراهيم بن أحمد الشريف الحسني الحشيشي القادري (ت: ١٣١٠هـ) .
٥٣. مناقب الشيخ عبد القادر : عبد الرحمن الطلباني (ت: ١٢٧٥هـ) .
٥٤. نزهة الخاطر في ترجمة سيدي الشريف عبد القادر: علي بن سلطان بن محمد القادري (ت:

١٠١٤هـ) طبع في استانبول .

٥٥. نزهة الناظر : علي محمد بن عبد اللطيف البغدادي .

٥٦. نشأة القادرية : د. ماجد عرسان الكيلاني .

٥٧. نشر الجواهر : قاضي الإسلام محمد صبغة الله، مِن (مدارس) في الهند .

٥٨. وصايا الشيخ عبد القادر الجيلاني : جميل إبراهيم حبيب .

٥٩. لقد تناولتْ هذه الكتب حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني ومناقبه وكراماته، ولقد جمعتُ أسماءها معتمداً على كتب الفهارس، والتراجم مثل (كشف الظنون) و(هدية العارفين) و(معجم المؤلفين) وفهارس المخطوطات والمكتوبات) .

❊ ❊ ❊

[الباب الثاني]

منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في التربية والسلوك

ويشتمل على تمهيد وأربعة فصول :

* تمهيد : في بيان تعريف المنهج والتربية والسلوك في اللغة والاصطلاح .
* الفصل الأول : أركان التربية والسلوك .
* الفصل الثاني : التصوف .
* الفصل الثالث : التربية الروحية في مدرسة الشيخ الجيلاني .
* الفصل الرابع : المنهج الإصلاحي التربوي وأسسه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني .

تمهيد

لكي يعرف قارئ هذا البحث ما أعنيه مِن (المنهج في التربية والسلوك) فلابدَّ مِن تحديد معاني هذه المفردات الثلاثة لغةً واصطلاحاً؛ لأنَّها قوام الباب الثاني .

*** تعريف المنهج والتربية والسلوك في اللغة والاصطلاح :**

*** أولاً : المنهج :**

لغةً : يقال: طريقٌ نَهْجٌ : بيِّنٌ واضحٌ، وهو النهج، ومنهج الطريق : وضحه، والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل العزيز: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[١]، ونهجتُ الطريقَ: سَلَكتُهُ، أو أبنتُهُ وأوضحتُه، والنهج: الطريق المستقيم، والنهج تتابع النَّفَس[٢] .

واصطلاحاً : في علم التربية يُقصَد به : السبيل التي يسلكها المعلم لبلوغ الأهداف التربوية، فهو بهذا المعنى يتضمَّن المادة الدراسية المقرَّرة وطريقة تدريس هذه المادة .

وضروب النشاط التي يقوم بها التلاميذ والاختبارات التي يجريها المعلم لمعرفة مدى النجاح في تحقيق الأهداف، ولما كانت المناهج متَّصلة بالأهداف التربوية فمِن الضروري ملاحظة الأهداف عند وضع المناهج، ويكيِّفها حسب حاجات البيئة وثقافة المجتمع، ومراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ، كما يجب أنْ تكون مواد المنهاج متماسكة منسجمة، وأنْ تلمس شؤون الحياة ومشاكلها، وتهدف إلى إصلاح المجتمع[٣] .

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨ .

(٢) أنظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) ١/ ٣٤٦، مادة (نهج)، وأساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ) ٢/ ٣٠٦، مادة (نهج)، ولسان العرب: ابن منظور، ٦/ ٤٥٥٤، مادة (نهج) .

(٣) أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٧٤٨، ومنهج التربية الإسلامية – أصوله وتنظيماته : د. علي أحمد مذكور، ص ٧٨ .

والمنهج الذي نقصده – هنا – هو الأُطر الفكرية العامة لمدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني الدينية في جانبها السلوكي والتربوي .

*** ثانياً : التربية :**

لغةً : تعود كلمة التربية إلى أصول ثلاثة هي : ربا، ربى، ربّ .

فالأصل الأول: ربا يربو؛ بمعنى: زاد ونما .

والأصل الثاني: ربى يربى، بوزن : خفى يخفى؛ بمعنى: نشأ وترعرع .

والأصل الثالث: ربّ يربِّ؛ بمعنى: أصلحه، وتولَّى أمره، وساسه، وقام عليه، ورعاه. وبذلك تكون معاني التربية في اللغة : الزيادة، والنمو، والنشوء، والترعرع، والاصلاح، والرعاية، والسياسة، وتولي الأمر[١] .

وأمَّا قوله تعالى – حكاية عن فرعون لموسى عليه السلام –: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[٢]؛ فأراد بذلك : الترعرع والنشوء .

وذكر ابن الأنباري عدَّة معانٍ للرب؛ منها: المالك، والسيد، والمُطاع، والمُصلِح[٣] .

أمَّا سيد قطب – رحمه الله –؛ فقد فسَّر قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤]، الربُّ: هو المالك، والسيد، والمتصرِّف للإصلاح والتربية، والله عليه السلام لم يخلق الكون ثمَّ يتركه هملاً، وإنَّما يتصرَّفُ فيه بالإصلاح، ويرعاه ويربِّيه[٥] .

واصطلاحاً : اشتقَّ العلماء مِن الأصول اللغوية لكلمة (التربية) تعاريف؛ منها :

---

(١) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٣/ ١٥٤٦، مادة (ربب)، وتاج العروس: الزبيدي، ٢/ ٤٥٩ – ٤٦٠، مادة (ربب) .

(٢) سورة الشعراء : مِن الآية ١٨ .

(٣) أنظر: تهذيب اللغة : الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) ١٥/ ١٢٨، مادة (رب) .

(٤) سورة الفاتحة، الآية ٢ .

(٥) أنظر: في ظلال القرآن : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ) ١/ ٢٢ .

١. **تبليغ الشيء إلى كماله بحسب استعداده الأزلي شيئاً فشيئاً**[١] .

٢. **إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام .**

((تنمية جوانب شخصية الإنسان مِن كلِّ هذه الجوانب في انسجام وتكامل؛ تتوحَّد معه طاقات الإنسان، وتتظافر جهوده لتحقيق هدف واحد؛ تتفرَّع عنه وتعود إليه جميع الجهود والتصورات، وضروب السلوك ونبضات الوجدان))[٢] .

وهناك تعريف آخر؛ يقول: ((هي عملية إعداد العقل السليم)) وهذا المفهوم مِن أقدم المفاهيم؛ قال به أكابر الفلاسفة القدماء : افلاطون، وأرسطو، وتلتزم به التربية التقليدية، ويرجع أصل هذا المفهوم إلى الفلسفة المثالية ووظيفتها الأساسية هي تنمية العقل والسلوك يتأتى عن طريق معرفته[٣] .

وعرَّفه البعض بقولهم : ((هي مجموعة الطرائق والوسائل النقلية والعقلية والاجتماعية والعلمية التجريبية التي يستخدمها العلماء والمربُّون للتأديب والتهذيب والتنمية للفرد والمجتمع والبشرية بقصد تحقيق هدف تقوى الله والخشية منه في النفوس))[٤] .

وعرَّفها الإمام الغزالي – رحمه الله – بقوله : ((تهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المُهْلِكَة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المُسْعِدَة))[٥] .

والتربية التي نقصدها في منهج الشيخ عبد القادر لا تخرج عن هذا الإطار العام الشمولي لمفهوم التربية المستمرة التي تلازم المريد السالك مِن بداية التزامه وسيره في طريق أهل الحق؛ حتى يلقى الله عليه السلام وهو عنه راضٍ .

---

(١) أنظر: الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) ص ٣١٤ .

(٢) أصول التربية الإسلامية : النحلاوي، ص ١٢ – ١٦ .

(٣) أنظر: أسس التربية : د. صالح ذياب، ص ١٠ .

(٤) التربية الإسلامية بين المعاصرة والأصالة : د. إسحاق أحمد فرحان، ص ٣٢ .

(٥) إحياء علوم الدين: محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ١/ ١٣ .

والتربية في منظور الصوفية عامة والشيخ عبد القادر خاصة لها أمر ذو أهمية؛ إذ يعوِّلون عليها تعويلاً كبيراً، ولا يكاد يوجد أحد يُعْرَف أنَّه سالك مِن أهل الطريق دون أنْ يكون له موجِّه ومُرشد؛ يدلُّه على طريق الجهاد ووسائله؛ حتى ينتصر ويدرك ويبصر[1] .

*** ثالثاً : السلوك (الطريقة) :**

لغةً : مصدر : سَلَكَ طريقاً، وسلك المكانَ يسلُكُهُ سلكاً وسلوكاً، وسلكه غيره، وفي قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[3]، والله عليه السلام يسلك الكفار في جهنم؛ يُدخلهم فيها، وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[4]، بمعنى: أدخله، والمسلك: الطريق[5] .

واصطلاحاً : السلوك : هو الطريقة التي توصل إلى رضا الله عزوجل، و ((هي السيرة المتخصصة بالسالكين إلى الله – تعالى – مِن قطع المنازل والترقي في المقامات))[6] .

وهو – أيضاً –: معرفة ما للنفس وما عليها مِن الوجدانيات، ويسمَّى (علم الأخلاق) و(علم التصوف) .

وقد استخدم لفظ (سلوك) للإشارة إلى الطريق الصوفي؛ لِما تحمله مِن دلالات خاصة بالخروج والدخول معاً؛ فالسلوك في التصوف : الطريقة لمعرفة الله عليه السلام بالرياضة

(١) أنظر: التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٩ .

(٢) سورة المدثر، الآية ٤٢ .

(٣) سورة الحجر، الآية ١٢ .

(٤) سورة الزمر، الآية ٢١ .

(٥) أنظر: تهذيب اللغة : الأزهري، ١٠/ ٣٨، مادة (سلك)، ولسان العرب: ابن منظور، ٣/ ٢٠٧٣، مادة (سلك) .

(٦) أنظر: التعريفات : الجرجاني، ص ١٤١ .

والسير في المقامات والترقي في الأحوال[١] .

وفي (مجمع السلوك) : ((وأشرف العلوم علم الحقائق والمنازل والأحوال وعلم المعاملة والإخلاص في الطاعات والتوجُّه إلى الله – تعالى – في جميع الجهات، ويسمِّى هذا العلم بعلم السلوك، وعلم الحقائق، والإخلاص في الطاعة، والتوجُّه إلى الله مِن جميع الجهات .

وعلم الحقائق ثمرة العلوم كلِّها وغايتها، فإذا انتهى السالك إلى علم الحقائق وقع في بحر لا ساحل له، وهو – أي: علم الحقائق – (علم القلوب) و(علم المعارف) و(علم الأسرار)، ويقال له : (علم الإشارة)[٢] .

والسلوك اصطلاحاً يستخدمه الصوفية لوصف رحلة الصوفي إلى الله عليه السلام، والتي تبدأ بالدخول بالطريقة؛ حيث يهديه الشيخ إلى سواء السبيل، وينتهي بلوغه أعلى درجة روحية في طاقته، والسلوك يعني: السعي على عمد وبطريقة منتظمة، ويجب أنْ يسير منه السالك، وأنْ يبلغ الكمال في كلِّ المقامات: الذكر، الفقر، المحبة، المعرفة[٣]، والسالك هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوُّره، فكان العلم الحاصل له عيناً يأتي مِن ورد الشيخ المُصلح له[٤] .

والسلوك إذاً هو : السيرة والاتجاه والمذهب، ولكلِّ مجتمع قانون يسير عليه، وبه يحكم على الفرد على وفق هذا القانون؛ يحكم عليه بأنَّه خير، وإذا خالفه حكم عليه بأنَّه شرٌّ .

والعلم الذي يوضِّح معنى الخير والشر، هو (علم الأخلاق) الذي يبيِّن ما ينبغي أنْ تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، ويشرح الغاية التي ينبغي أنْ يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي، ويسمَّى علم السلوك[٥] .

(١) أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٠٠ .
(٢) أنظر: موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية : التهانوي، ١/ ٣٣ .
(٣) أنظر: نفحات الأُنس: الجامي، مِن الموسوعة الميسرة، ١/ ٤٧٦ .
(٤) أنظر: التعريفات : الجرجاني، ص ١١٦ .
(٥) أنظر: المعجم الفلسفي: صليبا، ١/ ٦١٧ .

والسالك عند أهل الطريق هو السائر إلى الله، المتوسِّط بين المريد والمنتهي مادام في السير[1] .

وموضوع السلوك أخلاق النفس؛ إذ يبحث فيه عن عوارضها الذاتية مثل (حب الدنيا) وفي قولهم : ((حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة)) .

والذي نرمي إليه مِن معنى السلوك في منظور الشيخ عبد القادر الجيلاني، هو دراسة المعالم الفكرية الشاملة للتربية الإسلامية، وركائز السلوك القويم الموصل إلى الله عليه السلام، ومراقبة السالك نفسه في كلِّ مرحلة مِن مراحل الطريق، وترقيه في مقامات العبودية المطلقة .

وإذا كانت العبادات الظاهرة تخضع البدن لأركانها وسننها ومظاهرها بشكل عام؛ فإنَّ مرتبة الإحسان التي سيكون عملنا كلّه فيها تتأثَّر وتؤثِّر سلباً وإيجاباً على العبادات الظاهرة والباطنة، وكان بينهما عموم وخصوص مطلق، فكلُّ عبادة ظاهرة تؤثِّرُ تأثيراً حقيقياً على صفاء القلب، وسموِّ الروح، وعمق الإيمان واليقين، وكلُّ تَرَقٍّ في هذا الجانب يزيد مِن العبودية لله ربِّ العالَمين كمّاً ونوعاً؛ حتى يستقيم الظاهر والباطن، ويغدو العبد كلُّه في الله ولله وبالله، ويفنى في عبادة ربِّه؛ حتى لا يحسُّ بشيءٍ سوى عبوديته .

❊ ❊ ❊

(١) أنظر: الأخلاق: أحمد أمين، ص ٢ .

[الفصل الأول]

أركان التربية والسلوك

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول : الطريقة .
* المبحث الثاني : الشيخ .
* المبحث الثالث : المريد .

المبحث الأول

الطريقة

عُرِّفَت الطريقة الصوفية بأنَّها : الأُسلوب التربوي الذي يتبعه الشيخ في تربية المريدين، وهم طلاب الحق في المصطلح الصوفي[١] .

فالطريق إلى الله عليه السلام عند القوم هو التصوف بكلِّ ما تحويه هذه الكلمة مِن دلالات ومعانٍ ومجاهدات ورياضات، وغيرها مِن الأمور التي تكون سبباً في وصول السالك إلى الله عليه السلام، فمَن ينجح في سلوكه يوصَف بأنَّه صوفي، وذلك مِن خلال التزامه الصحيح الصادق بِسِمات التصوف وشرائطه، فلكي نعمِّق النظر في عمق المصطلح لابدَّ مِن إدراك ما يتضمَّنه هذا الطريق على نحو إجمالي، فالطريق عندهم هو الطريقة [٢]، وقد أكَّد الصوفية على أنَّ مِن أبرز سمات الطريق إلى الله هو التمسُّك بكتاب الله وسنة رسوله وبتعاليم الشريعة السمحاء، فقد قال سهل التستري[٣]: ((أصولنا سبعة أشياء: التمسُّك بكتاب الله – تعالى–، والاقتداء بسنَّة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق))[٤]،

(١) أنظر: سلطان العارفين: صلاح الدين عبد القادر، ص ٤٥ .

(٢) أنظر: الرسالة القشيرية: الإمام القشيري، ١/ ١٧، وكشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي، ٤/ ٩١٠٩.

(٣) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى، أبو محمد التستري، أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال، صحب خاله محمد بن سوار، وشاهدَ ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة وصحبه، روى عنه الحكايات: عمر بن واصل، وأبو محمد الجريري، وطائفة، وأسند الحديث، قال عنه الذهبي: شيخ العارفين، الصوفي الزاهد، له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة؛ وقدم راسخ في الطريق. (ت: ٢٨٣هـ) وقيل: (٢٩٣هـ) . أنظر: طبقات الصوفية : محمد بن الحسين بن محمد، أبو عبد الرحمن السلمي (ت: ٤١٢هـ) ص ١٦٦ – ١٦٧، وسير أعلام النبلاء : الذهبي، ١٣/ ٣٣٠ .

(٤) طبقات الصوفية : السلمي، ص ١٧٠ .

ويقول الجنيد[١] – مؤكِّداً أنَّ الطريق إلى الله عليه السلام لابدَّ أنْ يكون مستنداً إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ –: ((الطرق كلُّها مسدودة على الخلق إلاَّ مَن اقتفى أثر الرسول – عليه الصلاة والسلام –))[٢] .

ويقول – أيضاً –: ((علمُنا مضبوطٌ بالكتاب والسنة، مَن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقَّه لا يُقتدى به))[٣]، وقال أحمد بن أبي الحواري (ت: ٢٣٠هـ)[٤] : ((مَن عمل بلا اتِّباع السنة فباطلٌ عملُهُ))[٥]، وسُئِل أبو يزيد البسطامي (ت: ٢٦١هـ) عن الصوفي؟ فقال: «هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه، وسنَّة رسوله بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار، ويأتزر بالدنيا، ويرتدي بالأُخرى، ويلبِّي مِن بينهما : «لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْك» .

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم النهاوندي الأصل البغدادي القواريري الخزاز. وقيل كان أبوه قواريرياً، يعني: زجَّاجاً. وكان هو خزَّازاً، سمع من: الحسن بن عرفة، وغيره. واختص بصحبة السري السقطي، والحرمي، وأبي حمزة البغدادي، روى عنه: جعفر الخلدي، وأبو محمد الجريري، وأبو بكر الشبلي، وطائفة من الصوفية . وأتقن العلم، ثم أقبل على شبابه، واشتغل بما خلق له، وحدث بشيء يسير، كان شيخ العارفين وقدوة السائرين وعلم الأولياء في زمانه (ت: ٢٩٨هـ) . أنظر: سير اعلام النبلاء: الذهبي، ١٤/ ٦٦، وطبقات الشافعيين: ابن كثير، ص ١٦٨ .

(٢) الرسالة القشيرية، ١/ ٧٩ .

(٣) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني، ١٣/ ٢٥٥، أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ٧٩، وتلبيس إبليس: ابن الجوزي، ص ١٥١ .

(٤) أحمد بن عبد الله بن ميمون بن العباس بن الحارث، أبو الحسن بن أبي الحواري الغطفاني التغلبي الدمشقي الزاهد، كوفي الأصل، ولد سنة (١٦٤هـ) . روى عن: أحمد بن صاعد الصوري، وأحمد بن محمد بن حنبل، وغيرهما، وروى عنه: أبو داود، وابن ماجه، وغيرهما، وأسند الحديث، روي عن الجنيد أنَّه كان يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام . (ت: ٢٤٦هـ)، وقيل غير ذلك . أنظر: طبقات الصوفية : السلمي، ص ٩١، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، جمال الدين المزي (ت: ٧٤٢هـ) ١/ ٣٧٤– وما بعدها .

(٥) طبقات الصوفية: السلمي، ص ٩٢ .

وتتَّضح عقيدة أهل الطريق سلف هذه الأُمة وخلفها بارتباطهم بقواعد الشرع وتمسُّكهم بالكتاب والسنة، وعدم الخروج عليهما بأيِّ شكلٍ مِن الأشكال، وهو أمرٌ واضحٌ في سلوكهم وأخلاقهم وعباداتهم ولزومهم لظاهر الشرع، وصمودهم وجهادهم لمن حارب الله ورسولَه، فعبد الله بن المبارك[١]، قال: ((لو أنَّ رجلاً اتَّقى مئةَ شيء، ولم يتَّق شيئاً واحداً لم يكن مِن المتَّقين، ولو تورَّع عن مئة شيء، ولم يتورَّع عن شيء واحدٍ لم يكن ورعـاً))[٢]، ويقول أبو العالية الرياحي[٣]: عن الاستقامة في الطريق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[٤]، أي: ((أخلصوا لله الدين والدعوة، والعمل، وأصل الاستقامة في ثلاثة : اتِّباع

---

(١) عبد الله بْن المبارك ابن واضح، أَبُو عَبْد الرَّحْمٰن، الحنظلي مولاهم التركي، ثم المروزي، ولد سنة (١١٨هـ) فأقدم شيخ لقيه: هو الربيع بن أنس الخراساني، تحيل ودخل إليه إلى السجن، فسمع منه، وأخذ عن بقايا التابعين، وأكثر من الترحال والتطواف، وإلى أن مات في طلب العلم، وفي الغزو، وفي التجارة والإنفاق على الإخوان في الله، وتجهيزهم معه إلى الحج، وسمع من: الأعمش، ويحيى بن سعيد الأنصاري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والثوري، وشعبة، والحمادين، ومالك، وابن عيينة، وخلق كثير. وحدث عنه: معمر، والثوري، وأبو إسحاق الفزاري، وطائفة من شيوخه، وابن مهدي، وطائفة من أقرانه، وأبو داود، ويحيى القطان، وابن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، وخلائق، وصنف التصانيف النافعة الكثيرة، قال عنه الذهبي: الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، الحافظ، الغازي، أحد الأعلام (ت: ١٨١هـ). ينظر، التاريخ الكبير للبخاري، ٥/ ٢١٢، وسير أعلام النبلاء، ٧/ ٣٦٥ .

(٢) أنظر: صفة الصفوة : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ٤/ ١٣٩ .

(٣) رفيع بن مهران، أبو العالية الرياحي البصري مولى امرأة من بني رياح بن يربوع - حي من بني تميم -، أعتقته سائبة. أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ بسنتين، ودخل على أبي بكر الصديق، وصلى خلف عمر بن الخطاب. وروى عن: أبي بن كعب، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم، روى عنه: بكر بن عبد الله المزني، وثابت البناني، وجعفر بن ميمون، وغيرهم، وعن يحيى بن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم أنَّه: ثقة . واختلفوا في وفاته؛ فقيل سنة (٩٠هـ) وقيل غير ذلك . أنظر: التاريخ الكبير: البخاري، ٣/ ٣٢٦، وتهذيب الكمال: المزي، ٩/ ٢١٤ .

(٤) سورة فصلت، الآية ٣٠ .

الكتاب، والسنَّة، ولزوم الجماعة))[١]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يؤكِّد في جميع ما ورد عنه مِن أقوال ووصايا على حقيقة واضحة جليلة جليَّة، وهي أنَّه لا سبيل لأحدٍ أنْ يسلك طريق القوم ويصل إلى الله إلاَّ إذا دخل مِن باب الشرع الشريف؛ حيث قال: ((ولا يكون في الطريقة ولا في الحقيقة شيءٌ يخالف آداب الشريعة))[٢]، أمَّا ابن تيمية الحراني – رحمه الله – الذي عُرِف بصلابته وشدَّته في هذا الأمر؛ فقد وضَّح – لنا – حقيقة أئمة التصوف، وموقفهم مِن الشرع، ومدى التزامهم بالكتاب والسنَّة، ومِن الذين أثنى عليهم مِن شيوخ التصوف الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقال: ((وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء: مثل الجنيد بن محمد وأتباعه ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله فهؤلاء من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي وتوصية باتباع ذلك وتحذيرا من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك وهذا هو «الفرق الثاني» الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه. والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور، وترك المحظور والصبر على المقدور ولا يثبت طريقا تخالف ذلك أصلا لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي))[٣] .

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في وصيَّته لابنه عبد الرزاق: ((أوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم الشرع، وحفظ حدوده، وتعلَّمْ يا ولدي – وفَّقَنا اللهُ تعالى وإيَّاك والمسلمين – أنَّ طريقتنا مبنيَّةٌ على الكتاب والسنة، وسلامة الصدور، وسخاء اليد، وبذل الندى، وكف الجفا، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان))[٤] .

وقال – أيضاً –: ((كلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة؛ طِر إلى الحقِّ عليه السلام بجناحي الكتاب والسنة))[٥] . وقال – منكراً على مَن يعتقد أنَّ التكاليف الشرعية تسقط عن

(١) رسالة المسترشدين: المحاسبي، ص ١٢٨ .
(٢) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣١٧ .
(٣) مجموع الفتاوى : ابن تيمية، ٨/ ٣٦٩ .
(٤) الفيوضات الربانية : الجيلاني، ص ٥٢، المجلس (٣٩) .
(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٦٥، المجلس (٤٤) .

السالك في حالٍ مِن الأحوال -: ((تركُ العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحدٍ في حالٍ مِن الأحوال))[١] .

وقال السيد أحمد الرفاعي : ((كونوا مع الشرع في آدابكم كلِّها ظاهراً وباطناً، فإنَّ مَن كان مع الشرع ظاهراً وباطناً كان الله حظَّه ونصيبَه، ومَن كان اللهُ حظَّه ونصيبَه كان مِن أهل مقعد صِدقٍ عند مليك مقتدر))[٢] .

ويخاطب الشيخ عبد القادر الجيلاني المدَّعين مِن المتصوفة بقوله : ((وأنتم اليوم أبغض مَن إليكم الفقهاء والعلماء والأولياء الذين هم المؤدِّبون والمعلمون، فلاجرم لا يقع بأيديكم الدواء، إيش ينفع علمي وطبِّي معك فكلّ يوم أبني لك أساساً وأنت تنقضه))[٣]، ويقول - أيضاً -: ((ويحك تدَّعي أنَّك منهم، ما علامتهم عندك؟ ما علامة قُرب الحقِّ ولُطفه ؟ في أيِّ منزلةٍ أنت عند الحقِّ - تعالى - وفي أيِّ مقام؟ ما اسمك وما لقبُك في الملكوت الأعلى ؟ علام يُغلَق بابُك كلَّ ليلة ؟ طعامُك وشرابك مباح هو حلال طلق، تضاجع الدنيا أو الآخرة أو قُرب الحقِّ عليه السلام مَن أنيسُك في الوحدة ؟ مَن جليسُك في الخلوة ؟ يا كذَّاب أنيسُك في الوحدة نفسُك وشيطانك وهواك والتفكُّر في دنياك))[٤] . ونعى على الذين لم يكن الشرع قائدهم فقال: ((مَن لم يكن الشرع رفيقَه في جميع أفعاله وأحواله فهو هالكٌ مِن الهالكين))[٥]، فالتصوف عند الشيخ عبد القادر مذهبٌ كلُّه جد؛ فلا يخلطوه بشيءٍ مِن الهزل .

❊ ❊ ❊

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٥٥، المجلس (١١) .
(٢) البرهان المؤيد : السيد أحمد الرفاعي، ص (٧٥) .
(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٤٩، المجلس (٣٩) .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٥٩، المجلس (١٢) .
(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٥٠، المجلس (٣٩) .

المبحث الثاني

الشيخ

((هو الإنسان الكامل[١] في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ حدَّ التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها، وقدرته على شفائها، أو القيام بهديها إنْ استعدَّت ووفقت لاهتدائها))[٢] .

فالشيخ هو المرشد الذي سلك طريق الحق، وعرف الحدود، فتولى تربية المريد، والإشارة إليه بمستلزمات السلوك ومقتضيات الوصول إلى قُرب الخالق عليه السلام، وأنْ يكون الشيخ قد أخذ الطريق مِن شيخ سابق، ويجب أنْ يكون قد تخلَّق بأخلاق النبي ﷺ .

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّه لابدَّ لكلِّ مريدٍ لله مِن شيخٍ، فالمشايخ هم الطريق إلى الله والأدلاء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه[٣] .

فالمريد إذا جاء وقت إرادته، وانفرد برأيه، ولم يصحب شيخاً؛ ضلَّ، وكان الشيطانُ له قائداً، أو شيخاً[٤]؛ فالشيخ يختلف عن علماء الظاهر الذين أخذ المبتدئ منهم العلوم الشرعية؛ حيث يمكن للسالك تلقِّي علوم الشريعة وفنونها مِن جملة علماء، فالشيخ هو الولي المرشد، المتَّصف بقوَّة الإيمان والتقوى، والمتفقه بالكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومعاني الإيمان والإسلام والإحسان والشكر؛ إضافة إلى الحكمة والبصيرة في آفات النفس وأمراض القلب،

(١) المقصود بالكمال هنا: الكمال النسبي اللائَّق بالإنسان، وأمَّا الكمال المطلق؛ فإنَّه لا يكون إلاَّ لله عليه السلام

(٢) أنظر: اصطلاحات الصوفية : القاشاني، مصر (١٩٨١م) ص ١٥٤ .

(٣) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٦٩ .

(٤) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٢٧، المجلس (٣٠) .

ويحسن التربية، زاهدٌ ورعٌ صبورٌ؛ يحسنُ التوكل، واليقين، والسخاء، والقناعة، والحلم، والتواضع، والعلم، والصدق، والحياء، والوفاء، والسكون، والطمأنينة، والتأنِّي، فهو نورٌ مِن أنوار النبي ﷺ[(١)] .

أمَّا الطريقة؛ فلا يصل المريد إلى كنه حقيقتها ودقائقها إلاَّ ببركة توجِبُ مُرشداً وصحبة شيخ، وينبغي على المريد أنْ يسلك على يد شيخٍ واحدٍ، فالشيخ عبد القادر درس علوم الظاهر على يد كثيرٍ مِن العلماء، وقد مرَّ – بنا – ذِكرهم، ولمَّا أراد أنْ يسلك ويأخذ العهد؛ صحب الشيخ حماد الدباس، ولَبِسَ الخرقة مِن يد الشيخ أبي سعيد المخرمي، وهذه الحقيقة بيَّنها الإمام الشعراني بقوله : ((إعلمْ أنَّه لا يجوز لمريد أنْ يتَّخذ له إلاَّ شيخاً واحداً؛ لأنَّ ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مريداً قط أفلح على يد شيخين ...، وقال القشيري: وقد عجز الشيوخ عن أنْ يسيروا بمريد ومعه علاقة))[(٢)] .

فالطريق طويل وشاق، ولابدَّ له مِن دليل؛ يرشد السالكين؛ لكي لا تتفرَّقُ بهم السبل، والشيخ الأساس في الإرشاد والتربية؛ لذلك يقول: ((المشايخ هم الطريق إلى الله عليه السلام والأدلاَّء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه))[(٣)] .

ولأهمِّيَّة الشيخ في سلوك الطريق جعل الشيخُ الجيلاني له مكانةً عاليةً؛ تبيِّنُ – لنا – حقيقتَه وأهمِّيَّتَه، وأنَّه لا يُستغنى عنه، فيقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني نقلاً لكلام الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – : ((مَن لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلحُ أبداً))[(٤)]، ويقول: ((مَن أراد الفلاح فليَصِرْ أرضاً تحت أقدام الشيوخ))[(٥)] .

---

(١) أنظر: تربيتنا الروحية : سعيد الحوى، ص ٢٢، والجنيد البغدادي ومدرسته الصوفية: طارق سميان، رسالة ماجستير، ص ٢٠٦ .

(٢) الأنوار القدسية : الشيخ عبد الوهاب الشعراني، دار إحياء التراث العربي، ١/ ٦٤ – ٦٥ .

(٣) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٦٩ .

(٤) الأنوار القدسية، ١/ ١٧٤ .

(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٣٢، المجلس (٦٠) .

والشيوخ هم المنقطعون إلى الله عليه السلام؛ تركوا الدنيا وأهلَها، ولجأوا إلى الله وما عنده، فهم مصابيح ينيرون الطريق لأهل السلوك، إنَّهم أدلاَّء الخلق إلى الله بصحبتهم الفلاح والنجاة، ولهذا يقول الشيخ : ((إنْ أردتَ الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عليه السلام وعلمه؛ يعلِّمُك، ويؤدِّبُك، ويعرِّفُك الطريقَ إلى الله عليه السلام .

المريد لابدَّ له مِن قائدٍ ودليلٍ؛ لأنَّه في برية فيها عقارب وحيَّات وآفات وعطش وسباع مُهلِكة؛ فيُحَذِّره مِن هذه الآفات، ويدلّه على موضع الماء والأشجار المثمرة، فإذا كان وحده مِن غير دليل وقع في أرضٍ مسبعة وعرةٍ كثيرةِ السباع والعقارب والحيَّات والآفات))[1] .

❊ علامات المرشد الشيخ :

يشترط الشيخ عبد القادر فيمن جلس على كرسي المشيخة لمهمَّة التوجيه والإرشاد أنْ يتَّصف بصفات لابدَّ منها لمعرفة علوم الشريعة والحقيقة .

واستشهد بمقولة الجنيد - رحمه الله - : ((علمنا مضبوطٌ بالكتاب والسنة، فمَن لم يحفظ الحديث ويكتبه، ويحفظ الكتاب العزيز، ويتفقَّه في الدين ومصطلح الصوفية لا يُقتدى به))[2] .

ولابدَّ للمرشد أنْ يتَّسم بسمات الخير والتذلُّل لله، والتواضع للناس والاحسان إليهم، والعفو عن سيِّئهم، قال الشيخ الجيلاني - رحمه الله - : ((إخواني ما وصلتُ إلى الله – تعالى – بقيام ليلٍ ولا صيامِ نهارٍ، ولا دراسة علمٍ، ولكن وصلتُ إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصدر))[3] .

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٥٥، المجلس (٥٠) .

(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني، ١٣/ ٢٥٥، أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ٧٩، وتلبيس إبليس: ابن الجوزي، ص ١٥١ .

(٣) عنوان التوفيق في آداب الطريق: ابن عطاء الله السكندري (ت: ٥٧٨هـ) ص ٢١٢ .

ولابدَّ أنْ يكون الشيخ عالماً بالحلال والحرام، ورِعاً عن المحرَّمات والشبهات، غير معترض لِما لا يعنيه، عفيفاً، ظريفاً، ومتجنِّباً للكبائر، حسِنَ الخُلُق، حليماً، كريماً، لبيباً، صاحب بشاشة، وقوراً، عطوفاً، ساتراً لعيوب الناس، غافراً لزلاَّتهم، إنْ رأى فيهم سيئة دفنها، وإذا رأى حسنة أذاعها، يحبُّ الخير للناس، ولا يحبُّ أنْ تشيع الفاحشة فيهم، آمراً بالمعروف، ناهيهم عن المنكر، شفيقاً على تلاميذه، ومريديه كشفقة الوالد على أولاده، صادقاً في أقواله وأفعاله مُنصفاً مِن نفسه عادلاً في أحكامه، ناصحاً أميناً؛ يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، مخالفاً لهواه، متواضعاً للعلماء والمشايخ، حسناً في سيرته وصحبته وعشرته مع الخلق(١) .

ويرى الشيخ عبد القادر أنَّ الشيخ المرشد ((لا يجوز له أنْ يجلس على سجادة النهاية، ويتقلَّد بسيف العناية؛ حتى تكتمل فيه اثنتا عشرة خصلة : اثنتان مِن صفات الله – تعالى –، وهما: أنْ يكون الشيخ ستَّاراً غفَّاراً، واثنتان مِن صفات النبي ﷺ، وهما: أنْ يكون شفيقاً رفيقاً، واثنتان مِن صفات أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهما: أنْ يكون صادقاً متصدِّقاً، واثنتان مِن صفات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهما: أنْ يكون أمَّاراً نهَّاءاً، واثنتان مِن صفات عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهما: أنْ يكون طعَّاماً للطعام، مصلِّياً بالليل والناس نيام، واثنتان مِن صفات علي رضي الله عنه، وهما: أنْ يكون عالماً شجاعاً))(٢) .

وقد جمع الشيخ ما ينبغي أنْ يكون عليه المرشد؛ فقال(٣):

إذا لم يكن في الشيخ خمسُ فوائدٍ وإلاَّ فدجَّالٌ يقودُ إلى الجهلِ
عليمٌ بأحكام الشريعة ظاهراً ويبحثُ عن علم الحقيقة عن أصل
ويظهرُ للورَّاد بالبِشْر والقرى ويخضع للمسكين بالقول والفعل
فذاك هو الشيخُ المعظَّم قدره عليمٌ بأحكام الحرام مِن الحِلِّ

---

(١) أنظر: الطريقة القادرية العلية : حكيم محمد حسين، والغنية: الجيلاني، ٢/ ١٦٨ .

(٢) قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٣ .

(٣) الفتح المبين: ظهير الدين القادري، المطبعة الخيرية – مصر، الطبعة الأولى، ص ٢٨ .

يهـــذِّبُ طـــلاَّب الـطـريـق ونفســه   مـهـذَّبـةٌ مِـن قـبـلُ ذو كــرمِ كُلِّـــي

ومِن صفات المرشد أنْ يتطابق سلوكه مع ميزان الشرع، وأنْ يكون عالماً بالشريعة الإسلامية عارفاً بمسالك الطريق، وأنْ يكون قد تخرَّج على يد مُرشدٍ كاملٍ في حلقةٍ متَّصلةٍ بسيد الكون سيدنا محمد ﷺ وأنْ يكون الشيخ قد بلغ درجة البقاء بعد الفناء، وتنوَّر قلبُه بحقِّ اليقين، وأنْ يكون طبيباً للقلوب خبيراً بمداواة الأمراض المعنوية، ويحسُّ به مريدوه، فالشيخ مَن علَّمَك بقالِه، وأنهضكَ بحالِه، الشيخُ مَن أفاد الطالبَ وفتحَ المطالب، والشيخُ مَن كَمُلَ في ذاته، وكَمُلَ بصفاته، والشيخ مَن إذا حللتَ بحماه وجدتَ الغنى عمَّا سواه مِن الناس، والشيخ مَن يفيدك في الشهادة والغيب، ويطهِّرك بسرِّه مِن العيب[1] .

❋ ❋ ❋

(١) أنظر: ما هو التصوف؟ : النقشبندي، ص ٧٥ .

المبحث الثالث

المريد

قال الجرجاني: ((المريد هو: المجرَّدُ عن الإرادة، قال الشيخ محيي الدين بن عربي في (الفتح المكي) : المريد مَن انقطع إلى الله عن نظر واستبصار، وتجرَّد عن إرادته إذا علم أنَّه ما يقع في الوجود إلاَّ ما يريده الله – تعالى – لا يريده غيره، فيمحو إرادته في إرادته، فلا يريد إلاَّ ما يريده الحق))[١] .

*** ماذا يجب على المريد المبتدئ ؟ :**

قال الشيخ – رحمه الله – : ((يجب على المريد المبتدئ في أول سلوكه أنْ يكون أساسه الاعتقاد السليم متمسِّكاً بالكتاب والسنة، والعمل بهما أمراً ونهياً كعقيدة السلف الصالح، وأنْ يصل إلى الله وإلى مرضاته بالقرآن، والسنة، والصدق . وبهذه السيرة وهذا السلوك يحصل للمريد مراده، فيحصل له علم الحقيقة، ولابدَّ أنْ تكون غايته في سيره هي مرضاة الله، بحيث لا يرفع قدماً ولا يضعها إلاَّ بالله ولله، وعليه أنْ يكون محبّاً للصالحين كلِّهم، يسعى إليهم يخدمهم؛ لأنَّهم هم زمرة الأحباب الذين سيكونون سبباً في دخوله معهم في حضرة أحباب الله))[٢]، يقول الإمام الغزالي – رحمه الله – : ((قد وجب على السالك أربعة أشياء)) :

الأول: اعتقادٌ صحيحٌ لا يكون فيه بدعة .

الثاني: توبةٌ نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة .

الثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحدٍ عليك حقٌّ .

(١) التعريفات: الجرجاني، ص ٢٠٨ .

(٢) الغنية: الجيلاني، ٢/ ١٤٢ .

الرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله – تعالى –، ثمَّ مِن العلوم الأخرى ما تكون به النجاة))[١] .

*** آداب المريد مع الشيخ :**

لقد تحدَّث الشيخ عبد القادر عن جملة مِن الآداب التي يجب مراعاتها لمن أراد أنْ يصل بسلوكه إلى الله؛ منها: ما يخصُّ الشيخ، ومنها: ما يخصُّ المريد، وإذا كان الشيخ حقّاً قد التزم بما يجب عليه مِن الآداب والواجبات وهو يتولى تربية السالكين وإرشاد المريدين؛ فإنَّ على المريدين مقابل ذلك واجبات؛ ينبغي للمريد أنْ يؤديها لشيخه وفاءً وإخلاصاً .

وهي أنْ يترك خالفته في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن، وإذا رأى الشيخ يتصرَّف في بعض الأحيان بما يخالف الشرع فعليه أنْ يستخبر منه تلميحاً لا تصريحاً، وعلى المريد إنْ رأى في شيخه عيباً أنْ يستره، وأنْ يعود بالتُهَمَة على نفسه، ويتأوَّل للشيخ في الشرع، فإنْ لم يجد له عذراً في الشرع استغفر له ودعا له بالتوفيق، وعلى المريد أنْ لا يعتقد أنَّ شيخه معصوم، ومِن الآداب أنْ لا يتكلَّم المريد بين يدي شيخه إلاَّ في حالة الضرورة، كما أنَّ عليه أنْ لا يتكلَّم عن مناقب شيخه في حضرته، وأنْ لا يفشي سرّاً مِن أسراره، وعلى المريد أنْ لا يضمر في قلبه سوءاً على شيخه، وأنْ يديم الملازمة له وعدم الانقطاع عنه، وأنْ يديم الصمت إلاَّ إذا سُئل فعليه أنْ يتظاهر أمام شيخه بالجهل .

ولهذا يقول الشيخ أبو مدين المغربي في قصيدته مبيِّناً ماذا يجب على المريد مِن الآداب مع شيخه؛ فيقول[٢]:

فاصحبهمُ وتأدب في مجالسهم — وخل حظك مهما قدموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائما معهم — واعلم بأن الرضا يختص من حضرا
ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل: — لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

(١) أيها الولد : الإمام الغزالي، ص ٣٥ .

(٢) أنظر: البرهان المؤيد، ص ٢٠٦ .

وكذلك لا ينبغي للمريد أنْ يبسط سجادته للصلاة بين يديه إلاَّ في وقت الصلاة، وعلى المريد أنْ لا يتحرَّك في حال السماع بين يدي شيخه إلاَّ بإشارة منه[1] .

* * *

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٤٣ .

[الفصل الثاني]

التصوف

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

* التمهيد
* المبحث الأول: تعريفه واشتقاقه وحقيقته .
* المبحث الثاني: نشأته وتطورُّه
* المبحث الثالث: أقوال أهل العلم والسلوك بالتصوف.

التمهيد

خلق الله عليه السلام هذا الإنسان وجعله فريداً في نوعه، وقد حاول الكثير مِن الفلاسفة والمفكرين منذ القدم وضع تعريف كامل وشامل لكلِّ خصائص الإنسان، ولكنَّهم لم يتَّفقوا على تعريفهم للإنسان، فقد قيل: إنَّ الإنسان حيوان ناطق، وقيل: إنَّه مدني بالطبع، أو كائن اجتماعي، وقيل: إنَّه حيوان أخلاقي، وقيل: إنَّه حيوان متدين، وهنالك تعاريف أخرى كثيرة .

وبما أنَّه شاع في الفلسفة منذ القدم وصف هذا الكائن، بأنَّه حيوان ناطق، ويعني ذلك: أنَّه كائن عاقل؛ فإنَّ وصف الإنسان بأنَّه حيوان، أمرٌ يستدعي التأمُّل، وبما أنَّ حقيقة هذا الكائن ما لديه مِن علامات الحيوان، فهو كائن حي؛ يحسُّ ويتغذَّى وينمو ويتحرَّك ولديه دوافع قوية مثل دافع حب البقاء، والدافع الجنسي، وغير ذلك، ولكنَّ الإنسان مِن ناحية أُخرى إذا قارنَّاه بكثير مِن الحيوانات نجد أنَّها تتفوَّق عليه في أُمور كثيرة؛ كقوة البصر، وحاسة الشم لديه محدودة جداً، وسمعه قاصر، والأسلحة الطبيعية لديه كالمخالب؛ تكاد تكون معدومة، وغير ذلك .

وعلى الرغم مِن هذا القصور الظاهر لدى الإنسان بالقياس إلى الحيوانات فإنَّه قد أصبح سيد الطبيعة؛ لأنَّه يملك سلاحاً رهيباً هو العقل؛ الذي به استطاع أنْ يغيِّر شكل الحياة على الأرض، ويخضع لإرادته كلُّ شيء تقريباً في هذا الكون الذي سخَّره الله له، ومِن هنا كان وصف الإنسان بأنَّه كائن عاقل أو حيوان ناطق، وهكذا يتَّضح– لنا – أنَّ الإنسان رغم أنَّه مِن ناحية يمكن أنْ يوصف بأنَّه حيوان، إلاَّ أنَّه مِن ناحية أُخرى ليس مثله تماماً .

فالإنسان لديه القدرة على الارتفاع والسمو فوق ذلك كلِّه، فالذي يجعل الإنسان إنساناً ليس هو هذا الجانب المادي والحيواني إنَّ هناك شيئاً آخر هو الذي يجعله إنساناً، إنَّه العقل

والروح والنفس[١]، أو بمعنى آخر: هو كما قاله الإمام الغزالي - رحمه الله - : ((هي الصفة الباطنة التي يتميَّز بها الآدمي عن البهائم؛ حتى أدرك بها حقائق الأُمور))[٢] . ويعبِّر الغزالي عن ذلك في موقع آخر بقوله : ((إنَّها تلك الغريزة التي تسمى (النور الإلهي) ...، وقد تسمَّى (العقل)، وقد تسمى (البصيرة الباطنة)، وقد تسمى (نور الإيمان واليقين) ...، وهذه الغريزة خُلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلّها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم))[٣] .

ولَمَّا كان الإنسان حاصلاً على الشرف الذي مَنَّ به الخالق عليه السلام عليه بأنْ خلقَهُ بيديه، وسوَّاهُ، وعَدَلَه، وجعله في أحسن تقويم، ثمَّ أودعه النفخة الإلهية التي جعلت منه كائناً آخر يختلف عن كلِّ الكائنات؛ لهذا طلب الله عليه السلام مِن الملائكة أنْ يسجدوا لهذا المخلوق؛ كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٤] .

مِن هنا النفخة الإلهية التي أضافها الله عليه السلام لنفسه؛ أصبح للإنسان حياة روحية؛ تختلف عن حياته المادية، وإنْ كانت مرتبطة بها، وهذه الحياة قدر مشترك لدى كلِّ الناس منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة، وقد تمثَّلت هذه الحياة الروحية لدى الإنسان في صور مختلفة لدى الشعوب كلِّها، وفي العصور كلِّها .

تبيَّن - لنا - مِن هذا أنَّ التصوف - بمعنى: الحياة الروحية للإنسان مِن حيث هو إنسان - يعدُّ ظاهرة إنسانية عامة، وفطرة بشرية موجودة في العصور كلِّها، وفي الأديان كلِّها؛ نجدها لدى أتباع الديانات السماوية؛ كما نجدها لدى أتباع الديانات الوضعية؛ مثل البوذية، أو لدى بعض الاتجاهات الفلسفية؛ مثل الافلاطونية الحديثة، كما يمكن العثور على مثل هذه الميول في الهند القديمة، ولدى الصينيين القدماء .

---

(١) أنظر: مدخل إلى الفكر الفلسفي: بوخنسكي، ص ١١٣ .

(٢) إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي، ١/ ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) سورة الحجر: الآية ٢٩ .

مِن هذا قيل: أنَّ التصوف يمثِّلُ نهراً روحياً عظيماً؛ يسير عبر جميع الأديان[١]، غير أنَّ ما يميِّزُ هذه الظاهرة في الديانات السماوية هو الاتجاه المباشر نحو الله عليه السلام .

والتصوف – بوجهٍ عام – يعتبر فلسفة حياة، وطريقة معيَّنة في السلوك؛ يتَّخذهما الإنسان؛ لتحقيق كماله الأخلاقي، وعرفانه بالحقيقة، وسعادته الروحية . والتجربة الصوفية واحدة في جوهرها، والاختلاف يرجع في أساسه إلى تفسير التجربة ذاتها المتأثرة بالحضارة التي ينتمي إليها كلُّ واحدٍ منهما[٢] .

وتعتمد التجربة الصوفية بالدرجة الأولى على القلب، ومِن هنا يستعصي فهمها على العقل، ولكنَّ هذا لا يقلِّلُ مِن قيمتها وأهمِّيَّتها في حياة الإنسان، فلا ينبغي أنْ نعدَّ القلب؛ كما يقول إقبال: قوة خاصة خفية، إنَّه لا يعدو أنْ يكون أُسلوباً مِن الأساليب البشرية؛ لتحصيل المعرفة الحقيقية دون أيِّ تدخُّل مِن جانب الحس .

وقد صاحبت الرياضةُ الدينيةُ الإنسانيةَ منذ أقدم عصورها؛ كما تدلُّنا على ذلك الكتب المنزَّلة، والمؤلفات الصوفية للجنس البشري .

فمِن العسير – إذن – النظر إلى هذه التجربة باعتبارها وهماً مِن الأوهام، وليس هناك ما يبرِّرُ عدم تقبُّلنا للمستوى العادي للتجربة الإنسانية باعتباره حقيقة واقعة[٣]، وإذا كان التصوف بصفة عامة يعد – كما سبق – ظاهرة إنسانية؛ فإنَّ مصطلح التصوف – كما تعرِّفه اللغة العربية – خاص بما يُعْرَف بالحياة الروحية في الإسلام، وهناك – بطبيعة الحال – نظير هذا المصطلح في لغات الشعوب الأخرى .

(١) أنظر: مدخل إلى التصوف: التفتازاني، دار الثقافة – القاهرة (١٩٨٣م) ص ٣٧ .

(٢) أنظر: مدخل إلى التصوف: التفتازاني، ص ٣ .

(٣) أنظر: تجديد الفكر الديني في الإسلام: محمد إقبال، ص ٢٣ – وما بعدها .

المبحث الأول

تعريفه واشتقاقه وحقيقته

ليس هناك في الواقع تعريف واحد؛ نتَّفق عليه للتصوف بين الصوفية، أو بين المشتغلين بدراسة التصوف، وهناك أكثر مِن مئة تعريف للتصوف يعبِّر كل منها في الغالب عن ناحية خاصة مِن مناحي التصوف، أو تشير إلى وجهة نظر خاصة لصوفي معيَّن، أو إلى حالة غالبة على صوفي في وقتٍ مِن الأوقات، وهكذا تشكِّل الحالة الراهنة الغالبة على التصوف الأساس لفهم ما يقول . فكلُّ واحدٍ – كما يقول الطوسي –: يتكلَّمُ مِن حيث وقته، ويجيب مِن حيث حاله، ويشير مِن حيث وجده [١] .

وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزالي في (الإحياء) : ((فإنَّ عادة كلِّ واحدٍ منهم يخبر عن حال نفسه فقط))[٢]، وفي موقع آخر يقول: ((وهؤلاء أقوالهم تُعرب على أحوالهم، فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتَّفق...؛ لأنَّهم لا يتكلَّمون إلاَّ عن حالتهم الراهنة، الغالبة عليهم))[٣] .

وقبل أنْ نتعرَّف على أهمِّ تعريفات التصوف أودُّ أنْ أُشير وباختصار إلى الخلاف الكبير والجدل الكثير الذي أُثير حول الأصل الذي اشتُقَّت منه كلمة صوفي :

* **أولاً : أصل الاشتقاق :**

فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ كلمة (صوفي) مشتقة مِن (الصفاء)، وهذا يعني: أنَّ

(١) أنظر: اللمع : الطوسي، ص ١٥ . وقد أجاد الشيخ أبو الحسن الندوي في بيان حقيقة هذا المصطلح في تقديمه لكتاب (بين التصوف والحياة) لعبد الباري الندوي، ص ٣ – ١١ .

(٢) إحياء علوم الدين، ٤/ ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٨٥ .

الصوفي يعدُّ واحداً مِن خاصة أهل الله الذين طهَّر اللهُ قلوبَهم وصفَّاها مِن كدورات الحياة .

ذهب فريقٌ آخر إلى القول بأنَّ كلمة (صوفي) مشتقة مِن (الصف)، بمعنى: أنَّ الصوفي مِن حيث حياته الروحية في الصف الأول لاتصاله بالله .

وذهب آخرون إلى القول بنسبة (الصوفي) إلى (الصُفَّة)، وهذا يعني: أنَّ أصل التصوف متَّصل بأهل الصُفَّة، وأهل الصُفَّة - كما هو معروف - هو اسمٌ كان يُطلق على بعض فقراء المسلمين في صدر الإسلام؛ كانوا يأوون إلى صُفَّة بناها رسول الله ﷺ خارج المسجد بالمدينة؛ نظراً لأنَّه لم تكن لهم بيوت يأوون إليها .

وذهب بعض الباحثين إلى أنَّ كلمة (صوفي) مشتقة مِن (الصف الأول للصلاة)؛ لأنَّهم يحافظون على الصلاة في المساجد، ويأخذون الصف الأول منها .

بعد هذا فقد رفض كثير مِن الباحثين هذه الاشتقاقات؛ لأنَّ اللغة العربية لا تجيزها، وإنْ كان التصوف في حقيقة أمره يشتمل على كلِّ هذه المعاني المشار إليها؛ لوجوه نوجزها في الوجهين الآتيين:

الوجه الأول: ذهب أبو الريحان البيروني (ت: ٤٤٨هـ) قديماً، وبعض المستشرقين حديثاً إلى أنَّ لفظ (الصوفي) مأخوذ مِن أصل يوناني هو كلمة (سوفيا) اليونانية التي تعني: الحكمة، ويُرَدُّ على هذا الرأي بأنَّه لا يستقيم، وعدم استقامته تأتي مِن سببٍ بسيط، وهو أنَّ تسمية الصوفي كانت موجودة في العربية قبل ترجمة (الحكمة) اليونانية إلى العربية .

الوجه الآخر: أنَّ كلمة (صوفي) منسوبة إلى الصوف، وهذا الاشتقاق لا يخالف القياس اللغوي، وبه قال أبو نصر السرَّاج قديماً، حيث يقول : ((نسبوا إلى ظاهر اللباس؛ لأنَّ لبس الصوف كان دأب الأنبياء وشعار المتنسِّكين))[1] .

وأبو نصر السرَّاج هو صاحب أقدم كتاب عربي معروف في التصوف، وهو كتاب (اللمع)،

---

(١) اللمع: الطوسي، ص ٤١ .

وممَّا يؤيِّد هذه النسبة إلى الصوف نصوص عديدة مِن أقوال المؤلفين المسلمين؛ كما يقول المستشرق (نولدكه) – أيضاً –: فالمسلمون في القرنين الأولَين للإسلام كانوا يلبسون الصوف وبخاصة مَن كان منهم يسلك في حياته طريق الزهد، وكانوا يقولون: لَبِسَ فلانٌ الصوف، بمعنى: تزهَّدَ، ورغب عن الدنيا، فلمَّا انتقل الزهد إلى التصوف؛ قالوا: لَبِسَ فلانٌ الصوفَ؛ بمعنى: أصبحَ صوفياً[1] .

وإذا كانت كلمة الصوفي – بناءً على ذلك – تنتسب إلى الملبس، وهو مظهر وشكل؛ فليس معنى ذلك أنَّ التصوف مجرَّد مظاهر وأشكال .

وأيّاً ما كان الأصل الذي اشتقَّ منه مصطلح (الصوفي) و(التصوف)؛ فإنَّ العبرة ليست في المظهر، ولكن في المضمون الذي يشتمل عليه التصوف .

ومهما يكن مِن أمرٍ فالتصوف أشهر مِن أنْ يحتاج في تعريفه إلى قياس لفظ واحتياج اشتقاق . وعلى كلٍّ فإنَّنا لا نهتمُّ بالتعابير والألفاظ بقدر اهتمامنا بالحقائق والأُسس، فمِن قواعده وأُسسه ما يأتي:

١. تزكية النفوس .
٢. صفاء القلوب .
٣. إصلاح الأخلاق .
٤. الوصول إلى مرتبة الإحسان .
٥. الزهد .
٦. فهذا ما يسمَّى بالتصوف، أو الجانب الأخلاقي، أو الروحي في الإسلام[2] .

*** ثانياً: تعريف التصوف:**

التعاريف التي وردت في (التصوف) كثيرة؛ نذكر أهمَّها في الآتي:

---

(١) أنظر: اللمع : الطوسي، ص ٤١ .

(٢) أنظر: حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى، ص ١٢ .

تعريف الشيخ معروف الكرخي (ت: ٢٠٠هـ) حيث يقول: ((التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس ممَّا في أيدي الخلائق))[١] .

وعرَّفه الجنيد (ت: ٢٩٧هـ) بقوله : "التصوف: حفظ الأوقات"، وقال: "وهو أنْ لا يطالع العبد غير حدِّه، ولا يوافق غير ربِّه، ولا يقارن غير وقته"، وقوله : "التصوف: استعمال كلِّ خُلُقٍ سَنِي، وترك كلِّ خُلُقٍ دَنِي"[٢] .

ما قاله شيخ الإسلام زكريا الأنصاري - رحمه الله - (ت: ٩٢٩هـ) : ((التصوف: علمٌ تُعرَف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن؛ لنيل السعادة الأبدية))[٣] .

ما قاله الشيخ أحمد زروق - رحمه الله - : ((التصوف: علمٌ؛ قُصِدَ لإصلاح القلوب، وإفرادها لله – تعالى – عمَّا سواه؛ لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالاحكام، والأصول (علم التوحيد) لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان؛ كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان، إلى غير ذلك))[٤] .

وعرَّفه صاحب (كشف الظنون) بأنَّه : ((علمٌ يُعرَف به كيفية ترقِّي أهل الكمال مِن النوع الإنساني في مدارج سعادتهم))[٥]، إلى أنْ قال[٦]:

علمُ التصوفِ علمٌ ليس يعرفهُ إلاَّ أخو فطنةٍ بالحقِّ معروفِ
وليس يعرفه مَن ليس يشهدهُ وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوفِ

---

(١) الرسالة القشيرية، ٢/ ٤٤١ .
(٢) أنظر: النصرة النبوية : الشيخ مصطفى المدني، ص ٢٢، وتلبيس إبليس: ابن الجوزي، ص ١٤٧ .
(٣) أنظر: الرسالة القشيرية، هامش ص ٧ .
(٤) قواعد التصوف: أحمد بن العباس، الشهير بزروق الفاسي (ت: ٨٩٩هـ) ص ٦ .
(٥) كشف الظنون: حاجي خليفة، ١/ ٤١٤ .
(٦) المصدر نفسه، ١/ ٤١٤ .

ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله : ((إنَّ هذا العلم مِن علوم الشرعيَّة الحادثة – في المِلَّة – أصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمّة وكبارها من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم طريقة الحقّ والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله – تعالى –، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، والزّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عامّا في الصّحابة والسّلف. فلمّا فشا الإقبال على الدّنيا في القرن الثّاني وما بعده وجنح النّاس إلى مخالطة الدّنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصّوفيّة والمتصوّفة))[١] .

وهكذا يقرِّر ابن خلدون بنصِّه هذا أمرين :

الأول: إنَّ التصوف لم يكن في عهد رسول الله ﷺ، ولم يأت به الوحي، وإنَّما هو منهج قد حدث – أي: نشأ – وابتدع بعد ذلك .

والأمر الآخر: إنَّ هذا النوع مِن العبادة قد صار (عِلماً)، وينبغي أنْ نفهم مِن معنى (العلم) عندما يضاف إلى معنى يندرج فيه (مسائل)، أو (قضايا)، وقد حدَّ التصوف، ورسم، وفسر بوجوه؛ تبلغ نحو الألفين؛ مرجِعُ كلِّها لصدق التوجُّه إلى الله عليه السلام، وإنَّما هي وجوهٌ فيه [٢] .

ولن يتَّسع المجال لذكر جميع التعريفات التي قيلَت فيه، وبيان مضامينها .

ونختم التعاريف بتعريف الطوسي، وهو التعريف الجامع المانع، فيقول عن الصوفية : ((هم العلماء بالله وبأحكام الله، العاملون بما علَّمَهم الله – تعالى – المتحقِّقون بما استعملهم الله عليه السلام، الواجدون بما تحقَّقوا، القانعون بما وجدوا))[٣] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر): عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ) ١/ ٦١١ .

(٢) أنظر: التصوف في الميزان: مصطفى علوش، ص ٣٥ .

(٣) أنظر: تاريخ الفلسفة : إبراهيم مذكور، ص ٦٤ .

وقال: ((فكلٌّ واحدٍ منهم يتكلَّمُ مِن حيث وقته، ويجيب مِن حيث حاله، ويشير مِن حيث وجده))[١].

ونكتفي - هنا - بالإشارة إلى بعض الاتجاهات البارزة في تعاريف التصوف فقط، والتي منها:

* **الاتجاه الأول: الأخلاقي:**

لا جدال في أنَّ السموَّ الأخلاقي وتصفية النفس مِن الشرور والآثام، والارتفاع إلى أعلى درجات الكمال الخُلُقي يعتبر مِن الأمور الأساسية في التصوف، بل يجعلها البعض مُرادِفة للتصوف، ومِن هنا تستطيع فهم هذه النوعية مِن التعريفات التي تركِّز على الجانب الخُلُقي.

فأبو بكر الكتَّاني (ت: ٣٢٢هـ) يقول: ((التصوف: خُلُقٌ، مَن زاد عليك في الخُلُق فقد زادَ عليك في التصوف))[٢].

وسُئل أبو محمد الحريري (ت: ٣١١هـ) عن التصوف؟ فقال: ((الدخول في كلِّ خُلُقٍ سَنِي، والخروج مِن كلِّ خُلُقٍ دَنِي))[٣].

ويحدِّدُ أبو الحسين النوري (ت: ٢٩٥هـ) التصوف بأنَّه خُلُقٌ؛ فيقول: ليس التصوف رسماً ولا علماً، ولكنَّه خُلُقٌ، ويعلِّلُ ذلك بقوله: لأنَّه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكن تخلّق بأخلاق الله، ولن تستطيع أنْ تُقْبِل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم.

مِن هذا وذاك يتَّضح أنَّ جميع التعاريف تركِّز تركيزاً تامّاً على الجانب الخُلُقي بوصفه أساس التصوف وثمرته في الوقت نفسه، وعلى الرغم مِن أنَّ هذه الحقيقة لا مراء فيها إلاَّ أنَّ البعض يرى أنَّ هذه التعريفات غير كافية في الكشف عن حقيقة التصوف.

---

(١) اللمع: الطوسي، ص ١٥.
(٢) الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٤٤١.

فليس كلُّ مَن بلغ الدرجة العليا في الأخلاق الكريمة يعدُّ صوفياً، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

ومِن هنا لا يعدُّ سقراط الذي كان داعيةً للفضيلة في المجتمع اليوناني ومتمسِّكاً بالمُثُل العليا، لا يعدُّ صوفياً؛ كما لا يعدُّ الحسن البصري صوفياً، وقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقي وللسلوك المثالي[١] .

* **الاتجاه الثاني: الزُهدي:**

وإذا كان البعض قد سوَّى بين التصوف والخُلُق - كما مرَّ - اعتماداً على أقوال بعض الصوفية؛ فهناك - أيضاً - مَن ذهب إلى تعريف التصوف بالزهد، وفي أقوال الصوفية أنفسهم ما يؤيِّد ذلك .

فقد سُئل سحنون (ت: ٢٩٧هـ) عن التصوف؟ فقال: ((ألاَّ تملكَ شيئاً، ولا يملكُكَ شيءٌ))[٢] .

وقال أبو الحسن الحصري: التصوف: قطع العلائق، ورفض الخلائق، واتصالٌ بالحقائق .

وقال أبو علي الروذباري : ((الصوفي: مَن لبسَ الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى))[٣] .

وقال رويم: التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسُّك بالفقر والافتقار، التحقق بالذل والإيثار، وترك الترجي والاختبار .

وقال سهل التستري: التصوف: ((قلة الطعام، والسكون إلى الله، والفرار مِن الناس ونفسه))[٤] .

---

(١) أنظر: المنقذ مِن الضلال: الإمام الغزالي، تحقيق: عبد الحليم محمود، ص ٩٨ .
(٢) الرسالة القشيرية، هامش ١/ ٥٤ .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: ٣٨٠هـ) ص ٢٥ .
(٤) أنظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه : مِن مقدمة د. أبو العلاء عفيفي، ص ٤ .

ولعل تعريف التصوف بـ(الزهد) هو الأمر الذي يتبادر إلى ذهن الكثير مِن الناس، فالمتصوف رجلٌ زاهدٌ في الدنيا، راغبٌ عنها، لا يتعلَّقُ قلبُه بها . ولكن تعريف التصوف بـ(الزهد) لا يكفي للكشف عن حقيقته، فليس كلُّ زاهدٍ متصوفاً، وإنْ كان كلُّ متصوفٍ زاهداً .

ومِن ناحية أخرى نجد الزاهد غير الصوفي؛ هدفه الاستمتاع في الآخرة، أمَّا الصوفي؛ فإنَّه يزهد في الدنيا؛ لأنَّه يتنزَّه عن أنْ يشغله شيء عن الله .

الاتجاه الثالث: الصوفي والعابد :

ولا يكفي تعريف الصوفي بـ(العابد)، فالصوفي كثير العبادة، ومِن هنا يخلط كثيرٌ مِن الناس بين الصوفي والعابد، ولكن ليس كلُّ عابدٍ صوفياً؛ فهنالك فرقٌ بين عبادة الصوفي، وعبادة غير الصوفي .

فالصوفي يعبد الله؛ لأنَّه مستحِّقٌ للعبادة لا طمعاً في جنَّةٍ ولا خوفاً مِن نار .

ومِن هنا كان القول الذي يُنسب إلى رابعة العدوية : اللَّهمَّ إنْ كنتُ أعبدُكَ خوفاً مِن نارك فألقِنِي فيها، وإنْ كنتُ أعبدُك طمعاً في جنَّتك فاحرمنيها، وإنْ كنتُ أعبدك لوجهك الكريم فلا تحرمني مِن رؤيته .

ولعل خلط الناس بين الصوفي والعابد والزاهد هو الذي حدا بابن سينا إلى تحديد هذه المفاهيم؛ حتى تتَّضحَ الفروق بينها؛ حيث يقول في كتابه (الإشارات) : ((

المُعرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يخصُّ باسم الزهد .

المواظب على فعل العبادات مِن القيام والصيام ونحوهما يخصُّ باسم (العابد) .

المتصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سرِّه يخصُّ باسم العارف، والعارف عند ابن سينا هو الصوفي))[1] .

---

(١) أنظر: المنقذ من الضلال: الإمام الغزالي، ص ١٠٠ .

ومِن هذا يتضح أنَّ التصوف ليس مجرَّد خُلُقٍ أو زهد أو عبادة فقط، إنَّه كلُّ هذه المعاني مجتمعة ومعها شيء آخر وهو العرفان بالله، والاتصال به، والاقتراب منه، والشوق إليه، والفناء في حبِّه .

* ثالثاً : حقيقته :

قال الأستاذ محمد أبو زهرة : ((إنَّ التصوف في ظاهره يتضمَّن ثلاث حقائق)):

الحقيقة الأولى: محاربة الهوى والشهوة، والسيطرة على النفس، وكان المتصوفة يتَّخذون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلاً؛ إذ يقول : أيُّها الناس إقدعوا[1] هذه النفوس عن شهواتها؛ فإنَّها مريئة وبيئة؛ أي: الإنسان يستمرؤها، ولكن عاقبتها وخيمة .

الحقيقة الثانية : التي تتضمَّنها ظاهرة التصوف هي: الاتصال الروحي، ومخاطبة الوجدان والنفس .

الحقيقة الثالثة : أنَّ التصوف يقتضي في وقائعه التي نراها تابعاً ومتبوعاً وشيخاً ومريداً؛ يقتضي موجّهاً وشخصاً يوجه، يقتضي استواءً نفسياً وتوجيهاً نفسياً[2] .

* * *

(١) القَدْعُ : الكَفُّ والمَنْعُ قَدَعَه يَقْدَعُه قَدْعاً وأَقْدَعَه فانْقَدَعَ وقَدِعَ إذا كَفَّه عنه، وقَدَعْتُ فَرَسي أَقْدَعُه قَدْعاً كَبَحْتُه وكَفَفْتُه، والمقصود بها هنا: كُفُّوها عمَّا تَتَطَلَّعُ إليه من الشهوات . أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٥/ ٣٥٥١، مادة (قدع) .

(٢) أنظر: مجلة لواء الإسلام: العدد (١٠) عام (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م)، وندوة لواء الإسلام التصوفية وعلاقتها بالدين، ص ٦٤٥ - ٦٤٧ .

المبحث الثاني

نشأته وتطوره

بعد أنْ ألقينا نظرةً سريعةً على أهمِّ تعريفات التصوف ننتقل الآن إلى الحديث عن النقطة الأخيرة في هذا البحث حول نشأة التصوف الإسلامي .

لقد قيل كلامٌ كثيرٌ في هذا المجال، وحاول البعض الرجوع بالتصوف الإسلامي إلى أصول غير إسلامية كما لو أنَّ الأمر هو أنَّ الإسلام يخلو مِن حياة روحية، وأنَّه في حاجة إلى عملية تلقيح مِن عناصر أخرى، كما ذهب البعض إلى اعتبار التصوف بمثابة ثورة روحية في الإسلام، وقد سبق أنْ بيَّنَّا أنَّ الإنسان بما هو إنسان له حياة روحية؛ يتميَّز بها عن كلِّ ما عداه مِن المخلوقات، ولم يكن الإسلام – كدين – في يومٍ مِن الأيام في حاجة إلى ما يسمَّى بالثورة الروحية، ولسنا نميل إلى إطلاق لفظ الثورة على الدين الإسلامي رغم أنَّه قد قلب – بالفعل – موازين الحياة التي كانت سائدة عند ظهوره رأساً على عقب . فالإسلام دعوة ورسالة إلهية؛ أتى لخير البشرية في دنياها وآخرتها . ويميل كثيرٌ مِن الباحثين الأجانب إلى تجريد العقلية الإسلامية، وتجريد الدين الإسلامي نفسه، مِن كلِّ الصفات النبيلة، أو الجوانب الإبداعية؛ فإذا رأوا فيه شيئاً مِن ذلك سارعوا بنسبتها لأيِّ أصول غير إسلامية، وهذا ما حدث بالنسبة إلى العوامل التي أدَّت إلى نشأة التصوف الإسلامي .

فقد ذهب بعض الباحثين ولاسيما مِن المستشرقين إلى القول بأنَّ التصوف الإسلامي في صميمه يعدُّ حركة بعيدة عن روح الإسلام؛ أتت إلى المسلمين مِن الفرس، أو مِن الهند، وكانت بمثابة ردِّ فعلٍ للعقلية الآرية ضدَّ دينٍ؛ فرضه الغزاة المسلمون على أهل تلك البلاد .

وذهب آخرون إلى القول بأنَّ هذه الحركة استحدثت أصولها مِن الرهبنة المسيحية التي

وصلت إلى المسلمين؛ وهي تحمل في ثناياها ما تحمل مِن أفكار الافلاطونية الحديثة، والأفكار الغنوصية، والرواقية، وغيرها مِن أفكار كانت منتشرة في مصر والشام عند الفتح الإسلامي، وفي مقابل هذين الاتجاهين هناك الرأي الذي عليه غالبية المسلمين وهو الرأي الذي يقول بأنَّ التصوف الإسلامي قد نشأ مِن صميم الإسلام ذاته، وقد ذهب إلى ما يقترب مِن هذا الرأي (لوي ماسينيون) فقد قام ببحث مصطلحات الصوفية وإرجاعها إلى مصادرها الأولى، وانتهى في بحثه إلى أنَّ مصادر المصطلحات الصوفية أربعة :

* **أولها : القرآن، وهو أهمُّها جميعاً .**
* **ثانيها : العلوم العربية الإسلامية، كما الحديث، والفقه، وغيرها .**
* **ثالثها : مصطلحات الحكماء الأوائل .**

رابعها : اللغة العلمية التي تكوَّنت في الشرق في القرون الستة المسيحية الأولى مِن لغات أخرى؛ كاليونانية، والفارسية، وغيرها، وأصبحت لغة العلم والفلسفة[1] .

ومِن هنا يمكن القول: بأنَّ التصوف الإسلامي قد نشأ نشأةً إسلاميةً صِرفةً؛ فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فيهما مِن الإشارات العديدة، والتوجيهات الكثيرة؛ ساعدت على تنمية هذا الشعور الفطري بين كثيرٍ مِن المسلمين .

* **وقد مرَّت هذه النشأة بمرحلتين :**

الأولى : مرحلة تستوعب القرنين الأولين، وهي المرحلة التي عرفت بمرحلة الزهد، وأهم صفات وخصائص هذه المرحلة كان الإحساس الديني العميق، والشعور الغامر بالضعف الإنساني، والخوف الشديد مِن الله، والتفويض التام له، والخضوع لإرادته، ولم تكن هذه المرحلة تعبِّر عن حركة منظَّمة داخل أماكن معيَّنة مثل الزوايا، أو غيرها؛ ويعبِّر الحسن البصري عن جوهر هذه المرحلة، وهو واحد مِن أعظم أقطابها بقوله : ((ليس الزهد طعاماً ولا لباساً،

---

(١) أنظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه : د. أبو العلاء عفيفي، ص ٤ .

وإنَّما هو الخشوع لله))[١]، ويمكن القول بأنَّ الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) كان يمثِّل في هذه المرحلة تيار الزهد القائم على أساس الخوف مِن الله بينما كانت رابعة العدوية (ت: ١٨٥هـ) تمثِّلُ في القرن الثاني الهجري تيار الزهد القائم على أساس حبِّ الله تعالى[٢] .

ويصوِّر – لنا – الإمام القشيري السمات التي تتميَّز بها هذه المرحلة، والتطورات التي برزت فيها، فيقول: ((لم يتَّخذ الفضلاء مِن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لأنفسهم صفة يتَّصفون بها سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها؛ فقيل لهم : (الصحابة)، ولمَّا أدركهم أهل العصر الثاني سمِّي مَن صحب الصحابة (تابعين)، ورأوا في ذلك أشرف سمة .

ثمَّ قيل لَمن بعدَهم (أتباع التابعين)، ثمَّ اختلف الناس، وتباينت المراتب؛ فقيل لخواص الناس ممَّن له شدَّة عناية بأمر الله (الزهَّاد) و(العبَّاد)، ثمَّ ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكلُّ فريق ادَّعوا أنَّ فيهم زهَّاداً؛ أنفاسهم مع الله عليه السلام حافظون قلوبَهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين مِن الهجرة))[٣] .

وهكذا تأخَّر إطلاق مصطلح (الصوفي) و(التصوف) بالمعنى الذي نعرفه اليوم حوالي قرنين مِن الزمان بعد ظهور الإسلام؛ فقد كان الإقبال على الدين والزهد في الدنيا غالباً على المسلمين في الصدر الأول للإسلام، فلم يكونوا في حاجة إلى وصف يمتاز به أهل التقى، والعكوف على الطاعات، والانقطاع إلى الله، وقد طرأ على تيار الزهد تحوُّل واضح بعد أوائل القرن الثالث الهجري بعد أنْ عُرف الزهاد في هذه المرحلة باسم (الصوفية)؛ فقد اتَّجهوا إلى الكلام عن معانٍ ومفاهيم لم تكن معروفة مِن قبلُ، وتكلَّموا عن الأخلاق، والنفس، والسلوك، والأحوال، والمقامات، والمعرفة، والفناء، والاتحاد، والحلول، ووضعوا لذلك الضوابط النظرية؛ كما اتَّخذوا رسوماً عملية معيَّنة لطريقتهم، وأصبحت لهم لغة رمزية خاصة لا يشاركهم فيها سواهم،

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه : د. أبو العلاء عفيفي، ص ٦٩ .
(٢) أنظر: مدخل التصوف الإسلامي، ص ١٠٤ .
(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه : د. أبو العلاء عفيفي، ص ٦٩ .

وأطلق الصوفية منذ ذلك العصر وما بعده تسميات خاصة على علمهم ووصفوه بـ(علم الباطن)، و(علم الحقيقة)، وقد اكتمل التصوف الإسلامي، واستوى على سوقه خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، وقد ظهرت في هذين القرنين علامات لتيارين مختلفين:

الأول: تيار سني؛ يلتزم أهله بتعاليم المنهج الصحيح والشرع الشريف،

والثاني: شبه فلسفي؛ يتمسَّك أهله بالشيخ، والفناء، ويدَّعون الحلول والاتحاد، فالتيار الثاني اختفى في القرن الخامس الهجري، ووضعت ضوابط للتصوف الصحيح، ودعائم لمنهج السلوك بفضل رجال مِن أمثال الإمام القشيري والغزالي اللذين كان لهما فضل كبير في ترسيخ قواعده، وإزالة الشوائب والكدورات التي كانت تصاحبه وتهاجمه مِن جهات عدَّة؛ وبذلك بدأ التصوف السني ينتشر[1] .

ويشير ابن خلدون في تاريخه إلى هذا اللون مِن التصوف؛ فيقول: ((إنّ هؤلاء المتأخّرين من المتصوّفة المتكلّمين في الكشف وفيما وراء الحسّ توغّلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملئوا الصّحف منه مثل الهرويّ في كتاب المقامات له وغيره. وتبعهم ابن العربيّ وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنّجم الإسرائيليّ في قصائدهم))[2]، وقد تحدَّث ابن خلدون في هذا الصدد عن الموضوعات الأساسية التي اهتمَّ بها أقطاب التصوف الفلسفي، وأشار إلى بعض العناصر التي كان لها تأثير على تفكيرهم في هذا الصدد؛ ممَّا لا مجال لتفصيل القول فيه .

ولكن ظهور التصوف الفلسفي في القرنين السادس والسابع الهجريين لم يزحزح التصوف السني عن مكانه أو يحلَّ محلَّه، فقد انتشر التصوف الصحيح القاضي المستمد مِن الكتاب والسنة بكلِّ جزئياته بسبب ظهور أئمة هداة؛ كشفوا النقاب عن وجهه الناصع، وأبعدوا ما أصاب هذا المسلك الطاهر مِن شوائب دخيلة عليه؛ لم تكن مِن حقيقته، وكان على رأس هؤلاء الأئمة

(١) أنظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص ١١١، ٢٢٧ .

(٢) تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون،١/ ٦١٩ .

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي[1]؛ الذي بيَّن سموَّ مرتبة الصوفية الصادقين في إدراك الحقيقة، وإدراكهم مسالك الوصول إليها، وقد أوضح ذلك بقوله : ((ولقد علمتُ يقيناً أنَّ الصوفية هم السالكون لطريق الله، خاصة وأنَّ سيرتهم أحسن السِيَر، وطريقهم أصوب الطُرُق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق))[2]، ويعد كتابه (إحياء علوم الدين) مِن أهمِّ المصنفات الصوفية؛ حتى بلغ بكثيرٍ مِن العلماء أنْ قالوا في حقِّ هذا الكتاب : مَن لمْ يقرأ الإحياء فليسَ مِن الأحياء.

لذلك يعد منهج الإمام الغزالي - رحمه الله - مدرسة قائمة بذاتها؛ تفرَّعت عنها مدارس كثيرة، وأهمُّ هذه المدارس : المدرسة القادرية التي أرسى قواعدها وجمع شواردها إمامُ الحنابلة الشيخ عبد القادر الجيلاني[3]؛ الذي كان الأثر الواضح في ابتعاد الناس مِن ظلمات العقائد الزائفة إلى نور الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، ولم ينحصر دوره في الوعظ والإرشاد والتعليم على الأفراد فحسب، وإنَّما تعدَّى ذلك ليكون أثر إرشاده على المجتمع كلِّه حكَّامٍ ومحكومين، وقادةٍ ومقودين، وقد كان لتوجيهه الأثر البالغ في إيقاد جذوة الهمم في النفوس الخائرة ممَّا أدى إلى إرساء قواعد الدولة العباسية في ذلك العصر وحفظها مِن الانهيار بحفظ وحماية المجتمع القائم تحت ترهيبه مِن الفساد .

❊ ❊ ❊

(١) أنظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص ٢٨٥ - وما بعدها .

(٢) المنقذ من الضلال : الإمام محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ص ٤٩ .

(٣) أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس: ماجد عرسان الكيلاني، ص ١٧٧ .

المبحث الثالث

أقوال أهل العلم والسلوك بالتصوف

أولاً : قال الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – : ((مَن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومَن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومَن جمع بينهما فقد تحقَّق))[١] .

ثانياً : قال الإمام الشافعي – رحمه الله – : ((صحبتُ الصوفية؛ فلم أستفد منهم سوى حرفين – وفي رواية: سوى ثلاث كلمات –: قولهم : الوقت كالسيف؛ إنْ لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إنْ لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة))[٢]، وقال – أيضاً –: ((حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكم ثلاث: ترك التكلُّف، وعشرة الخلق بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوف))[٣] .

ثالثاً : الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – : فقد كان قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله – رحمه الله – : يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم صوفية؛ فإنَّهم ربَّما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه، فلمَّا صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم؛ أصبح يقول لولده : يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنَّهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلوِّ الهمَّة[٤] .

رابعاً : قال سهل بن عبد الله التستري (ت: ٢٨٣هـ) : ((أصولنا سبعة أشياء: التمسُّك

(١) شرح عين العلم وزين الحلم: علي القاري، ١/ ٣٣ .
(٢) تأييد الحقيقة العلية : السيوطي، ص ١٥ .
(٣) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّاً اشتهر مِن الأحاديث على ألسنة الناس: العجلوني، ١/ ٣٤١ .
(٤) أنظر: تنوير القلوب: أمين الكردي، ص ٤٠٥ .

بكتاب الله – تعالى –، والاقتداء بسنَّة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق))[١] .

خامساً : وقال أبو القاسم الجنيد البغدادي: ((التصوف: هو العلو إلى كلِّ خُلُقٍ شريف، والعدول عن كلِّ خُلُقٍ دنيء))[٢]، وقال: ((علمُنا مضبوطٌ بالكتاب والسنة، مَن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقَّه لا يُقتدى به))[٣] .

سادساً : وقال أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذي (ت: ٣٦٧هـ) : ((أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حُرُمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرُّخَص والتأويلات، وما ضلَّ أحدٌ في هذا الطريق إلاَّ بفساد الابتداء، فإنَّ فساد الابتداء يؤثِّرُ في الانتهاء))[٤] .

سابعاً : وقال الإمام النووي (ت: ٦٧٦هـ) : ((أصول طريق التصوف خمسة)) :

١. تقوى الله في السرِّ والعلن.
٢. اتِّباع السنة في الأقوال والأفعال.
٣. الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.
٤. الرضا عن الله في القليل والكثير.
٥. الرجوع إلى الله في السراء والضراء))[٥] .

---

(١) طبقات الصوفية: السلمي، ص ١٧٠ .
(٢) طبقات الصوفية : السلمي، ص ٣٢٨ .
(٣) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني، ١٣/ ٢٥٥، أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ٧٩، وتلبيس إبليس: ابن الجوزي، ص ١٥١ .
(٤) طبقات الصوفية : السلمي، ص ٣٦٥ .
(٥) المقاصد النووية : النووي، ص ٣٠ .

[الفصل الثالث]

التربية الروحية عند الشيخ عبد القادر

(الطريقة القادرية)

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

❋ التمهيد .

❋ المبحث الأول : أسس التربية الروحية .

❋ المبحث الثاني : كيفية الانتساب إلى الطريقة القادرية .

❋ المبحث الثالث : خصائص السلوك للطريقة القادرية .

❋ المبحث الرابع : رأي أهل العلم بالطريقة القادرية وما طرأ عليها .

تمهيد

سمِّيَت بـ**(الطريقة القادرية)** نسبةً إلى مؤسِّسها الشيخ عبد القادر الجيلاني[١]، ويعدُّ الشيخ عبد القادر المؤسِّسُ الأول والحقيقي للطرق الصوفية المنظمة[٢]، بشكلها الجماعي المتفاعل مع الذكر المجرَّد القائم على جمع شمل المريدين وارتباطهم بشيخٍ مرشد، مُرَبٍّ للنفس، مهذِّبٍ للسلوك؛ فأساسها الإخلاص، ومنهجها اتِّباع الكتاب الكريم، والحديث الشريف؛ فأصبحت الطريقة مناراً هادياً؛ تنير الطريق أمام السالكين، فاتَّخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً واضحاً بيِّناً؛ دخل بسببه كثيرٌ مِن أرباب الزيغ مِن غلاة التصوف في طريقته هذه؛ لِما تحمله مِن معانٍ روحية وسلوكية نابعة مِن صميم المنهج القويم الموصِل إلى الله، والذي أساسه الالتزام بالأحكام الشرعية .

إنَّ هدف الطريقة وغايتها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظلِّ المعراج الأحمدي، وتحت رايته بخطوات القلب وصولاً إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود، فالطريقة والتصوف سرٌّ إنساني رفيع، وكمال بشري سامٍ[٣] .

نالت الطريقة القادرية مكانةً ساميةً في نفوس المجتمع الإسلامي مِن أيام مؤسِّسها إلى يومنا هذا؛ لِما عُرِفَت بالصلاح والزهد، ولم يدخلها الغلو المعروف عند كثيرٍ مِن المتصوفة، فلم تُعهَد فيها النزعة القائلة بالوحدة ولا بالاتحاد ولا بالحلول، وأصبحت الحجر الأساس للتصوف المنظَّم، فأنشأت – لأول مرَّة – طريقة صوفية على أُسس علمية، وإلى مؤسسها يرجع الفضل في ذلك كلِّه؛ حيث مهَّد الطريق للَّذين ساروا على نهجه .

---

(١) أنظر: الأعلام: الزركلي، ٤/ ٤٧، ومجلة جوهرة الإسلام : العدد (٨) السنة السادسة، ص ٨٨ .

(٢) أنظر: الأعلام: الزركلي، ٤/ ٤٧، ومعجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ٥/ ٣٠٧ .

(٣) أنظر: أنوار الحقيقة: النورسي، ص ٤٩ .

وتهدف الطريقة القادرية إلى تربية المجتمع الفاسد الذي انطفأت في نفوس كثيرٍ مِن أهله جذوة الإيمان؛ نتيجةً لإعراضهم عن الله عليه السلام، وتكالبهم على الدنيا الفانية، وحطامها، فكانت مجالس وعظه وإرشاده لمريديه نافذة إلى قلوب الناس، وسيطرت على مشاعرهم؛ لأنَّ أساسها الصدق والإخلاص، فكانت مجالسه لا تخلو ممَّن يتوب على يديه مِن الضالِّين، وممَّن يدخل الإسلام مِن اليهود والنصارى[1] .

لقد مَنَّ الله عليه السلام على الشيخ عبد القادر الجيلاني بكرامات أجمعَ العلماءُ على صحَّتها، وكان مِن أعظمِها إحياء النفوس الميتة التي كانت تبيع آخرتَها بعَرَضٍ مِن الدنيا قليل؛ فقال – رحمه الله – في أحد مجالسه : ((لا تبع الدين بالتين، لا تبع دينَك بتين السلاطين والملوك والأغنياء وأَكَلَة الحرام، إذا أكلتَ بدينك اسودَّ قلبُك، وكيف لا يسودُّ وأنت تعبد الخلق؟، يا مخذول لو كان في قلبك نورٌ لفرَّقتَ بين الحرام والشبهة والمباح، وبين ما يسوِّد قلبَك وينوِّره))[2] .

لقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد السمات الرئيسة التي امتازت بها الطريقة القادرية، وهو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي؛ ولهذا تصدَّى الشيخ في تربيته وفي إرشاده وتوجيهه إلى المجتمع كلِّه حكام ومحكومين علماء ومتعلمين، وكان يهدف إلى إصلاح الفرد وتعبئته روحياً؛ ليعود مِن جديد؛ فيمارس دورَه في الحياة، وكان جُلُّ اعتماده في دعوته للإصلاح على تحقيق أمرين مهمَّين :

أولهما: اعتماد التعليم المنظَّم والتربية الروحية للمريدين .

وثانيهما: الوعظ والدعوة بين الناس[3] .

فقد انتقد الشيخ عبد القادر جميع سلبيات المجتمع؛ فبدأ دعوته للإصلاح بانتقاد الحكَّام،

---

(١) أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ٢٢ .

(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢١٧، المجلس (٥٦) .

(٣) أنظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين: الكيلاني، ص ١٨٥ .

وقد مرَّ بنا موقفه مِن الخليفة المقتفي لما ولَّى القاضي ابن المرخم، لقد كان- رحمه الله - يصدع بالحق مِن على منبر خطبته وكرسي وعظه، ولا يخاف السلطان، ولا يخشاه، وإنَّما كان يقول الحقَّ، ويعلو صوته به؛ فيقول - رحمه الله - : ((إنِّي أقول لكم الحقَّ ولا أخافُ منكم، ولا أرجوكم؛ أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذر؛ لأنِّي أرى الضُرَّ والنفع مِن الله عليه السلام لا منكم، المماليك والملوك عندي سواء أنكروا على أنفسكم وعلى غيركم بالشرع لا بالهوى والنفس والطبع، ما سكت الشرع عنه فوافقوه في سكوته، وما نطق به فوافقوه في نُطقِه))[1] .

وكانت طريقته مستمدَّة مِن الثوابت : الكتاب الكريم، والسنَّة النبوية المطهرة، ومبنية على العقيدة السليمة الصحيحة؛ فقد ظهر في عصره الكثير مِن الفِرَق المارقة الضالَّة التي انحرفت عن المسار الصحيح الذي سار عليه أهل الطريق مِن السلف الصالح؛ حيث شاعت الشطحات والادعاءات الباطلة؛ مثل الحلول، وإسقاط التكاليف الشرعية في حال الوصول، وانتشرت البطالة والكسل عند كثيرٍ مِن دعاة التصوف، وهذا يُفهَم مِن خلال كلامه وتوجيهه ونُصحِه؛ فقد قال في أحد مجالس وعظه : ((كلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحقِّ عليه السلام بجناحي الكتاب والسنة، أُدخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ اجعله وزيرك ومعلمك، دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه هو الحاكم بين الأرواح المربي للمريدين جهبذ المرادين أمير الصالحين))[2] .

وقال في مجلس آخر: ((ترك العبادات المفروضات زندقة وارتكاب المحظورات معصية لا تسقط الفرائض عن أحد في حال مِن الأحوال، يا غلام اعمَلْ بحكمة وعلم، ولا تخرج عن الخطة لا تنس العهد، جاهد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودنياك))[3] .

---

(١) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٩٤، المجلس (٥١) .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٥، المجلس (٤٤) .
(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٥٥، المجلس (١١) .

ومِن السمات الأساسية للطريقة القادرية : الإخلاص في طلب العلم، والعمل بالعلم الذي يتعلَّمه المريد، فكلُّ علمٍ لا يُعمَل به فهو وباء على صاحبه .

فطلب العلم فريضة؛ ينبغي أنْ يكون لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ولقد تجسَّد فكره العلمي في حثِّه للمريدين على العلم بقوله : ((لابدَّ مِن التعلم مِن الخلق أولاً، وهو مِن الحكم، ثمَّ مِن الخالق ثانياً، وهو العلم اللدنِّي، علمٌ يخصُّ القلوب، سر يخصُّ الأسرار، كيف تقدر تتعلم شيئاً بلا أُستاذ، أنت في دار الحكمة أُطلب العلم فإنَّ طلبه فريضة))[1] .

❊ ❊ ❊

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٢، المجلس (٤٩) .

المبحث الأول

أُسس التربية الروحية

لقد بيَّن الشيخ عبد القادر أُسس طريقته في ختام كتابه (الغُنية) فقال: ((ثمَّ نختم الكتابَ بذكر باب يشتمل على باب المجاهدة، والتوكل، وحُسْن الخُلُق، والشكر، والصبر، والرضا، والصدق، إذ هذه الأشياء السبعة أساسٌ لهذه الطريقة، والكلُّ خير))[١] .

*** أولاً : المجاهدة :**

ومِن الركائز المهمَّة التي بنيت عليها طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني في تربيته الروحية لتلاميذه ومريديه الجهاد؛ بنوعيه : جهاد الكفار أعداء الإسلام مِن المشركين والمرتدين، ويسمَّى بالجهاد الأصغر، والجهاد الأكبر؛ يعني: مجاهدة النفس .

المجاهدة في اللغة : المحاربة[٢]، وفي الشرع : ((محاربة النفس الأمَّارة بالسوء بتحميلها ما يشقُّ عليها بما هو مطلوب في الشرع))[٣]، وقيل: في استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب:

١. **مجاهدة العدو الظاهر .**
٢. **مجاهدة الشيطان .**
٣. **مجاهدة النفس .**

---

(١) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٢١ .

(٢) أنظر: دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون): القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، ٣/ ١٥٠ .

(٣) التعريفات: الجرجاني، ص ٢٠٤ .

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[٢] .

* **دليل المجاهدة مِن الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة :**

أولاً: مِن الكتاب الكريم : قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣]، يتبيَّن مِن هذه الآية أنَّ جهاد الكافرين قد شرع في المدينة المنورة، والآية هذه مكية، وهذا يدلُّ على أنَّ المراد مِن الجهاد – هنا –: جهاد النفس .

ثانياً: مِن السنة النبوية المطهرة : ما أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ("المجاهد مَن جاهد نفسه لله"، أو قال: "في الله")[٤] .

والمجاهدة في الشرع تعني بحدِّ ذاتها: مجاهدة النفس الأمَّارة بالسوء، ومهما تكن صحة حال السالك مِن حيث البداية، إلاَّ أنَّ وصوله بالسلوك إلى الغاية والنهاية لا يقدر عليه وهو مثقل بآثار النفس، فلابدَّ مِن إسقاط تلك الآثار، وتوديع نفسه بالكلية، وكما قال السراج: ((...، بلا نفس))[٥] .

وللصوفية مفهوم خاص للنفس الإنسانية مستمد مِن أصول شرعية وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٧]، كما استدلَّ القوم بالعديد

---

(١) سورة البقرة : مِن الآية ٢١٨ .
(٢) سورة الأنفال : مِن الآية ٧٢ .
(٣) سورة العنكبوت : مِن الآية ٦٩ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : أحاديث رجال مِن أصحاب النبي ﷺ، مسند فضالة بن عبيد الله الأنصاري، ٣٩/ ٣٧٥، برقم (٢٣٩٥٢) وقال عنه شعيب الأرناؤوط: ((إسناده صحيحٌ)) .
(٥) اللمع في التصوف: السراج الطوسي، ص ٤٣٦ .
(٦) سورة النساء : مِن الآية ٧٩ .
(٧) سورة يوسف : مِن الآية ٥٣ .

مِن الآثار النبوية؛ لينتهوا إلى القول: بأنَّ مطلق كلمة (النفس) إنَّما يراد بها : الطبيعة السيئة للنفس الأمَّارة، تلك النفس التي طبعت على الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب، فهي نافرة ناشزة كارهة[١]؛ تستثقل العبادة والسير في طريق النجاة[٢] .

وهي مودعة في هذا القالب احتوت على ما كان معلوماً مِن أوصاف العبد، وما كان مذموماً مِن أخلاقه، فهي عند القوم منبع كلِّ شر، ومصدر كلِّ إثم، وهي مُجْمِعة على تضييع الحقوق، والتملُّص مِن الواجبات، وهي القوة الجامعة لصفة الغضب والشهوة، وسائر الرذائل؛ لذا لابدَّ مِن مجاهدتها، وكسر شوكتها، وإطفاء لهيبها؛ حتى تستقيم على محاسن الأخلاق ومكارم الفعال، وتخضع لأمر الله عليه السلام ونهيه[٣] .

وللنفس أوصاف؛ يذكرها أبو طالب المكي بقوله : ((وجبلات النفس الأربعة هي أصول ماتفرّع من هواها وهي مقتضى ما فطرها عليه مولاها: أولها الضعف وهو مقتضى فطرة التراب، ثم البخل وهو مقتضي جبلة الطين، ثم الشهوة وموجبها الحمائم، الجهل وهو ما اقتضاه موجب الصلصال وهذه الصفات على معاني تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج ففيه بدء الأمت والإعوجاج، ذلك تقدير العزيز العليم، ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة: أولها معاني صفات الربوبية نحو الكبر والجبرية وحب المدح والعز والغنى ومبتلاة بأخلاق الشياطين مثل الخداع والحيلة والحسد والظنة ومبتلاة بطبائع إليها ثم وهو حب الأكل والشرب والنكاح وهي مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه))[٤] .

---

(١) أنظر: المسائل في أعمال القلوب والجوارح: الحارث المحاسبي، عالم الكتب، (١٩٦٩م) ص ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

(٣) أنظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد : محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ) ١/ ١٥٢، وإحياء علوم الدين: الغزالي، ٣/ ٤ .

(٤) قوت القلوب في معاملة المحبوب : أبو طالب المكي، ١/ ١٥٤ .

فتكون النفس هي مصدر كلِّ الأفعال المذمومة مِن المعاصي والأخلاق الرديئة[١].

ويفرِّق الصوفية بين النفس والروح، فإنْ كانت النفس هي محل الأوصاف المذمومة؛ فالروح هي نبع الأخلاق المحمودة [٢]، ولم يخرج الشيخ عبد القادر الجيلاني بمفهوم النفس عن الإطار الذي رسمه الصوفية، فمطلق كلمة (النفس) حين ترد عنده فالمراد بها النفس الأمَّارة بالسوء التي هي أعدى على صاحبها مِن إبليس؛ كما في الحديث الشريف : (أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) [٣]، وكان مِن دعائه ﷺ : (نعوذ بالله مِن شرور أنفسنا)[٤] . فهي عمياء خرساء جاهلة بربِّها[٥]، طبعها الركون إلى الرياء والنفاق وحب المدح، فيلاحظ أنَّ الشيخ عبد القادر يؤكِّد دائما-على محاربة النفس الَّمارة بالسوء؛ شأنه في ذلك شأن غيره مِن القوم أهل الطريق؛ لإماتتها، فمِن أقواله في هذا الجانب: ((فإذا دام المؤمن على هذه المجاهدة إلى أنْ يأتيه الموت ويلحق بربِّه عليه السلام بسيفٍ مسلول ملطَّخٍ بدم النفس والهوى أعطاه ما ضمن له مِن الجنة))[٦] .

---

(١) أنظر: كشف المحجوب : الهجويري، ترجمة: سعاد قنديل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٣٩٤هـ) ص ٢٦٥ .

(٢) أنظر: النور مِن كلمات ابي طيفور: السهلجي، ص ١٢٤ .

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسَرْوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى، ص ١٥٧، برقم (٣٤٤)، وقال عنه الحافظ العراقي: ((أخرجه البيهقي في كتاب الزهد مِن حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين)) . المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء مِن الأخبار: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل العراقي (ت: ٨٠٦هـ) ص ٨٧٨ .

(٤) مِن حديث أخرجه البيهقي في سننه الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسَرْوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، كتاب الجمعة، باب الإمام يقرأ على المنبر آية السجدة، ٣/ ٣٠٤، برقم (٥٨٠٣) .

(٥) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٨٧، المجلس (٥٠) .

(٦) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ١٤٤ .

وفي جواب له على سؤال وُجِّه إليه مرَّة في أحد مجالسه : ((النفس الخائنة كيف أقنع بفتواها؟ فأجاب: جاهدها حتى تموت، ثمَّ تحييها نشأً آخر فقيهة عالِمة مطمئنة؛ تغلق باب شهواتها ولذَّاتها، احبسها عن شهواتها؛ حتى إذا ذبلت رجعت شهواتها إلى سرك؛ فتصير قلباً بالمجاهدة))[1] .

وكان يقول: ((ينبغي للمؤمن أنْ يجاهد نفسه في تحسين خلقه، ويلزمها به؛ كما يجاهدها في بقية الطاعات، فإنَّ دأبها الكِبْر والغضب وحقارة الناس؛ جاهدوها حتى تطمئن، فإذا اطمأنَّت تواضعت وذلَّت، وحسُنَ خلقها، وعرفت قدرها، واحتملت غيرها، وقبل المجاهدة هي فرعونة، طوبى لمن عرف نفسه وعاداها وخالفها في جميع ما تأمره به؛ ألزِموها ذِكرَ الموت، وقد ذلَّت، وحسن خلقها؛ امنعوها الحظوظ، وأوفوها الحقوق، وقد ذلَّت وحسُن خلقها، وعرفت قدرها))[2] .

وخطر النفس على الإنسان يتزايد؛ بتحالفها مع جملة أعدائه، وهم : إبليس، وزخرف الدنيا، والأهواء التي تجرُّ الإنسان إلى مواطن الهلاك .

ولَمَّا كانت النفس على هذا النحو؛ كلها ظلمة، فهي عقبة في طريق الزاهدين[3]؛ فقد وجب على صاحبها العمل على مجاهدتها؛ لتخلص مِن صفاتها المذمومة، وترتقي عن مرتبة الأمر بالسوء، ويكون بذلك قد قام بأمر الله الوارد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4]، فإذا كانت ضرورة المجاهدة عامة لكلِّ إنسان؛ حتى لا تقوده نفسه لمتابعة الهوى وزخارف الدنيا، ووسعة الشيطان، فإنَّ هذا الأمر أولى في حقِّ السالك الذي رام الوصول إلى قُرب الحق، فالمجاهدة بالنسبة لهذا السالك واجب لا محالة له عنها، وإلى ذلك يشير الشيخ عبد القادر الجيلاني بقوله : ((مَن أراد سلوك طريق الحق

---

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٨٢، المجلس (٦٢) .
(٢) جلاء الخاطر، ص ٤٠ .
(٣) أنظر: رسالة المسترشدين: المحاسبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ص ١٠٢ .
(٤) سورة النازعات: الآية ٤٠ – ٤١ .

عليه السلام فليهذِّبْ نفسَه قبل سلوكه ...، فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها، وينطلق لسانها، وتسمع أُذُنُها، ويزول خبَلُها وجهلها وعداوتها لربِّها عليه السلام))[١] .

وطريق المجاهدة طويل وشاق؛ فالسالك كلَّما جاهد نفسه وكسر حدَّتها وقتلها بسيف المخالفة؛ أحياها الله مرَّةً أُخرى، فتعود لتنازعه، وتجنح لأمانيها، فيعود إلى المجاهدة مرَّةً بعد مرَّة، ويبقى السالك في هذه المعاناة الطويلة التي وصفها النبي ﷺ بـ(الجهاد الأكبر) حين قال: (قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ. قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ")[٢]، ويعني: جهاد النفس، ومِن خلال آثار الشيخ عبد القادر الجيلاني وسيرته الذاتية يمكننا أنْ نستدل على أساليب جهاد النفس التي أشار إليها، وألزم بها نفسه، وهي:

قطع مألوف العادات: تألف النفس بعض العادات وترتاح إليها؛ حتى يمسي صاحبها أسيراً للعادة ذليلاً لها، لا يملك الإفاقة مِن سيطرة ما تألفه النفس، فتتواتر عليه الآفات؛ فيقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: ((دخلت الآفة مِن ثلاث: سُقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة ...، فكلَّما هاجت في النفس شهوة يتبعها صاحبها))[٣]، ومِن هنا كان باب المجاهدة لا يفتح إلاَّ بقطع النفس عمَّا لازمته مِن عادات، وخروج السالك بنفسه مِن معهود المأكل والمشرب والملبس، والوقوف معها على ما دعا إليه الشرع، وما أمر به اللهُ تعالى[٤]؛ فيكون المتصرف هو الخالق عليه السلام لا النفس الأمارة بالسوء ...، وآنذاك يتحرَّر السالك الصادق مِن عبادة العادة، وتصير لديه العبادة عادة .

---

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٨٧، المجلس (٥٠)، مع تصرُّف يسير .

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسَرْوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى، ص ١٦٥، برقم (٣٧٣)، وقال عنه : ((هذا إسنادٌ ضعيف)) .

(٣) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٢٣ .

(٤) ينظر: فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٢٧ .

المخالفة : إذا كان للعادة أثرها البالغ في ركون النفس إلى الدنيا، فإنَّ للهوى والأماني أثراً أبلغ على النفس؛ فقد طبعت النفس على الهوى والضلال، وجبلت على التمني وحبِّ الشهوات، ولهذا حذَّرت الآيات القرآنية مِن متابعة الهوى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[3] .

ومخالفة هوى النفس عند الشيخ عبد القادر الجيلاني أصل المجاهدة، بل إنَّه يستخدم لفظة أشدّ مِن المخالفة؛ فيقول: (الخصومة) فبالخصومة تتحقَّقُ عبوديتُك لله[4] .

وهذا النوع مِن المجاهدة يكون برفض ما تهواه النفس مِن أمان، وإلزامها بما يشقُّ عليها، وليس أشقَّ على النفس الأمَّارة مِن أُمور العبادة، وكان الصوفية يقهرون هوى النفس بإذابتها على مشعل العبادة، فكان الواحد منهم يقوم الليل بطوله عابداً متهجِّداً، ولمجاهدة النفس عند أهل السلوك عشر مقامات : ((الأول: العزلة عن الجهلة، الثاني: ترك التلفظ بالباطل واللغو، الثالث: الإعراض عن المنكر، الرابع: السعي بالمستحبَّات، الخامس: السرور بالخيرات، السادس: الاستقامة على التقوى، السابع: ملازمة الصالحين، الثامن: الإيثار بالموجود على الإخوان، التاسع: طلب الغنى وتصفية القلب، العاشر: مجاهدة النفس على مخالفة المألوفات))[5] .

الرياضة: مشتقة مِن الروض: وهو الكسر، في المصطلح الصوفي؛ حيث أشار إلى ذلك الحكيم الترمذي، ويرى القوم أنَّ أصول رياضة النفس أربعة: الجوع، والصمت، والسهر، والخلوة؛ حيث يشير سهل التستري بقوله : ((ما صار الأبدال أبدالاً إلاَّ بأربع خصال: بإخماص

(١) سورة ص : مِن الآية ٢٦ .
(٢) سورة النجم : مِن الآية ٢٣ .
(٣) سورة الكهف : مِن الآية ٢٨ .
(٤) أنظر: فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٢٤ .
(٥) الأنوار البهية باختصار البدور الجلية : نور الدين البريفكاني، ص ٢٦ .

البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس))[١]، وقيل : هي تهذيب الأخلاق النفسية. وتهذيبها : تمحُّصها عن خلطات الطبع ونزعاته[٢] .

وقد تعرَّض الشيخ عبد القادر الجيلاني لهذه الرياضات بإشارات عديدة في كلامه لأهلِ مجلسه، وفي وصاياه لمريديه، وفي إخباره عن أحواله عند بداية سلوكه ومجاهدته [٣]، وهو يصف السالك الصادق بأنَّه لا يأكل إلاَّ عند الفاقة (الجوع) ولا ينام إلاَّ عند الغلبة (السهر) ولا يتكلَّم إلاَّ عند الضرورة (الصمت، ويقول الشيخ عبد القادر للسالك : ((عليك بالخلوة عن النفس، ثمَّ بالخلوة عن الخلق، ثمَّ بالخلوة عن الدنيا، ثمَّ بالخلوة عن الآخرة، ثمَّ بالخلوة عمَّا سوى المولى))[٤] .

وقد أضاف الشيخ عبد القادر الجيلاني السياحة والسفر على التجريد، واعتبر تحصيل دقائق العلوم نوعاً مِن الرياضة الروحية ومجاهدة النفس الجاهلة .

المحاسبة والمراقبة : محاسبة النفس في المفهوم الصوفي وسيلة لحفظ الحال مِن التردِّي في المذمومات، فالسالك يقف دوماً عن نفسه موقف الحذر، ويتَّهمها في كلِّ ما تدعو إليه؛ حتى لا تسلك في غفلة إلى ضلالاتها؛ التي سيحاسبه الله حتماً عليها، فالسالك يعمل بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((حاسبوا أنفسكم قبل أنْ تحاسبوا))[٥]، والمراقبة في رأي الشيخ: عِلمُ العبد باطِّلاع الربِّ عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربِّه؛ فيجب على المريد أنْ يعلم أنَّ الله عليه السلام منه قريب؛ يسمع أقوالَه، ويرى أفعالَه، ويعلمُ أحوالَه، ولا تتمُّ المراقبة إلاَّ بأربع خصال: الأولى: معرفة الله عليه السلام، الثانية : معرفة عدو الله إبليس، الثالثة : معرفة

(١) أسرار مجاهدة النفس : الحكيم الترمذي، ص ٦٣ .

(٢) أنظر: إحياء علوم الدين : الغزالي، ٣/ ٧٥ .

(٣) أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ٣٦، وبهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٨٥ – ٨٦ .

(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٩٣، المجلس (٢٠) .

(٥) الزهد والرقائق لابن المبارك : عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المَرْوزي (ت: ١٨١هـ) ١/ ١٠٣، وحلية الأولياء : الأصفهاني، ١/ ٥٢ .

النفس الأمَّارة بالسوء، الرابعة : معرفة العمل لله عليه السلام؛ لأنَّه لو عاش المرء دهراً طويلاً في العبادة والمجاهدة وهو على جهل بمعرفة حقيقة العبادة وغايتها لم تنفعه هذه العبادة إلاَّ أنْ يتفضَّلَ اللهُ عليه برحمته، ثمَّ يأخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني بشرح هذه الخصال:

الأولى : معرفة الله عليه السلام : وهي تشمل إلزام العبد قلبَه أنَّ الله عليه السلام منه قويبٌ مطَّلِعٌ على سرائره وخفاياه، قادرٌ عليه شهيدٌ عليم به، يسمع ويرى، وأنَّه تعالى ماجدٌ واجدٌ لا شريك له في مُلكِه وحُكمِه، صادق الوعد والوعيد، له ثوابٌ وعقاب وتخويف وتهديد، ليس له شريكٌ ولا نظير ولا مثيل ولا شبيه، يعلم الخطرات والوساوس والإرادة .

فإذا علم العبد هذه الأمور وتيقَّنها قلبُه، ولزمه كل عضو منها، وكل جارحة ثبتت فيه المحاسبة ووصلت إليه المعرفة، وقامت عليه الحجة، فلا يفارق قلبه الحذر؛ فهو بين خوفٍ ورجاء، ولا يتخلَّى عن الحياء مِن الله؛ لقربه منه [1]، فيصبحُ العالم القائم بما يحبُّ الله منه والنازل له عمَّا يكرهه منه، فلا تكون منه خطرة ولا لحظة ولا وسوسة ولا إرادة ولا حركة ظاهراً ولا باطنياً إلاَّ وعلم الله عنده قائم في قلبه قبل الخطرات والحركات والوساوس، وهو مقام العلماء بالله عليه السلام الخائفين العارفين الأتقياء الورعين[2] .

الثانية : معرفة عدو الله إبليس : فالله عليه السلام أمرَنا بمحاربة إبليس وعدَّه – لنا – عدوّاً؛ فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[3]؛ لذلك أمرنا بمحاربته في السرِّ والعلن في الطاعة والمعصية، وهو عدوُّنا وعدوُّ أبينا آدم عليه السلام، وهو الذي توعَّدنا بالغواية والإضلال؛ لذا فالخديعة والمكر دأبُه – لعنه الله –، والمكر والحيلة ديدنه وشَرَكه الذي يصطاد به بني آدم المغرورين والمخدوعين والكثير مِن الغافلين؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٦١ .

(٢) أنظر: المصدر نفسه، ٢/ ١٦١ .

(٣) سورة فاطر: مِن الآية ٢ .

ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾[١]، وقال عليه السلام : ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٢]، فإذا أصبحت هذه الأمور واضحة أمام العبد لزم عليه أنْ يجاهد هذا العدو بكلِّ ما يملك مِن إيمان ويقين متوكِّلاً على الله ربِّ العالَمين .

الثالثة : معرفة النفس الأمَّارة بالسوء : وهي التي تميل إلى فعل السوء وتشتهيه؛ قال تعالى حكايةً عن امرأة العزيز : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾[٣] .

ومِن هنا ربَّى الشيخ عبد القادر تلاميذَه ومريديه على هذه المعاني، وعلَّمَهم كيف يكبحون جِماحَ نزواتهم، وطغيان نفوسهم بالجوع والسهر، ولبس الثياب الخَلِقَة؛ زجراً لها وتأديباً، فقد قال - رحمه الله - : ((كلَّما جاهدتَ النفسَ وغلبتَها وقتلتَها بسيف المجاهدة أحياها الله عليه السلام، ونازعتْكَ، وطلبتْ منك الشهوات واللذات المحرمات منها، والمباح لتعود معها إلى المجاهدة والمقاتلة؛ ليكتب الله لك نوراً وثواباً دائماً، وهو معنى قول النبي ﷺ : (رجعنا عن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[٤] .

وكذلك يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّ المحاسبة للنفس هي طريقة حفظ الإرادة؛ فعلى السالك إنْ خطر بباله أمرٌ أو دعته نفسه إلى شيء أنْ لا يتعجَّل بالسعي فيما بدا له، فيترفق بترسُّل العلماء[٥]، وهناك مسألة مهمَّة أكَّد عليها الشيخ - رحمه الله - وهي في غاية الأهمية ألا وهي ضرورة المداومة على المجاهدات، ولهذا بيَّن الشيخ لمريديه مِن أهل الطريق قائلاً لهم : ((لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم))[٦] .

---

(١) سورة النحل: مِن الآية ١٠٠ .
(٢) سورة فاطر: مِن الآية ٦ .
(٣) سورة يوسف: مِن الآية ٥٣ .
(٤) سبق تخريجه في ص ١٨٨ مِن هذا الكتاب .
(٥) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٣٢ .
(٦) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٤٦، المجلس (٦٢) .

الرابعة : معرفة العمل لله تعالى : ويكمن في أنْ يعلم العبد أنَّ الله أمره ونهاه؛ أمَرَهُ بطاعته ونهاه عن معصيته، أمرَه بالتقوى والورع وصِدق النية، ونهاه عن المعاصي ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي والذنوب ظاهراً وباطناً[١]، فإنْ خطر بباله أمرٌ أو دعته نفسه إلى شيء أو تحرَّك بحركة؛ فلا يعجلنَّ دون المعرفة والعلم؛ ليرفق بنفسه ويجالس الفقهاء العالِمين بالله وبأمره ونهيه؛ حتى يدلُّوه على طريق الله عليه السلام، ويعرِّفوه ذلك[٢] .

*** خصال المجاهدة :**

ذكر الإمام الجيلاني في كتابيه (الغنية) و(فتوح الغيب) عشر خصال لأهل المجاهدة والمحاسبة، ودعا تلاميذه والسالكين مِن أهل الطريق إلى أنْ يقوموا بإقامتها وتطبيقها على أنفسهم، وهي:

١. أنْ لا يحلف المريد بالله مطلقاً صادقاً ولا كاذباً .
٢. أنْ يجتنب الكذب هازلاً وجادّاً .
٣. عدم إخلاف الموعد .
٤. الحذر مِن إيذاء الخلق ولعنهم .
٥. تحمُّل ظلم الخَلق واجتناب الدعوة عليهم .
٦. أنْ يحسن الظنَّ بأهل القبلة، والحذر مِن الشهادة على أحدٍ منهم بكفرٍ أو نفاق .
٧. أنْ يكفَّ قلبَه وجوارحه عن المعاصي طلباً لمرضاة الله .
٨. أنْ يرفع المؤنة عن الخلق والاستغناء عمَّا في أيديهم، وأنْ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .
٩. قطع الطمع عن النفس والانقطاع إلى الله .

---

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٦٣ .
(٢) أنظر: المصدر نفسه، ٢/ ١٦٣ .

١٠. التواضع[١] .

* **الغاية مِن المجاهدة :**

يقصد بالمجاهدة : التنقُّل في الأحوال والمقامات؛ حتى يصل السالك إلى منتهاه، وهو رضاء الله ورضوانه .

ماذا تعني المقامات والأحوال ؟ :

أصبحت الأحوال والمقامات مِن المصطلحات الصوفية، ولا يخلو كتابٌ صوفي مِن هذين المصطلحين .

فالمقام في اللغة : اسم مكان مِن الفعل (أقام) ويعني: موضع القيام؛ كالمدخل؛ يعني: الإدخال، والمخرج؛ بمعنى: الإخراج[٢] .

أمَّا (المقام) اصطلاحاً : فهو مقام العبد بين يدي الله عليه السلام فيما يقام فيه مِن العبادات والمجاهدات والرياضات، والانقطاع إلى الله عليه السلام [٣]؛ قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[٤]، وقوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾[٥]، وقد يكون المقام حسيّاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[٦]، وقد يكون معنوياً؛ كقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٧] .

إنَّ مقام العبد بين يدي الله بقاءه معلَّقاً به مِن خلال ما يؤدِّيه مِن عبادة ومجاهدة ورياضة

---

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٦٢ .
(٢) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٢/ ١١٢٥، مادة (خرج) .
(٣) أنظر: اللمع: الطوسي، ص ٦٥ .
(٤) سورة إبراهيم: مِن الآية ١٤ .
(٥) سورة الصافات: الآية ١٦٤ .
(٦) سورة البقرة: مِن الآية ١٢٥ .
(٧) سورة الإسراء : مِن الآية ٧٩ .

نفسية وروحية، والتفرُّغ لعبادته وحده، فالمقام في هذا الموضع بمعنى: الثبوت والاستقرار[١] .

إذن أخذ القوم لفظ (المقام) مِن القرآن الكريم؛ إذ ورد بمعنى: الموضع والمنزلة منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣] .

فأشاروا في هذه الآيات إلى المواضع والمنازل الروحية التي يسكن فيها السالك إلى الله في رحلة عروجه لِباب الحضرة الإلهية، وما يتحقَّق به مِن آداب وأخلاق وأذواق .

ويطلق الصوفية مصطلح (المقام) على الدرجة التي ينالها السالك لطريق الله عليه السلام[٤]؛ فهي منازل يرتقيها العبد منزلةً بعد أُخرى؛ حتى يصل غاية منتهاه، فالسالك لا يمكن أنْ يتحقَّق في مقامٍ مِن المقامات إلاَّ إذا كان مشتغلاً بالرياضة له، وهو بهذا يكون كسباً له؛ يقول القشيري: ((المقام : ما يتحقَّق به العبد بمنازلته مِن الآداب ممَّا يتوصَّل إليه بنوع تصرُّف بضروب تطلب، ومقاسات تكلف، فمقام كلِّ واحد موضع إقامته مِن ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له[٥]؛ قال الجنيد : ((لا يبلغ العبد إلى حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد؛ حتى يعبر الأحوال والمقامات))[٦] .

وممَّا يُفهَم مِن كلام القشيري أنَّ المقامات تكون متتالية؛ فلا يمكن لسالك أنْ ينتقل مِن مقامٍ إلى آخر؛ حتى يستوفي أحكام المقام السابق عليه، ويفهم مِن كلام الجنيد البغدادي أنَّ المقامات مراحل تأهيلية للسالك إلى الله عليه السلام لابدَّ مِن تجاوزها؛ لينهل مِن معين المعرفة الحقيقية، ويرى السراج – رحمه الله – : ((أنَّ المقام مقام العبد بين يدي الله عليه السلام فيه مِن العبادات

(١) أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ١٥٤ .
(٢) سورة الدخان : الآية ٥١ .
(٣) سورة الرحمن: الآية ٤٦ .
(٤) أنظر: ما هو التصوف؟ : أمين النقشبندي، بغداد (١٩٨٨م) ص ٨٧ .
(٥) أنظر: الرسالة القشيرية : ١/ ١٥٣ .
(٦) اللمع: السراج الطوسي، ص ٤٣٦ .

والمجاهدات والرياضات))[١]، وعلى هذا فإنَّه يتماشى مع مفهوم ابن عطاء الله الاسكندري (ت: ٧٠٩هـ) للمقام؛ إذ قال: إذا أردت أنْ تعرف مقامك فانظر فيما أقامك، وعلى مقتضى هذا الكلام فلابدَّ للعبد مِن إتقان متطلبات المقام الذي أقامه الله فيه .

أمَّا نظرة الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى المقامات؛ فلم يخرج عن هذا المفهوم في حدِّ ذاته، ولكنَّه يرى أنَّ هذه المقامات لابدَّ مِن تجاوزها جملةً واحدةً؛ لوجود الترابط بين هذه المقامات كلِّها، ومِن ذلك قوله : ((إذا أردتَ أنْ تكون متوكِّلاً واثقاً فعليك بالصبر؛ لأنَّ الصبر في أول أمره اضطرار، وفي الثاني اختيار، وسكون بلا حركة؛ كذلك فالشكر للتوكل لازمٌ؛ فلا يطَّلع السالك إلى ما لم يقسمه الله له، بل تحت مجاري الأقدار راضياً شاكراً في توكُّله))[٢]، ويقول في موضعٍ آخر: ((إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الصبر، واسكن حتى يجيء الدواء، فإذا جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر))[٣] . ففي هذين النصَّين دليلٌ واضحٌ على أنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني يرى أنَّ المقامات متداخلة، ولابدَّ مِن التحلي بها جملةً واحدةً، ومِن ذلك الصبر والشكر والتوكل. وقال – أيضاً –: ((لازِم الصبرَ، وخالِف الهوى، وعانِق الأمرَ، وارضَ بالقضاء، وارج بذلك الفضل والعطاء))[٤]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥] .

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّ الأحوال والمقامات هي عبادة القلب، فإذا كانت مِن الجسد فهي أعمال ظاهرة مِن حيث الجوارح فإنَّ للخواص أعمالَهم الباطنة مِن حيث القلوب والأسرار[٦] .

---

(١) اللمع : السراج الطوسي، ص ٦٥ .
(٢) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٣٨ – ٣٩ .
(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٠، المجلس (١) .
(٤) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٥٢ .
(٥) سورة الزمر: مِن الآية ١٠ .
(٦) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٥٢، المجلس (٦٢) .

* **الأحوال:**

الحال: سمِّي حالاً لتحوُّله، وعدم استقراره، وعدم ثباته، وهو عكس المقام[١].

ومفهوم (الحال) في التصوف هو: معنى يَرِدُ على القلب مِن غير تصنُّع ولا اجتلاب ولا اكتساب مِن طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه الملل أو لا، فإذا دام وصار ملكاً يسمَّى مقاماً، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب[٢]، والحال: منازل تنزل في القلوب ولا تدوم، والفرق بين الحال والمقام: أنَّ المقام مُكتَسَب؛ يحصل ببذل المجهود في مراحل يرتقيها المريد في طريقه إلى التمكين، ويتحقَّق العبد في المقام[٣].

والمقامات تُنال بمجهود السالك إلى الله، أمَّا الأحوال؛ فهي تبقى رُتَباً ومشاعر روحية، لا يملك الشخص مِن أمرها شيئاً، وليس الحال عن طريق المجاهدات والعبادات والرياضات؛ كالمقامات، بل هي نازلة تنزل في القلوب فلا تدوم[٤].

وأول مَن تحدَّث في الأحوال والمقامات في بغداد هو الإمام السري السقطي؛ إذ جعلها موضوعاً مهمّاً في درسه وسلوكه وتربيته لمريديه، والمتعلمين عنده والسالكين عليه، وقد شهد المؤرِّخون لهذا الإمام أنَّه أدَّى دوراً مهمَّاً في هذا المجال، فكان له السبق في هذا الميدان، إذ ركز دعائم التصوف؛ يقول السلمي عنه: ((أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد، وتكلم في علوم الحقائق، وهو إمامُ البغداديين في الإشارات))[٥]، وكلمة (حال) إذا وردت عند القوم؛ فالمراد بها واحداً مِن المعاني الآتية: الحال بمعنى: ما يتجلَّى على قلوب السالكين مِن أنوار الطريق، ومِن ذلك ما ذكر القشيري أنَّ الحال: طوارق فلا تدوم[٦].

---

(١) أنظر: دستور العلماء: القاضي الأحمد نكري، ٢/ ٤.
(٢) أنظر: التعريفات: الجرجاني، ص ٨١.
(٣) أنظر: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: زكي مبارك، ٢/ ١١٧.
(٤) أنظر: الصوفية في الإسلام: ص ٣٤.
(٥) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ١٢/ ١٨٧.
(٦) أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ١٥٥.

الحال؛ بمعنى: ما يثمر المقام مِن سلوك وأخلاق وأعمال ظاهرة وباطنة؛ أعني: بالجوارح والقلب، ومِن هنا ذكر الغزالي أنَّ لكلِّ مقامٍ علمٌ وحالٌ وعملٌ))[١] .

الأحوال؛ بمعنى: المراتب الروحية الممتدَّة بين بدء المقام ونهايته، فهي درجات فرعية بين الدرجات الأصلية، وإلى هذا أشار صاحب (التعرُّف) بقوله : ((لكلِّ مقامٍ بدايةٌ ونهايةٌ، وبينهما أحوالٌ متفاوتةٌ))[٢] .

والأحوال عند الصوفية كالمقامات عديدة، ولا تكاد تقع تحت الحصر؛ فمنها: الهيبة والأُنس، والقبض والبسط، والطرب والحزن، والشوق والوحشة، والوداد والانزعاج، وكلُّها تبدو متقابلة .

ونظراً لتداخل مفهومَي (الحال) و(المقام) عند الصوفية؛ فقد أفرد السهروردي فصلاً في (العوارف) بدأه بقوله : ((قد كثُر الاشتباه بين (الحال) و(المقام) واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، فتراءى للبعض الشيء حالاً، وتراءى للبعض مقاماً))[٣] .

وقد فرَّق الصوفية بين (الحال) و(المقام) بشكلٍ دقيقٍ؛ فالحال: ما لا يدوم طويلاً، والمقام ما يثبت، والحال : ما ليس بيد السالك، فهو مِن عين الجود، بينما المقام يكون ببذل المجهود، والحال سمِّي بذلك لتحوُّله إلى غيره، ومِن أشهر العبارات عن القوم في الفرق بين (الحال) و(المقام) : ((الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب))[٤] .

* الأحوال والمقامات عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

إنَّ الأحوال والمقامات لدى الشيخ عبد القادر الجيلاني هي عبادة القلب، فإذا كانت للعامة مِن العباد أعمال ظاهرة مِن حيث الجوارح؛ فإنَّ للقوم الخواص أعمالهم الباطنة مِن حيث

(١) أنظر: إحياء علوم الدين: الغزالي، ٤/ ٢١٦ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف: الكلاباذي، ص ٩ .

(٣) العوارف: السهروردي، ص ٢٢٥ .

(٤) الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٧٢، والرسالة القشيرية، ١/ ١٥٤، والعوارف: السهروردي، ص ٢٢٥، والتصوف: عمر فروخ، ص ٥٤ .

القلوب والأسرار[١]، ولا يعني هذا : الاستغناء بأعمال القلوب عن أعمال الجوارح، وإنَّما تضاف العبادة الباطنة إلى الظاهرة، فتكتمل الأخيرة بالأُولى، فالإمام لايفتأ يذكِّرُنا أنَّه ليس بعد إسقاط ظاهر العبادة غير الزندقة .

ولم يخرج الشيخ عبد القادر الجيلاني بمفهوم الأحوال والمقامات عن الإطار الذي وضعه الصوفية؛ بيد أنَّ الشيخ عبد القادر كانت له وقفات ذوقية عند العديد مِن حقائق الأحوال والمقامات، فمِن هذه الوقفات قوله بتداخل المقامات، في حين يقرِّر بعض شيوخ الطريق الصوفي؛ كالقشيري: أنَّ المقامات: مراتب تصاعدية متتالية، لا يرتقي السالك إلى مقام منها ما لم يستوف أحكام المقام السابق عليه[٢]، يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني : أنَّ أحكام المقامات ينبغي اجتيازها جملة، فمقام التوكل يقتضي الصبر، ولا يتمُّ إلاَّ به، فإذا أراد السالك أنْ يكتب في سجل المتوكلين فما عليه إلاَّ أنْ يتوِّجَ توكُّلَه بالصبر والتسليم[٣] .

ويشير الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى تداخل مقامَي الصبر والشكر، في موضع الابتلاء؛ فيقول: ((إذا جاءك الداء؛ فاستقبله بيد الصبر، واسكن حتى يجيء الدواء، فإنْ جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر))[٤] .

ثمَّ يتوقَّف الشيخ عبد القادر الجيلاني عند اختلاف أهل الطريقة في الرضا هل هو مِن الأحوال أم المقامات؟ فقد ذهب أهل السلوك في العراق على أنَّه مِن جملة الأحوال، وأنَّه نازلة تحلُّ بالقلب (كسائر الأحوال) ثم تحول وتزول، وذهب آخرون إلى أنَّ الرضا مقامٌ؛ يتوصَّل إليه العبد باكتسابه إذا ما انتهى مِن مقام التوكل[٥] .

---

(١) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ٢٥٠، المجلس (٦٢) .
(٢) الرسالة القشيرية، ١/ ١٥٣ .
(٣) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٥٧، المجلس (٤٢) .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٠، المجلس (١) .
(٥) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٥٨ .

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني: أنَّ الرأي القائل : إنَّ الرضا حالٌ، والرأي القائل: بكونه مقاماً؛ يمكن الجمع بينهما بأنْ يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي مِن المقامات، ونهايته مِن جملة الأحوال فهي ليست بمكتسبة[١] .

وللشيخ عبد القادر الجيلاني موقف مِن المفاضلة بين (الحال) و(المقام)؛ لم يشر إليه صراحةً، وإنَّما يُشَمُّ مِن فحوى كلامه، ففي مؤلفات الصوفية، وفي كثير مِن الدراسات الخاصة بالتصوف نرى تفضيلاً للمقام على الحال؛ باعتبار الأحوال سمة لأهل التلوين، بينما المقامات لأصحاب التمكين[٢]، ولهذا تكون المقامات أعلى مرتبة مِن الأحوال، أمَّا الشيخ عبد القادر؛ فيرى الحال أعلى، إذ المقام عمل العبد، والحال موهبة المعبود، والمقام قيام مع الله بالصدق، والحال يجري به الصادقون، والمقام فيه اشتراك بين خواص السالكين وبين عوام المؤمنين، والحال فيه تفرُّدٌ بصاحبه عن الباقين، ومِن هنا جعل الشيخ عبد القادر الجيلاني بداية الرضا مقاماً، ونهايته مِن جملة الأحوال، وهذا يعني: ارتفاع الحال عن المقام، وقد عاين الشيخ عبد القادر الجيلاني في طريقه إلى الله كلَّ شديدٍ مِن الأحوال، فهو يخبر عن نفسه أنَّ الأحوال كانت تطرقه وتداهم قلبَه؛ فيهيم على وجهه أيّاماً في البادية، ويصرخ في قلب الصحراء، فيفزع منه قطاع الطرق والعيارون، بل إنَّ حالاً قوياً نزل به يوماً؛ فخرَّ مغشياً عليه؛ حتى ظنَّ الناس أنَّه فارق الحياة، فأخذوه وغسَّلوه، ثمَّ سري عنه الحال بعد ذلك[٣] .

والأحوال عند الشيخ عبد القادر كلُّها (قبض)؛ لأنَّها تنزل على المتجرِّد دون اجتلاب، ويؤمر في سرِّه بحفظها، وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض، أمَّا المقامات؛ فكلُّها (بسط)؛ لأنَّه لا شيء فيها يؤمَر بحفظه سوى كونها موافقة لقدر الله، ويقول الشيخ عبد القادر: ((الأحوال

(١) أنظر: الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٤٢ .

(٢) التلوين في الاصطلاح الصوفي: صفة لأهل البداية وأصحاب الأحوال . أمَّا التمكين: فهو علامة الواصلين إلى قُرب الحق؛ حيث يستقرُّ القلب . أنظر: ألفاظ الصوفية ومعانيها : د. حسن الشرقاوي، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٣) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١٩، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ١١ – ١٧ .

معدودة، فأمر صاحبها بحفظ حدودها، والمقام غير محدود حتى يحفظ))[١] .

* **ثانياً : مقام التوكل :**

التوكل: هو الثقة بما عند الله عليه السلام، واليأس عمّا في أيدي الناس[٢] .

وهو مِن المقامات التي ينبغي على الصوفي قطعها؛ ليصل إلى غايته، ومقام التوكل هو أحد المبادئ الإسلامية في علاقة العبد بربِّه، فقد وردت في القرآن الكريم آيات عدَّة ترغِّبُ في التوكل؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمِ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون)[٥] .

وواضحٌ مِن هذه النصوص أنَّ التوكل معناه: الاعتماد على الله والثقة به، على أنَّ الصوفية تناولوه تناولاً خاصاً ينسجم وطبيعة سلوكهم في علاقتهم بالخالق عليه السلام، ولم يخرج جوهر التوكل عن الإطار العام الإسلامي .

فالتوكل عند شقيق البلخي[٦]: اطمئنان القلب بما أعدَّه الله عليه السلام لعباده، بقوله : ((التوكل أنْ يطمئن قلبك بموعود الله))[٧] .

---

(١) فتوح الغيب: الجيلاني، طبعة البابي الحلبي – القاهرة، ص ١٣١ .

(٢) أنظر: التعريفات: الجرجاني، ص ٧٠ .

(٣) سورة الطلاق: مِن الآية ٣ .

(٤) سورة المائدة : مِن الآية ٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : (كتاب الرقاق، باب) (ومَن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق: ٣]، ٥/ ٢٣٧٥، برقم (٦١٠٧) .

(٦) شقيق بن إبراهيم، أبو علي الأزدي، من أهل بلخ حسن الجري على سبيل التوكل وحسن الكلام فيه، وهو من مشاهير مشايخ خراسان قال السلمي: وأظنه أول مَن تكلم في علوم الأحوال بكورة خراسان، كان أستاذ حاتم الأصم، صحب إبراهيم بن أدهم، وأخذ عنه الطريقة، وأسند الحديث . (ت: ١٥٣هـ) . أنظر: طبقات الصوفية : السلمي، ص ٦٣، ووفيات الأعيان: ابن خلكان، ٢/ ٤٧٥ .

(٧) طبقات الصوفية : السلمي، ص ٦٤ .

والتوكل عند معروف الكرخي : الاعتماد على الله عليه السلام في كلِّ شيء؛ لأنَّ بيده مقادير كلِّ شيء، أمَّا الناس؛ فلا نفع لهم ولا ضر، فقد قال له رجل: أوصني، فقال له : ((توكل على الله؛ حتى يكون هو معلِّمك، ومؤنسك، وموضع شكواك، فإنَّ الناس لا ينفعونك ولا يضرُّونك))[١] .

والصوفي في توكُّله، مطمئن بأنَّ كل ما هو له سيكون، رزقه، وعمله، وموته، فقد روي أنَّ حاتم الأصم[٢] عندما سئل عن التوكل فقال: ((...، علمتُ أنَّ رزقي لا يأكله غيري؛ فاطمأنَّت به نفسي، وعلمتُ أنَّ عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمتُ أنَّ الموت يأتي بغتةً فأنا أُبادره، وعلمتُ أنِّي لا أحيد مِن عين الله، حيث كنت فأنا استحي منه))[٣]، وسئل ذو النون المصري: ما التوكل؟ فقال: ((خلع الأرباب، وقطع الأسباب . فقال السائل: زدني. فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها مِن الربوبية))[٤] .

فالمعنى - كما يبدو لي -: ترك الاعتماد على غير الله، وعدم إبقاء ميل في النفس إلى امتلاك شيء ما، بل الانقطاع إلى العبودية مطلقاً .

وسئل أبو يزيد البسطامي عن التوكل ؟ فقال: ((...، لو أنَّ أهل الجنة في الجنة يتنعَّمون، وأهل النار في النار يعذبون، ثم وقع تمييز عليهما خرجت مِن جملة التوكل))[٥]، فالمتوكل تساوت في قلبه الأشياء كلّها مادامت هي مِن الله عليه السلام، فلا يفاضل بين جنة ولا نار،

(١) طبقات الصوفية : السلمي، ص ٨٣ .

(٢) حاتم بن عنوان، وقيل: بن يوسف، وقيل: بن عنوان بن يوسف الأصم، أبو عبدالرحمن، وهو من قدماء مشايخ خراسان من أهل بلخ، روى عن: شقيق البلخي، وصَحِبَه، وسعيد بن عبد الله= الماهياني، وشداد بن حكيم، وغيرهم، وروى عنه: عبد الله بن سهل الرازي، وأحمد بن خضرويه البلخي، ومحمد بن فارس البلخي، وآخرون. قال عنه الذهبي: الزاهد، القدوة، الرباني، الواعظ، الناطق بالحكمة . أنظر: طبقات الصوفية : السلمي، ص ٨٦، وسير أعلام النبلاء : الذهبي، ١١/ ٤٣٠ .

(٣) المقدمة في التصوف، ص ٣٣ - ٣٤، وطبقات الأولياء، ص ١٧٩ .

(٤) الرسالة القشيرية، ١/ ٣٠١، وإحياء علوم الدين: الغزالي، ٤/ ٢٦٤ .

(٥) الرسالة القشيرية، ١/ ٢٩٩، وإحياء علوم الدين : الغزالي، ٤/ ٢٦٤ .

ولا بين وجود وعدم، ففي التوكل يستوي الحال عند المتوكل حقيقة، ومِن إشارات التوكل قول أبي سعيد الخراز : ((التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب))[١] .

ويشرح الإمام الغزالي مراد الخزاز بقوله : ((فسكونه بلا اضطراب. إشارةً إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به، واضطراب بلا سكون. إشارة إلى فزعه إليه، وابتهاله وتضرُّعه بين يديه؛ كاضطراب الطفل بيديه إلى أُمِّه، وسكون قلبه إلى تمام شفقتها))[٢] .

أمَّا الشيخ عبد القادر الجيلاني في حديثه عن التوكل؛ فقد نحى المنحى نفسه الذي سار عليه القشيري، وكأنَّما ينقل منه نقلاً حرفياً، مثلما نقل القشيري بدوره مِن أبي عبد الرحمن السلمي[٣]؛ فقد ابتدأوا جميعاً كلامهم في التوكل بذكر بعض الأصول الشرعية للتوكل غير أنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني ينفرد ببيان حقيقة التوكل؛ فيقول: ((إنَّه تفويض الأمور إلى الله عليه السلام، والتنقِّي عن ظلمات الاختيار والتدبير ...، فيسكن قلب العبد إلى ما قسمه الله، ويطمئن إلى وعد مولاه))[٤] .

ولا يتعارض التوكل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني مع السعي والاكتساب؛ فالكسب والتوكل (شريعة وحقيقة) فلا يستغني أحدهما عن الآخر، ففي البداية يكون الكسب والسعي، ثمَّ يكون الجمع بينهما بالسعي والكسب بالحركة الظاهرة، مع التوكل بالقلب، وذلك تحقيق الإيمان، فالجوارح متحركة في الأسباب، والباطن ساكن لوعد الله، لكن الشيخ عبد القادر الجيلاني يخشى على أهل الأخذ بالأسباب مِن التعلُّق بالخلق، والاتِّكال على الدرهم والدينار، واعتقادهم أنَّ رزقهم مِن الأسباب، فهذا عند الشيخ الجيلاني شركٌ خفي، فإنْ توكَّلوا على الأسباب ونسوا الرزاق اطمأنُّوا، فذلك شركٌ أخفى مِن الأول[٥]، وقد استشهد الشيخ في

(١) الرسالة القشيرية، ١/ ٣٠١، وإحياء علوم الدين : الغزالي، ٤/ ٢٦٥ .
(٢) إحياء علوم الدين : الغزالي، ٤/ ٢٦٥ .
(٣) المقدمة في التصوف: السلمي، ص ٤، والرسالة القشيرية، ١/ ٢٩٨، والغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٣٦ .
(٤) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٣٧ .
(٥) أنظر: فتوح الغيب، الجيلاني، ص ٣٧ – ٣٨ .

الكسب والتوكل بحال سفيان الثوري (ت: ١٦١هـ) إذ كان في بداية سلوكه، وطلبه العلم يدَّخر المال؛ حتى إذا حصل العلم وعرف الحقَّ عليه السلام أنفق كلَّ ما معه على الفقراء في يوم واحد، وقال قولته المشهورة : ((لو أنَّ السماء حديد لا تمطر، والأرض صخر لا تنبت، واهتممت برزقي لقلتُ إنِّي كافر))[١] .

وبهذا يقرِّرُ الشيخ عبد القادر المبدأ الصوفي الذي استقرَّ منذ وقتٍ مبكِّر؛ يقول الجنيد البغدادي: «مَن طغى في الكسب فقد طعن في السنة، ومَن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان». فالتوكل مقام صوفي، وأحد الأسس السبعة للطريقة القادرية؛ نرى الشيخ عبد القادر الجيلاني يورد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢]، ثمَّ يقول الشيخ الجيلاني: ((هذه الآية غلقتْ باب الاتِّكال على الأسباب، غلقتْ باب الأغنياء والملوك، وفتحت باب التوكل؛ مَن يتَّقيه يجازيه بأنْ يجعل له فرجاً ومخرجاً ممَّا ضاق على الناس))[٣] .

ومقام التوكل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني يشتمل على ثلاث درجات، وهي كما يأتي[٤]:

التوكل : وهو بداية المقام وصفة العوام مِن المؤمنين، حيث يكون السكون إلى وعد الله، مع إسقاط التدبير، فصاحب هذه الدرجة إذا أُعطي شكر، وإذا مُنِع صبر، وذلك كما روي عن أنس أنَّ رجلاً جاء على ناقة وقال للنبي ﷺ : أدَعُها وأتوكل؟ قال: (إعقِلْها وتوكَّل)[٥] .

التسليم : وهو الدرجة الوسطى، وصفة الخواص والأولياء؛ حيث يكتفي العبد بعلم الله فيه، ويكون المنع عنده صنو العطاء، فذلك حال إبراهيم عليه السلام حين أوشك أنْ يلقى في

---

(١) الفتح الرباني، الجيلاني، ص ١١٩، المجلس (٢٨) .

(٢) سورة الطلاق: مِن الآية ٢ – ٣ .

(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ٢٦٢، المجلس (٦٢) .

(٤) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٣٧ – ١٣٣٨ .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه : أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٢٩٤، برقم (٢٥١٧)، وقال عنه : ((وهذا حديث غريب من حديث أنس، لا نعرفه إلاَّ مِن هذا الوجه)) .

نار النمرود، (فسأله جبريل: ألك حاجةٌ ؟ قال: أمَّا إليك؛ فلا)[١] .

التفويض: وهو نهاية درجات مقام التوكل، وصفة خصوص الخصوص مِن أهل التوحيد، وحال النبي ﷺ، وفي التفويض يكون المنع مع الشكر أحبّ إلى العبد ممَّا سواه وذلك هو الرضا التام بحكم الله، وغاية التوكل المشار إليه بقول النبي ﷺ : (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)[٢] .

وبالجملة فلا يكون التوكل حتى يكون العبد بين يدي ربِّه كالميت بين يدي الغاسل، يقلِّبُه كيف أراد، فليس للمتوكِّل أنْ يسأل أو يريد أو يرد أو يحبس بيده شيئاً[٣]، وقد سئل أبو الحسن علي بن الهيتي عن طريق الشيخ الجيلاني ؟ فأجاب بقوله : ((كان طريقة التفوض والموافقة، مع التبرِّي مِن الحول والقوة))[٤] .

وحسب مفهوم الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوكل هو الاتكال على الله عليه السلام، وعمل مِن جانب العبد على كسب رزقه بالسنة، وقد يهيئ الله عليه السلام الأسباب للكسب؛ فيرزق المتوكل عليه مِن حيث لا يحتسب، فقد جاء قول الشيخ عبد القادر الجيلاني في هذا المعنى بقوله : ((والرزق بيده تارةً يواصلك به بطريق الخلق على وجهة المسألة لهم في حال الابتلاء أو بالرياضة، أو عند سؤالك له عليه السلام، وأخرى بطريق الكسب معاوضة، وأخرى مِن فضله مباداه مِن غير أنْ ترى الواسطة والسبب))[٥] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ١/ ٢٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند الخلفاء الراشدين، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ١/ ٣٣٢، برقم (٢٠٥)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: ((إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن هبيرة، فمن رجال مسلم)) .

(٣) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٣٨ .

(٤) بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ٨٤، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ٩١ .

(٥) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٢٩ – ٣٠ .

* ثالثاً : مقام حسن الخلق :

على الرغم مِن اهتمام الصوفية بالأدب وحسن الخلق في الطريق الصوفي إلاَّ أنَّنا لم نر منهم مَن عدَّ حسن الخلق واحداً مِن مقامات الطريق وأحواله، غير أنَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتبرها أحد الأسس السبعة في أحوال الطريق ومقاماته؛ إضافةً إلى مقتضيات السلوك، ويرى الشيخ عبد القادر أنَّ الأصل مِن حسن الخلق قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1]، فمدح الله عليه السلام نبيَّه ﷺ بحسن الخُلُق . وسُئل بعضهم عن هذه الآية ؟ فقال: "الخُلُق مع الخلق، والسر مع الحق"، وروى أبو الدرداء أنَّ النبي ﷺ قال: (إِنَّ أَفْضَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ، قَالَ: ابْنُ أَبِي بُكَيْرٍ أَثْقَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ)[2]، وقال ﷺ : (أحبّكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً)[3]، وقال الحارث المُحاسِبي[4]: «حُسْنُ الخُلُق: هو احتمال الأذى، وقلة الغضب، وبشر الوجه، وطيب الكلام»، وقيل: «رأس مال العارف: التودُّدُ إلى الخلق»، والنبي ﷺ (أمرَ بمداراة الناس كما أمر بأداء الفرض)[5] .

---

(١) سورة القلم : الآية ٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند القبائل، مِن حديث أبي الدرداء عويمر، ٤٥/ ٤٨٧، برقم (٢٧٤٩٦) وقال عنه شعيب الأرناؤوط : ((إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء بن نافع، وهو ثقة)) .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٦/ ٢٣٤، برقم (٧٩٨٩)، والطبراني في المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، ٨/ ١٧٧، برقم (٧٧٣٧)، وقال عنه الهيثمي: ((رواه الطبراني في حديث طويل بإسنادين ورجال أحدهما ثقات)) . مجمع الزوائد، ٨/ ٢٤ .

(٤) الحارث بن أسد أبو عبد الله المحاسبي البغدادي، يروي عن: يزيد بن هارون يسيراً، وروى عنه: ابن مسروق، وأحمد بن القاسم، والجنيد، وأحمد بن الحسن الصوفي، وآخرون، له عدة تصانيف؛ منها: (رسالة المسترشدين)، وغيرها، قال عنه الذهبي: الزاهد، العارف، شيخ الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية (ت: ٢٤٣هـ) . ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٢/ ١١٠ .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه : المصنف في الأحاديث والآثار: عبد الله بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر بن أبي شيبة العبسي (ت: ٢٣٥هـ) ٥/ ٢٢١، برقم (٢٥٤٢٨)، بلفظ (أُسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالله مُدَارَاةُ النَّاسِ)، والطبراني في المعجم الأوسط : ١/ ١٤٦، برقم (٤٦٣)، بلفظ (مداراة الناس صدقة)، وقال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو متروك، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به)) .

وحسن الخلق عند الشيخ عبد القادر أفضل مناقب العبد، ولا يتركه إلاَّ منافق صاحب هوى[1]؛ قال الشيخ: ((الأدب في حقِّ العارف فريضة كالتوبة في حقِّ العاني، كيف لا يكون متأدِّباً وهو أقرب الخلق إلى الخالق...، وكلُّ مَن ليس له أدب فهو ممقوتٌ الخالق والخلق...، لابدَّ مِن حسن الأدب مع الله عليه السلام، أحسنوا الأدب، أقبلوا على آخرتكم، وأعرضوا عن دنياكم))[2]، ويتحقَّق العبد بحسن الخُلق حين يأخذ كلَّ أموره بالصدق، حين لا يؤثِّر فيه جفاء الخلق بعد تطلُّعه للخالق[3]، ويقتضي حُسن الخلق إسقاط الأخلاق المذمومة؛ كالحسد والرياء والحقد، والاتصاف بآداب التواضع والحلم والمحبة والإيثار، ولحسن الخلق جانبان: الأول: مع الله عليه السلام، والثاني: مع الناس، والخُلق مع الله عليه السلام : هو القيام بطاعته مِن غير انتظار الثواب، وهو ما يسمَّى عند الصوفي بـ(سقوط رؤية الأعمال) ثمَّ التسليم بكلِّ الأمور إلى الله عليه السلام دون منازعة، وتوحيده وتصديق وعده مِن غير تُهَمَة أو شك، واستصغار العبد ما دونه، واستعظامه بما يستحقُّ .

فاعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني حُسن الخلق مِن جملة العوامل المساعدة على سلوك المريد لطريق القوم؛ فأصحاب الأخلاق الحسنة هم الصفوة الذين تتجسَّد فيهم مكارم الأخلاق، وتظهر أهمِّيَّة الخلق الحسن في طاعة الله عليه السلام في كلِّ الأحوال، مِن غير اعتقاد في استحقاق العوض، في الأمر والنهي، فالأمر: ترك المنكر والنهي: الامتناع عنه، وأعلى درجة يصل إليها المريد في الخلق الحسن في توحيد الله عليه السلام مِن غير شرك به، وتصديق وعده مِن غير شكٍّ فيه، والتسليم للقضاء والقدر مِن غير معارضة[4] .

مجمع الزوائد، ٨/ ١٧ .

(١) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١٢٣، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ٩١ .

(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٦٣، المجلس (٦٢) .

(٣) أنظر: بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١٢٣، وقلائد الجواهر: التادفي، ص ٩١ .

(٤) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ١٩٢ .

واعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني الجانب الخلقي في التصوف ذا أهمية كبيرة وسبباً رئيساً في تقوية السلوك للصوفي، فقد كانت دعواه مبنية على حسن الخلق في جميع المعاملات دنيويةً كانت أو دينية؛ ليصحَّ مِن العبد الإيمان الذي فيه، ويتعمَّق في أُمور الشرع، ويدرك إدراكاً قوياً كيفية تنظيم العلاقات الاجتماعية، واستغلالها في الموضع المناسب، والتعامل بها على الوجه الأكمل . فإذا اجتمعت هذه الصفات (مكارم الأخلاق) سهُل عليه التعامل مع الناس وتحمُّل الأذى بلا حقد ولا خصومة ولا خضوع، فهو أسرع إلى العفو الموصى به مِن الله عليه السلام: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[1]، وأقرب إلى الدعوة في المصالحة عند الجفاء؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[2] .

فصاحب السلوك الحسن لا تتحدَّد مهمَّته بالانعزال عن الناس، والانقطاع إلى العبادة فحسب، إنَّما عنده مهمة سامية تنعكس أهميتها على المجتمع وهي العمل للإصلاح، فالقوم ليس مِن أخلاقهم العزلة وترك المجتمع والخروج عن دائرة أعماله، وإنَّما هُم زُرَّاع البذور الطيبة لا يبغون مكسباً ولا جاهاً، وإنَّما هدفهم إنشاء المجتمع الفاضل، وهذا الذي قصده الشيخ عبد القادر الجيلاني عند ذكره للحديث النبوي الشريف: (لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ، وَحُسْنُ خُلُقٍ)[3] .

ويعد حسن الخلق مِن الصفات التي تقرِّب بين العبد وربِّه، وذلك لأنَّه طاعة، والطاعة مِن دلائل حفظ الحال لأهل الطريق، وقد جمع الجيلاني حُسن الخُلُق في صفات على سؤال وُجِّه إليه بهذا الخصوص؛ فقال: ((هو أنْ لا يؤثِّر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق، واستصغار نفسك، وما منها معرفة بعيوبها، واستعظام الخلق وما منهم إلاَّ نظر إلى ما ادَّعوا مِن الإيمان

(١) سورة البقرة : مِن الآية ٢١٩ .

(٢) سورة الحجرات : مِن الآية ١٠ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه : ٥/ ٢١٢، برقم (٢٥٣٣٣)، والبزار في مسنده (البحر الزخار) : أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار (ت: ٢٩٢هـ) ١٥/ ١٧٧، برقم (٨٥٤٤)، وقال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والبزار، وفيه عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف)) . مجمع الزوائد، ٨/ ٢٢ .

والحكم، وهو أفضل مناقب العبد، وفيه تظهر جواهر الرجال))[١]، وقال – أيضاً –: ((الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربِّك، ومادمت ترى الخلق لا ترى حقيقة نفسك، ومادمت ترى نفسك لا ترى ربَّك))[٢]، ويروي ابن القيم عن الشيخ عبد القادر أنَّه قال: ((كُنْ مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس))[٣] .

ولَّما كان حُسن الخُلق مقاماً مِن مقامات الطريق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلامة مِن علاماته فقد ربط الشيخ بينه وبين المعرفة بالله عليه السلام كما يربط بين رذيلة سوء الأدب وبين الجهل به عليه السلام ؛ فيرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله حسن الخلق، وأقرب العباد إلى الله أحسنهم أخلاقاً، ويرى الشيخ أنَّه لابدَّ للسالك أنْ يتَّصف بهذه الصفة التي عدَّها فريضة مِن الفرائض وأساساً مِن الأسس؛ لذلك قال: ((أولياء الله عليه السلام متأدِّبون بين يديه؛ لا يتحرَّكون حركةً، ولا يخطون خطوةً إلاَّ بإذنٍ صريحٍ منه لقلوبهم، لا يأكلون مِن الأشياء المباحة، ولا يلبسون، ولا ينكحون، ولا يتصرَّفون في جميع أسبابهم إلَّا بإذنٍ صريحٍ لقلوبهم، هم قيام مع الحق عليه السلام قيامٌ مع مقلِّب القلوب والأبصار لا قرار لهم مع ربِّهم عليه السلام؛ حتى يلقوه بقلوبهم في الدنيا وبأجسادهم في الآخرة))[٤] .

وحسن الخلق ليس له وقتٌ محدَّدٌ يتَّصف به السالك، بل هو سمةٌ يتَّصف بها السالك بكلِّ مرحلة مِن مراحل السلوك؛ لأنَّها صفة المؤمنين المطلقة لكلِّ وقتٍ مِن أوقاتهم، فهي أفضل مناقب العبد وأجلُّ سِماته، وبه تُعرَف معادنُ الرجال .

* رابعاً : مقام الشكر:

(١) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٧٢ .
(٢) جمهرة الأولياء : المنوفي، ٢ .
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب، شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ٢/ ٣١٠ .
(٤) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٣١، المجلس (٣) .

الشكر لغةً : تصوُّر النعمة وإظهارها[١]، وهو ((الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة مِن اللسان والجنان والأركان))[٢] .

واصطلاحاً : وردت للعلماء تعاريف كثيرة للشكر؛ منها: ((عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه))[٣] .

وقيل: ((فرح القلب بحصول النعمة مع صرف الجوارح في طاعة الْمُنعِم، والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع))[٤] .

أمَّا الجرجاني؛ فقد عرَّفه بقوله : ((هو صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه مِن السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله))[٥] .

والشكر عند القوم له معنى يتضمَّن ما يأتي:

شكر اللسان: وهو الاعتراف بنعمة الْمُنعِم .

وشكر البدن والأركان: وهو اتصافه بالوفاء والخدمة .

وشكر القلب: وهو انعكافه على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة .

وفي جملة (الشكر) أنْ لا يعصي اللهَ عليه السلام بنعمةٍ أنعمَها[٦] .

وحقيقة الشكر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني وعند غيره مِن أهل التحقيق : هو الاعتراف بنعمة الْمُنعِم على وجه الخضوع ومشاهدة المنَّة وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر وهو الثناء على الْمُحسِن بذكر إحسانه، وشكر العبد لله عليه السلام ثناؤه عليه بذكر إحسانه،

---

(١) أنظر: تاج العروس: مرتضى الزبيدي، ١٢/ ٢٢٥، مادة (شكر) .

(٢) التعريفات : الجرجاني، ص ١٢٨ .

(٣) مدارج السالكين: ابن القيم، ٢/ ٢٣٥ .

(٤) معراج التشوف: ابن عجيبة، ص ٧ .

(٥) التعريفات: الجرجاني، ص ١٢٨ .

(٦) أنظر: ما هو التصوف ؟ : النقشبندي، ص ٩٦ .

وشكر الحق عليه السلام للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له[1]، ويتحقَّقُ الشكر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني بأمرين:

الأول: الاستعانة بالنعم على الطاعات والمواساة للفقراء منها .

والأمر الآخر: الاعتراف بها للمنعِم بها والشكر بمُنْزِلِها وهو الحق عليه السلام [2] .

وشكر المولى عليه السلام ظاهراً وباطناً؛ فيرى الشيخ أنَّ الشكر يكون باللسان والجوارح والقلب، وشكر اللسان : الاعتراف بنعم الله، وشكر الجوارح: الحركة في طاعة الله، وأمَّا شكر القلب : فهو الاعتقاد الدائم والعقد والعزم الشديد بأنَّ جميع النعم التي يملكها العبد والمنافع ظاهرها وباطنها مِن الله عليه السلام لا مِن غيره .

فالشيخ عبد القادر يرى أنَّ هناك فرقاً بين الشاكر والشكور؛ فالشاكر مِن العباد : مَن يشكر اللهَ على ما هو موجود، والشكور : يشكره على ما هو مفقود، الأول: يشكر على النفع والعطاء، والثاني: يشكر على المنع والبلاء، فقد تداخل عند الشيخ عبد القادر مقاما : الرضا والشكر .

وأعلى درجات الشكر عند الشيخ عبد القادر هو شكر الخواص للمنعم عليه السلام، ويكون على ما يرد ويتجلَّى بقلوبهم من المعاني اللدُنِّيَّة[3] .

أدنى الشكر عند الإمام الغزالي – رحمه الله – أنْ يرى النعمة مِن الله، ويرضى بما أعطاه ولا يخالفه بشيء مِن نعمة، وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أنَّ الخلقَ كلَّهم يعجزون عن أداء شُكره على أصغر جزء مِن نعمة وإنْ بذلوا غاية المجهود؛ لأنَّ التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها؛ فيلزمك على كلِّ شكر شكراً إلى ما لا نهاية[4] .

---

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٤٩، وجمهرة الأولياء : محمد أبو الفيض المنوفي، وأعلام التصوف، ص ٢٠٤ .

(٢) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٩٦ – ٩٧، المجلس (٢٢) .

(٣) أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ٣١٣، والغنية: الجيلاني، ٣٦/ ١٣٥٣ .

(٤) أنظر: منهاج العارفين: الغزالي، مطبعة المعارف، بغداد، (١٩٦٨م) ص ١٩ .

* خامساً : مقام الصبر:

الصبر لغةً : الإمساك في ضيق[١] .

وفي المصطلح الصوفي عُرِّف الصبر بتعريفات كثيرة؛ فقيل: ((الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع أو عمَّا يقتضيان حبسها عنه))[٢] .

وعرَّفه السيد الجرجاني؛ فقال: ((هو ترك الشكوى مِن ألم البلوى))[٣] .

وقال بشر الحافي: ((الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه للناس))[٤]، وقال الحارث المحاسبي: ((لكلِّ شيء جوهر، وجوهر العقل الصبر))[٥] .

وقيل: ((الصبر: هو حمل المؤن لله – تعالى – حتى تنقضي أوقات المكروه))[٦]، فالصبر مِن أهم ركائز الطريق الموصل إلى الله؛ إذ هو خصلة مِن خصال الأنبياء والمرسلين والصالحين مِن عباده، جاء ذكره في القرآن الكريم في كثيرٍ مِن الآيات القرآنية بين الحق فيها فضيلة الصبر، وأجر الصابرين ومكانتهم عنده .

فقال عليه السلام آمراً نبيَّه بقوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٧]، ووصف الله عليه السلام أيوب بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾[٨]، وبيَّن سبحانه وتعالى نتيجة الصبر فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾[٩]، وقال تعالى:

---

(١) مفردات القرآن: الراغب الأصبهاني، ص ٢٧٣، مادة (صبر) .

(٢) شرح رياض الصالحين: ابن علان، ١/ ١٩٤ .

(٣) التعريفات: الجرجاني، ص ١٣١ .

(٤) طبقات الأولياء: عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن سراج الدين الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ) ص ١١٣ .

(٥) طبقات الصوفية : السلمي، ص ٦١ .

(٦) اللمع: الطوسي، ص ٧٦ .

(٧) سورة الأحقاف: مِن الآية ٣٥ .

(٨) سورة ص: مِن الآية ٤٤ .

(٩) سورة السجدة : مِن الآية ٢٤ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]، وكذلك أثنى رسول الله ﷺ - مِن خلال أحاديثه - على الصبر؛ فقال: (الصبر نصف الإيمان)[٣]، وقال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ((الصبر مِن الإيمان بمنزلة الرأس مِن الجسد))[٤] .

وحقيقة الصبر؛ كما يراها الشيخ عبد القادر الجيلاني تتمثَّل في الوقوف مع البلاء بحسن الأدب مع المبتلي، والثبات معه بالصبر على ما قدَّر وقضى وتلقِّي مقدوره بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة[٥] .

ولذلك بيَّن الشيخ معنى الصبر، وهو أنْ لا يشكو المرء إلى أحد، ولا يتعلَّقُ قلبُه بسبب، ولا يكره وجود البلية، ولا يحب زوالها[٦] .

فلقد قام الشيخ عبد القادر بتوجيه لتلاميذه؛ يدعم ما يقول بالآيات والأحاديث التي تقوي حجَّته فيما يقول؛ فاستشهد بالحديث النبوي الشريف : (إنَّما الصبر عند الصدمة الأولى)[٧]؛ يشير بهذا الحديث: إلى سكون قلب المؤمن وتلقِّيه لقضاء الله بالصبر والرضا؛ لذلك يرى الشيخ الجيلاني أنَّ البلاء يقوِّي القلب واليقين، ويضعف النفس والهوى، ويحقِّق الإيمان والصبر))[٨] .

---

(١) سورة القصص : مِن الآية ٥٤ .

(٢) سورة الزمر: مِن الآية ١٠ .

(٣) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب التفسير، تفسير سورة (حمعسق) ٢/ ٤٨٤، برقم (٣٦٦٦)، وقال عنه : ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، ووافقه الذهبي بقوله : ((صحيح)) .

(٤) شعب الإيمان: البيهقي، ١/ ٧١ .

(٥) أنظر: بهجة الأسرار : الشطنوفي، ص ١٢٣ .

(٦) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٨٠، المجلس (٤٩) .

(٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى، ١/ ٤٣٨، برقم (١٢٤٠) .

(٨) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٥٣ .

واستنبط الشيخ مِن كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قال فيه : ((الصبر مِن الإيمان كالرأس مِن الجسد))[١]؛ أنَّ الإنسان إذا لم يكن له صبرٌ؛ فلا رأس لإيمانه ولا عبرة بجسده، ولو عرف الإنسان المبتلى مَن الذي ابتلاه لصبر على بلواه، ولو عرف الإنسان حقيقة الدنيا ما عصى فيها اللهَ، وبيَّن أنَّ الصبرَ رأسُ الدين، وأنَّ جسد الدين هو العمل، وكل عمل لا يتمُّ إلاَّ بالصبر تحت قضاء الله[٢] .

وللصبر – كسائر المقامات – مراتب ودرجات، وأول درجات الصبر: الصبر في الله عند نزول البلاء، ثمَّ الصبر (لله) عند الوقوف مع البلاء بحسن الأدب والامتثال والإذعان، ثمَّ الصبر (مع الله) بالثبات على أحكام شرعه وسعة الصدر لقضائه وقدره.

وأمَّا الصبر (عن الله) فهو الأشقُّ، إذ يروي الشيخ عبد القادر الجيلاني عن أبي بكر الشبلي (ت: ٣٣٤هـ) ما وقع له مع رجل وقف على رأسه وسأله : أيُّ الصبر أشدُّ على الصابرين؟ قال: الصبرُ في الله . قال: لا . قال : الصبر لله . قال: لا . قال: الصبر مع الله . قال: لا . قال: ويحك فما هو ؟ قال: الصبر عن الله . وصرخ الشبلي صرخةً كادت روحه تتلف[٣] .

والصبر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني واجبٌ مِن الواجبات على كلِّ إنسان؛ لأنَّه خليفة الله في أرضه؛ جعله في الدنيا، والدنيا كلُّها آفات ومصائب، وما مِن نعمةٍ إلاَّ وبجانبها نقمة، وما مِن فرحةٍ إلاَّ وبجانبها ترحة، وما مِن سعةٍ إلاَّ ومعها ضيق، والمؤمن يعلم أنَّ الله عليه السلام لا يبتليه إلاَّ لرفع درجته أو لمصلحة هو يعلمها؛ لذلك يكون راضياً بقضاء الله صابراً على مقدوره[٤] .

---

(١) شعب الإيمان: البيهقي، ١/ ٧١ .
(٢) أنظر: جلاء الخاطر: الجيلاني، ص ٣٠ .
(٣) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٥٥ .
(٤) أنظر: فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٣٥ .

فالصبر في منظور الشيخ عبد القادر الجيلاني يقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. صبرٌ لله عليه السلام : ويكون بأداء أوامره واجتناب نواهيه .

٢. وصبرٌ مع الله عليه السلام : وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله مِن شدائد وبلايا.

٣. والصبر على الله عليه السلام : وهو الصبر على ما وعد مِن الرزق والفرج والثواب .

لقد دعا الشيخ عبد القادر بخُطَبه ووعظه وإرشاده تلاميذه ومريديه في أعظم المصائب والرزايا والمكاره والخطوب إلى عدم اليأس والقنوط مِن رحمة الله، وأوصاهم بالصبر والجلَد، وأنْ يستقبلوا أمر الله بكلِّ إيمانٍ وسرورٍ، وأنْ لا يصل تأثير ذلك البلاء إلى القلب؛ حتى لا يتزعزع إيمان المؤمن[١] .

فالصبر مقامٌ مِن مقامات السلوك الموصل إلى الحق، والصابرون هم الواصلون، وهم الذين نالتهم محبة الله؛ لذلك يربط الشيخ عبد القادر بين فضيلة الصبر، والقرب مِن الله، كلَّما ازداد العبد صبراً على بلاء الله إزداد قُرباً منه عليه السلام، ونال مِن الله عليه السلام درجة محبَّته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢]، ولأهمِّيَّة الصبر في سلوك الطريق؛ فقد عدَّه الشيخ عبد القادر إحدى الخصال الثمانية التي بني عليها التصوف، فقال في وصية لولده : ((واعلم يا ولدي – وفَّقنا الله تعالى وإيّاك والمسلمين – أنَّ التصوف مبني على ثماني خصال[٣] :

السخاء : وهو لنبي الله إبراهيم عليه السلام .

الرضا : وهو لنبي الله إسماعيل الذبيح عليه السلام .

الصبر: وهو لنبي الله أيوب عليه السلام .

الإشارة : وهي لنبي الله زكريا عليه السلام .

الغربة : لنبي الله يوسف عليه السلام .

---

(١) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢١٩، المجلس (٥٧) .

(٢) سورة آل عمران : مِن الآية ١٤٦ .

(٣) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٧٥٩ .

لبس الصوف : لنبي الله يحيى عليه السلام .

السياحة : لنبي الله عيسى عليه السلام .

الفقر : لجدي رسول الله ﷺ .

*** سادساً : مقام الرضا :**

الرضا لغةً : هو مقصود ضدَّ السخط، وفي الدعاء : اللَّهمَّ إنِّي أعوذ برضاك مِن سخطك[1] .

واصطلاحاً : عرَّفه العلماء بتعاريف كثيرة؛ فقالوا: ((هو سرورُ القلب بمُرِّ القضاء))[2]، وقيل: ((هو تلقِّي المهالك بوجهٍ ضاحكٍ، أو سرور يجدهُ القلب عند حلول القضاء، أو ترك الاختيار على الله فيما دبَّر وأمضى، أو شرح الصدور ورفع الأكدار لِمَا يرد مِن الواحد القهار))[3] .

وقال ابن عطاء الله الاسكندري – رحمه الله – : ((الرضا : نظر القلب إلى قديم اختيار الله – تعالى – للعبد، وهو ترك التسخُّط))[4] .

وقيل: أنْ يقبل الصوفي على الله باطمئنان، وبعده يكون سلوكه في هذه المقامات قد بلغ مداها، ويكون قد أصبح نقي القلب مستعدّاً لتلقِّي المعارف مِن الله عليه السلام [5] .

وقال المحاسبي: ((الرضا : سكون القلب تحت مجاري الأحكام))[6]، وسُئل الجنيد عن الرضا؟ فقال: ((الرضا رفع الاختيار))[7] .

الرضا مِن المقامات القلبية العالية التي توصل صاحبَها إلى رضا الله ورضوانه، فإذا ما

---

(١) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٣/ ١٦٦٣، مادة (رضي) .

(٢) التعريفات: الجرجاني، ص ١١١ .

(٣) معراج التشوف: ابن عجيبة، ص ٨ .

(٤) الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٤٤ .

(٥) حقيقة التصوف وكرامات الأولياء : محمد علي السيد، ص ١٠ .

(٦) الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٤٤ .

(٧) المصدر نفسه، ٢/ ٣٤٤ .

ارتاض الجسد والروح بالعبادات، وتطهَّرَ القلب مِن الكدرات والشوائب النفسية والجسدية يتزيَّن القلب بالخصال الحميدة، فيجلس في مقام الرضا راضياً مطمئنّاً، فمقام الرضا أكبر مِن مقام الصبر؛ ذلك أنَّ الإنسان عندما يبلغ مقام الرضا يستقبل كلَّ مكروه بالسرور، ويعدُّه خيراً أتاه مِن الله حتى الموت .

إذن مقام الرضا مقام صاحب الولاية ونفسه هي النفس الراضية المرضية .

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أنَّ الرضا: ترك المنازعة في القدر وسرور القلب بمُرِّ القضاء، وترك الاختيار مع المولى عليه السلام، فأهل مقام الرضا هم الذين قطعوا عن قلوبهم الاختيار، وخالفوا ما تريد نفوسهم، ولا يتطلَّعون لقضاء الله قبل نزوله، فإذا نزل القضاء رضوا به وأحبُّوه وسُرُّوا به (١) .

لقد ربَّى الشيخ عبد القادر تلاميذَه ومريديه على هذه المعاني، ومنها الرضا، وهو الاستسلام الروحي الذي يوصل المريد إلى ما يريده الله مِن الرضا؛ حتى يرى كلَّ شيء في الحياة خيراً ورحمة، ويتأمَّله بعين الرضا؛ فضلاً وبركة، ولقد كانت نعمة الرضا مِن عوامل تلك السكينة التي شملت قلوب السالكين، ومِن أقوى الأسباب في محق نوازع اليأس التي يوجِدُها التفكير في عدم الحصول على حظوظ الحياة وملذَّاتها، ولقد كان الشيخ في إرشاده يغرس الرضا بالله والرضا بالإسلام وبمحمد ﷺ في قلوب السالكين على يده .

وأمَّا مَن حرم لذة الإيمان ونعيم الرضا؛ فهو في قلق واضطراب وخوف وعذاب، فقد كان يقول - رحمه الله -: ((يا قوم هذا الحكم الظاهر اعملوا بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وأخلصوا في أعمالكم، ثمَّ انظروا ماذا ترون مِن ألطافه وكرمه وطِيب مناجاته يا محرومين يا آبقين يا مدبرين أقبلوا، يا هاربين إرجعوا لا تهربوا مِن سهام الآفات إنَّما هو توهيم، أثبتوا فقد كُفيتم أمرها وشرَّها، أثبتوا ما يقع فيكم شيء غيركم تراها صدور الصادقين ما أنتم أهلها ما

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣١٧ .

هي لكم ولا أنتم لها))[١] .

إنَّ ترك الرضا عند الشيخ مِن شرِّ الأمور؛ لأنَّه يتمثَّل بعدم القناعة والحسد، وتمنِّي زوال نعمة الغير، وهذا اعتراض على مقدور الله، فالحسد بئس القرين، وأول ما خرب الحسد بيت إبليس وأهلكه وطرده مِن رحمة الله؛ يقول الشيخ : ((كيف يمكن للعاقل أنْ يحسد، وقد سمع قول الله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[٣]، وقول النبي: (إيَّاكم والحسد فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)[٤]، وقول بعض العلماء : مَن حسد ما أعدَّ له بدأ بصاحبه فقتله))[٥] .

❋ سابعاً : مقام الصدق :

الصدق لغةً : هو مطابقة الخبر للواقع، وهو نقيض الكذب[٦] .

وفي اصطلاح أهل الحقيقة : ((هو قولُ الحق في مواطن الهلاك، وقيل: أنْ تصدق في موضع لا ينجيك منه إلاَّ الكذب، وقال القشيري: أنْ لا يكون في أحوالك شوبٌ ولا في اعتقادك ريبٌ ولا في أعمالك ريبٌ))[٧] .

يجب أنْ يكون السالك متَّصفاً بالصدق؛ لأنَّ جميع صفات الكمال لا يتحلَّى بها الإنسان إلاَّ إذا اتَّصف بهذه الخصلة .

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي أنَّ للصدق معاني ستة؛ يقول: ((اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والإرادة وصدق في العزم، وصدق في

---

(١) جلاء الخاطر: الجيلاني، ص ٣٥ .

(٢) سورة الزخرف: مِن الآية ٣٢ .

(٣) سورة النساء: مِن الآية ٥٤ .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٥/ ٢٦٦، برقم (٦٦٠٨) .

(٥) جلاء الخاطر: الجيلاني، ص ١٠٥ .

(٦) أنظر: لسان العرب: ابن منظور، ٤/ ٢٤١٧، مادة (صدق) .

(٧) التعريفات : الجرجاني، ١٣٢ .

الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق))[١] .

فالشيخ عبد القادر الجيلاني كان صادقاً مخلصاً في جميع أحواله وأقواله وأعماله طوال حياته، فعلى هذا ربَّاه والداه، وهكذا بقي إلى أنْ لقي ربَّه عليه السلام، وقد مرَّ بنا كيف أنجا الله القافلة التي كانت تحمله مِن جيلان إلى بغداد، وكيف تاب على يديه اللصوص، كلُّ ذلك ببركة الصدق الذي تربَّى عليه، وكان الشيخ يرغِّب تلاميذه ومريديه بالتحلي به، ويرهبهم مِن كبيرة الكذب، ويقول: ((يا غلام عليك بالصدق والصفاء؛ فلولاهما لم يتقرَّب بشرٌ إلى الله تعالى ..، يا غلام الطريق إلى الله لا يسافر فيها إلاَّ بزاد الصدق، ولا يوصل إليه إلاَّ بعد الصيام عن الدنيا))[٢] .

فالصدق عنده عماد كلِّ أمرٍ وتمامه، والصديقية الدرجة الثانية بعد النبوة، وفرض الله الدائم الذي يقبل به الفرض المؤقت[٣] .

والمقصود - هنا -: أنَّ مقام الصدق مقام كبير وشريف يتحقَّق بالعبادة الصادقة، فأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق مَن صدق في قوله، والصديق مَن صدق في أقواله وأفعاله وأحواله [٤]، وأنْ لا تكذب أحوال العبد أعماله ولا أعماله أحواله [٥]، وسبب الصدق الوثوق بخبر المتصف، وثمرته مدح الله والخلق للمتصف به[٦]، إذن الصدق مِن أعظم خصال السالكين؛ لمكانته العالية ومنزلته الرفيعة، فهو عماد الدين، وشعار السالكين الصادقين، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: ((واعلم أنَّ الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو ثاني درجة بعد النبوة، والدليل قوله عليه السلام : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ

---

(١) إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٨٧ - ٣٨٨ .
(٢) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٦١ .
(٣) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣٦٨ .
(٤) أنظر: الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٦٣ .
(٥) أنظر: دليل الفالحين: ابن علان، ١/ ٢٨٢ .
(٦) أنظر: الرسالة القشيرية، ٢/ ٣٦٣ .

ﭐللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[١] .

والصادق في نظر الشيخ هو الاسم اللاَّزم مِن الصدق، والصديق المبالغة منه إذا ما صار الصدق شعار العبد، والسمة الغالبة عليه، والسجية الملازمة له[٢] .

ولأهمِّيَّة الصدق في سلوك الطريق عدَّه الشيخ بمثابة الزاد للمسافر؛ فبدونه يتعرَّض المسافر إلى الهلاك، فكيف بالسالك على طريق الله الطويل؛ يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في إحدى وصاياه : ((يا غلام الطريق إلى الله – تعالى – لا يسافر فيه إلاَّ بزاد الصدق))[٣]، وقال[٤]:

ولَّـا صَـدَقْـنَـا شِيلَتْ الحُـجـبُ بيننا ولولا كلام الصدق ما شيلَتْ الحُجب

فالصدق شرطٌ لسلوك الطريق، إذ هو زاده، وهو سيف الله في يد السالك؛ يقطع به حبال العلائق والعوائق التي تعترض طريقه في سيره إلى الله، ولولا الصدق لما استطاع السالك أنْ يرتقي في مدارج معرفة الله .

وقد حثَّ مريديه على الالتزام بالصدق فقال: ((ويحك إنْ تبت وآمنت وصدقت؛ ففي فتيتك تجد الخير والسلامة والحلاوة، وإنْ لم تفعل تجد فيه الزجاج؛ يقطع لسانك ولهواتك وكبدك))[٥] .

وقال – أيضاً –: ((يا غلمان تصدقوا عليَّ بِذَرَّةٍ مِن الصدق، أنتم في حِلٍّ مِن أموالكم وممَّا في بيوتكم، ما أريد منك إلَّا الصدق والإخلاص ونفع ذلك لكم أريدكم لكم لا لي، قيِّدوا ألفاظ ألسنتكم الظاهرة والباطنة؛ فإنَّ عليكم رقباء الملائكة يراقبون ظواهركم، والحق عليه السلام يراقب بواطنكم))[٦] .

---

(١) سورة النساء : مِن الآية ٦٩ .

(٢) أنظر : بهجة الأسرار: الشطنوفي، ص ١٢٣ .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٦١ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١ .

(٥) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢١٦، المجلس (٥٦) .

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٨ – ٢١٩، المجلس (٥٧) .

وكان حثُّه لهم على الصدق في كلِّ حالة ولاسيما في طلب العلم للتخلُّص مِن الجهل، وتصحيحاً للعمل؛ لأنَّ الصدق يحمل الإنسان على الاستقامة، وتحمُّل المشاق؛ كي ينال منه أوفر نصيب وأكبر قسط، وما نبغ العلماء إلاَّ بالصدق والإخلاص والصبر، ومِن وصاياه لتلاميذه تظهر – لنا – أهمِّيَّة الصدق وعظيم آثاره.



المبحث الثاني

كيفية الانتساب إلى الطريقة القادرية

* **أولاً : اللقاء الأول:**

ويترتَّب على هذا اللقاء اجتماع المريد مع شيخه، وتنطوي تحت هذا اللقاء أمور مهمَّة لابدَّ منها، وهي: العهد، والاستغفار، والتوبة والطاعة، والذكر، وهذه الأمور كلُّها تتمُّ على يد الشيخ المرشد المعترف بإرشاده ومشيخته .

والعهد : ركيزة مهمَّة في الطريقة القادرية، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[1]، **ويتضمَّن هذا اللقاء الخطوات الآتية :**

أنْ يصلي المريد ركعتين نافلة، وبعدها يقرأ سورة الفاتحة .

أنْ يجلس المريد تجاه شيخه لاصقاً ركبتيه بركبتيه، ثمَّ يقول الشيخ لمريده طالباً منه الاستغفار وصيغته (قل: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاَّ هو الحي القيوم وأتوب إليه، وأُشهد الله وملائكَتَه ورسلَه وأنبياءه بأنِّي تائبٌ لله منيب إليه وأنَّ الطاعة تجمعنا، وأنَّ المعصية تفرِّقُنا، وأنَّ العهدَ عهد رسوله، وأنَّ اليد يد شيخنا وأُستاذنا الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني – قُدِّس سرُّه –، وعلى ذلك أحلُّ الحلال وأُحرِّمُ الحرام وأُلازم الذكر والطاعة بقدر الاستطاعة، ورضيتُ بحضرة شيخنا المشار إليه شيخاً لي وطريقته طريقة لي والله على ما أقول وكيل .

والمقصود بالذكر هو كلمة التوحيد (لا إله إلاَّ الله) ويقوم الشيخ بتلقينه للمريد ثلاث مرات، ثمَّ يأتي دور الشيخ؛ فيقرأ الآية الكريمة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ

(١) سورة الإسراء : مِن الآية ٣٤ .

يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[1][2] .

* **ثانياً : الوصايا :**

وهي الأمور التي يوصي بها الشيخ مريده، مثل الائتمار بأوامر الله؛ كأداء الفرائض، والتمسُّك بالسنن، والاستقامة، وكثرة عمل الخير، والصلاة على النبي ﷺ، ويوصيه باجتناب النواهي، وهي الكبائر بكلِّ أنواعها، والخطايا والآثام؛ مثل الحسد والكذب والنميمة والفحش في الكلام؛ يوصيه بترك الحقد، وتحمُّل الأذى، وترك إيذاء الناس، وبذل الكف، وسخاء النفس، والصفح عن عثرات الناس[3] .

* **ثالثاً : المبايعة والقبول:**

وتأتي الخطوة الأخرى مِن قبل الشيخ بأنْ يقول لمريده : (قبلتُكَ ولداً وبايعتُك على هذا) .

* **رابعاً : الدعاء :**

يصدر مِن قبل الشيخ، وله صورتان:

الأولى: تكون على وجه العموم والشمول، وصيغته : «اللَّهمَّ اجعلنا مهديين غير ضالِّين ولا مضلِّين، سلماً لأوليائك، عدوّاً لأعدائك، نحبُّ بحبِّك مَن أحبَّك، ونعادي بعداوتك مَن خالفك، اللَّهمَّ هذا الدعاء منك وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم» .

الصورة الثانية للدعاء : ويكون خاصاً بالمريد وصيغته : «اللَّهمَّ كن به بَرّاً رحيماً جواداً كريماً، اللَّهمَّ دلَّه بك عليك، اللَّهمَّ افتح عليه فتوح الأنبياء والأولياء بجودك ورحمتك وكرمك

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٢) أنظر: قلائد الجواهر: التادفي، ص ١٤، والفيوضات الربانية : الجيلاني، ص ٢٩، والطريقة القادرية العلية: حكيم محمد حسين، ص ٣ .

(٣) أنظر: الفيوضات الربانية : الجيلاني، ص ٣١ .

يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين»[١] .

* **خامساً : الكأس:**

وهو الكأس الذي يقدِّمه الشيخ لمريده، وفيه ماء؛ يقرأ عليه الشيخ قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ ﴾[٢]، وقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٣]، ثمَّ يقرأ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص ثلاث مرات، ويناول ذلك الكأس لمريده؛ ليشربه عند ذلك تنتهي الخطوة الأولى والتي يصبح بعدها المريد مرتبطاً بشيخه ويحسب في عداد المريدين، وهذه هي المرحلة الأولى، وتأتي المرحلة الثانية وهي المهمة والتي تمتدُّ زمناً طويلاً وبلقاءات كثيرة، وهي غير المرحلة الأولى التي انتهت بجلسة واحدة .

ففي المرحلة الثانية والتي تسمَّى مرحلة الدراية يتعلَّم المريد مِن مرشده العلم والأدب؛ فيأتمر بأمره ويمتثله، ويجتنب كلَّ عيب يعيبه الشرع، ثمَّ يأخذ نفسه بالمجاهدة والرياضات تحت إشراف شيخه إلى أنْ يستكمل جميع ما يخوله لأنْ يكون مرشداً توافرت فيه شروط الإرشاد، فبعدها ينفصل عن شيخه؛ ليتولى مهمَّة الإرشاد[٤] .

* * *

(١) المصدر نفسه : الجيلاني، ص ٣١ .

(٢) سورة يس: الآية ٥٨ .

(٣) سورة الإسراء: مِن الآية ٨٢ .

(٤) أنظر: الطرق الصوفية: عامر النجار، ص ١١٢ - ١١٤، والفيوضات الربانية: الجيلاني، ص ٢٩ - ٣٠ .

المبحث الثالث

خصائص السلوك للطريقة القادرية

تصدر الشيخ الإمام القدوة عبد القادر الجيلاني للإرشاد العام، وأخذ البيعة عليهم- البيعة الخاصة -؛ لتجديد الإيمان بالعهد والميثاق على أنْ لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ولا يبتدعوا ولا يظلموا، ولا يستحلُّوا ما حرَّم الله، ولا يتركوا ما فرض الله، ولا يتفانوا في الدنيا، وأنْ لا يتناسوا الآخرة، فدخل في هذا الباب خلقٌ لا يحصيهم عدداً إلاَّ الله، فصلحت أحوالهم وحسُنَ إسلامهم، فكان لهذه البيعة والمعاهدة أثرٌ في تزكية النفوس والاصلاح - فردياً وجماعياً -، وأهمُّ خصائص السلوك :

العهد [1]: هو الرابطة التي تربط بين الشيخ والمريد، وهو أوثق رباط بين رجلين تحابّا في الله وتعاهدا على طاعته؛ فينبغي لمريد الكمال في التربية أنْ يلتحق بمرشد يتعهَّده بالتوجيه، ويرشده إلى طريق الحقِّ، ويضيء له ما أظلم مِن جوانب نفسه؛ حتى يعبد الله عليه السلام على بيِّنَةٍ وهدى .

والمريد يبايع المرشد ويعاهده على السير معه في طريق التخلِّي عن العيوب والتحلِّي بصفات الخير.

وأخذ العهد ثابت في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[2] .

(١) أنظر: الطريقة القادرية العلية : حكيم محمد حسين، ص ٣ .

(٢) سورة الفتح : الآية ١٠ .

ولَمَّا كانت البيعة في الواقع لله وحده، ويد المرشد يد نيابة؛ فقد حذَّر الله مِن نقضها، وأمر بالوفاء بالعهد؛ فقال: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[٢]، وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾[٣]، ودليلها مِن السنة النبوية المطهرة؛ مبايعة الصحابة رسول الله ﷺ بيعة الرضوان رجالاً ونساءً، بل وحتى غير البالغين مِن الصبيان[٤] .

لبس الخرقة : الخرقة: هي رداء سهل متواضع؛ يصنعه الشيخ لمريده مِن الصوف أو أيِّ نسيج خشن، ويكون مرقّعاً بأنواع عديدة مِن رقع القماش علامة على الافتقار ومنعاً للمريد مِن الزهو والخيلاء[٥] .

قال الشيخ السهروردي في الباب الثاني عشر مِن كتابه (عوارف المعارف) : ((ولبس الخرقة ارتباطٌ بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم مِن المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغٌ في الشرع لمصالح دنيوية، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة، والمقصود الكلي هو الصحبة، وبالصحبة يرجى للمريد كلَّ خير، فلبس الخرقة يزيل اتِّهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه، ويحذِّر مِن الاعتراض، واعلم أنَّ الخرقة خرقتان: خرقة الإرادة، وخرقة التبرُّك، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة، وهي للمريد الحقيقي، وخرقة التبرُّك للمتشبه))[٦]، وهو باستعداده الروحي التربوي، وتأدُّبه بآداب الشرع تحت رعاية الشيخ المربي يتأهَّل للبس خرقة الإرادة، فعلى هذا خرقة التبرُّك مبذولة لكلِّ طالب، وخرقة الإرادة ممنوعة إلاَّ مِن الصادق الراغب، وقد رأينا مِن المشايخ مَن لا يلبس الخرقة، ويسلك بأقوام مِن غير

(١) سورة النحل : الآية ٩١ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٤٠ .
(٣) سورة الرعد : الآية ٢٠ .
(٤) روح البيان: البروسوي، ٩/ ١٩، والطرق الصوفية : عامر النجار، ص ٣٩ .
(٥) عبد القادر سلطان العارفين: صلاح الدين، ص ٦٤ .
(٦) وذكر السروردي كلاماً حسناً نفيساً؛ تركناه لطوله . أنظره في : عوارف المعارف: ٢/ ٥٢ .

لبس الخرقة، ويؤخذ منه العلوم والآداب، وقد كان طبقة مِن السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسون المريدين، فمن يلبسها فله مقصد صحيح، وأصل مِن السنة، وشاهد مِن الشرع، ومَن لا يلبسها فله رأيه، وله في ذلك مقصد صحيح[١] .

ومِن هنا نقول: يكاد يجمع أهل الطرق الصوفية أنَّهم أخذوا الخرقة مِن شيوخهم في سلسلة طويلة تصل إلى النبي ﷺ .

ولكلِّ طريقة مِن الطرق سلسلة مِن المشايخ أخذ بعضهم عن بعض يداً بيد .

وإنَّ مِن عاداتهم أنْ يلبس الشيخ مريده الخرقة بعد أنْ يأخذ عليه العهد والبيعة الروحية[٢] .

ولقد اتَّفق الرواة أنَّ الشيخ عبد القادر لبس الخرقة مِن شيخه أبي سعيد المبارك، وأكَّد شيخه المخرمي نفسه ذلك بقوله : ((لبس عبد القادر الجيلي منِّي ولبستُ منه خرقة يتبرَّك كلُّ واحد منَّا بالآخر))[٣] .

وأخذها المخرمي مِن الشيخ أبي الحسن محمد بن علي القرشي الهكاري[٤]، وأخذ الهكاري مِن شيخه أبي الفرج الطرطوسي[٥]، وأخذ الطرطوسي مِن شيخه عبد الواحد أبي الفضل

---

(١) هذا مستخلص مِن مبحث (لبس الخرقة عند الصوفية) مِن عوارف المعارف، ٢/ ٤٢ – ٦٢، وقد أتى بالأدلة مِن الكتاب والسنة واستحسانات أهل العلم والذكر والمشايخ المربِّين عليهم الرحمة والرضوان .

(٢) أنظر: السيد أحمد البدوي شيخ طريقة : سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٩٦ .

(٣) قلائد الجواهر: التادفي، ص ٥ .

(٤) محمد بن علي، أبو الحسن القرشي الهكاري، كان مِن أعلام التصوف، سكن جبل (هكار) في المنطقة الشمالية، وكان ذا معرفة وعلم، وكان شافعي المذهب، له مدرسة في بغداد (ت: ٤٨٠هـ) . أنظر: سلطان العارفين، ص ٦٥ .

(٥) يوسف بن عبد الله، أبو الفرج الطرطوسي، ولد في مدينة طرطوس، ونشأ بها، ثم جاء إلى بغداد، وتلقى علم السلوك على يد شيخه أبي الفضل التميمي، واشتهر بالفقه والحديث، وكان مِن أئمة الزاهدين، توفي ببغداد سنة (٤٤٠هـ) . أنظر: سلطان العارفين، ص ٦٥ .

التميمي[١]، وأخذ التميمي مِن شيخه أبي بكر الشبلي[٢]، وأخذ الشبلي مِن الجنيد البغدادي، وأخذ الجنيد مِن السري السقطي، وأخذ السقطي الخرقة مِن معروف الكرخي، وأخذ الكرخي مِن شيخه داود الطائي[٣]، وأخذ الطائي مِن شيخه حبيب العجمي[٤]، وأخذ العجمي مِن شيخه الحسن البصري[٥]، وأخذ البصري مِن شيخه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام [٦]،

(١) عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، أبو الفضل، التميمي، البغدادي، ولدَ سنة (٣٤١هـ) حدَّثَ عن أبيه، وأبي بكر النجاد، وغيرهما، وروى عنه : الخطيب، ورزق الله التميمي، وغيرها، قال الخطيب : كَتَبتُ عنه وكان صدوقاً، (ت: ٤١٠هـ) ينظر : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١١/ ١٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي : ١٣/ ٥٨ .

(٢) دلف بن جحدر، وقيل : جعفر بن يونس، وقيل جعفر بن دلف، شيخُ الطائفة، أبو بكر الشبلي البغدادي، ولِدَ سنةَ (٢٤٧هـ) صَحِبَ الجنيد وغيرهُ، وحكى عنه : أبو القاسم عبد الله بن محمد الدمشقي، ومحمد بن عبد الله الرازي وغيرهما، قال ابن عساكر : أحدُ شيوخِ الصوفيّة المعدودين وزُهّادُهُم الموصوفين (ت: ٣٣٤هـ)، ينظر : تاريخ دمشق لابن عساكر : ٦٦/ ٥٠، وسير أعلام النبلاء للذهبي : ١١/ ٥٤٤ .

(٣) داود بن نصير، أبو سليمان الطائي، ولد بعد المائة بسنوات. وروى عن: هشام بن عروة، وسليمان الأعمش، وجماعة. وحدث عنه: ابن علية، وإسحاق بن منصور السلولي، وأبو نعيم، وآخرون. وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه، قال ابن المبارك: هل الأمر إلاَّ ما كان عليه داود، (ت: ١٦٢هـ) وقيل: (١٦٥هـ) . أنظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان، ٢/ ٢٥٩، وسير أعلام النبلاء: الذهبي، ٧/ ٤٢٢ .

(٤) حبيب بن محمد أبو محمد البصري العجمي، زاهد أهل البصرة، وعابدهم، روى عن: الحسن البصري، وشهر بن حوشب، والفرزدق شيئاً يسيراً. وعنه: حماد بن سلمة، وأبو عوانة، وداود الطائي، وآخرون. قال عنه الذهبي: وكان مجاب الدعوة، تؤثر عنه كرامات وأحوال . أنظر: تهذيب الكمال : المزي، ٥/ ٣٩١، وسير أعلام النبلاء : ٦/ ١٤٣ .

(٥) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، الفقيه، القارئ، الزاهد، العابد، سيّد زمانه، إمام أهل البصرة، بل إمام أهل العصر، روى عن جمع من الصحابة، منهم : عمران بن حصين، وعمرو ابن تغلب، وجمع كثير من التابعين، وروى عنه جمع منهم: صالح بن رستم الخزاز، وعن قتادة قال: ما جلست إلى أحد ثم جلست إلى الحسن إلا عرفت فضل الحسن عليه، (ت: ١١٠هـ). ينظر: التاريخ الكبير: البخاري، ٢/ ٢٩٠، والوافي بالوفيات للصّفدي: ١٢/ ١٩١ .

(٦) هو أشهر مِن أنْ يُعرَّف به – عليه السلام وكرم الله وجهه –، وأمَّا سند الخرقة؛ فقد ورد متصلًا عن سيدنا الشيخ عبد القادر إلى الإمام علي عليه السلام إلى سيد الوجود سيدنا محمد ﷺ، في كتاب (الكوكب الزاهر)

جاء في (نزهة الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر) ما نصُّه : ((وانتمى إليه جمعٌ عظيمٌ، وتتلمذ عليه خلقٌ كثيرٌ مِن الفقهاء، ولبس الخرقة جمعٌ لا يحصون مِن الفقراء والمشايخ الكبراء، وجمهور شيوخ اليمن يرجعون إليه في لبس الخرقة، فبعضهم لبسها مِن يده راحلين إليه، والأكثرون مِن رسوله الذي أرسله إليهم))[1] .

وقد ذكر اليافعي هذا الكلام قبل علي القاري، وممَّن لبسها منه في زمنه الشيخ الإمام أبو عمر عثمان بن مرزوق القرشي نزيل مصر .

قال الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر : ((لمَّا حجَّ والدي وكنتُ معه اجتمع به في عرفات عثمان بن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه الخرقة، وألبسها كذلك لموفق الدين بن قدامة المقدسي، وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي قبل وفاة الشيخ بخمسين ليلة))[2] .

الذكر : الذكر يثمر المقامات كلَّها مِن اليقظة إلى التوحيد، ويثمر المعارف والأحوال التي شمَّر إليها السائرون على طريق القوم، فلا سبيل لنيل ثمارها إلاَّ مِن شجرة الذكر، فلا وارد لمن لا ورد له، والذكر أصل كلِّ مقام، وهو القاعدة التي يبنى أساس العبد في منازل القرب، فلا يستيقظ المرء إلاَّ بالذكر، فالغفلة نوم القلب أو موته .

والذكر عند الشيخ الإمام القدوة الجيلاني ركنٌ قوي في طريق الحق عليه السلام، بل هو العمدة، ولا يصل السالك إلى الله إلاَّ إذا داوم على الذكر، فهو عنده مِن القواعد والأصول، ويرى الشيخ عبد القادر أنَّ كلمة الذكر في القرآن وردت على معانٍ :

الأول: الطاعة والمغفرة : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[3] .

لأبي الهدى الصيادي، ص ٣٠ .

(١) نزهة الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر .

(٢) وقد أورد التادفي في (القلائد) أخباراً كثيرةً عن الخرقة ومَن لبسها؛ فأنظرها، والعمدة عندنا ما قاله السهروردي في (عوارف المعارف)، وتقدم بيانه، والله أعلم .

(٣) سورة البقرة : مِن الآية ١٥٢ .

الثاني: التكبير: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾[١] .

الثالث: الصلاة : ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾[٢] .

الرابع: الندامة : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾[٣]؛ أي: ندموا بالقلب، وذكروا باللسان .

الخامس: الموعظة : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[٤] .

السادس: الشفاعة : ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٥] .

السابع: التوراة : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦] .

الثامن: الخبر: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾[٧] .

التاسع : القرآن : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[٨] .

العاشر: اللوح المحفوظ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾[٩] .

أحد عشر: صلاة الجمعة : ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[١٠] .

اثنا عشر: الشرف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[١١] .

---

(١) سورة البقرة : مِن الآية ٢٠٣ .

(٢) سورة البقرة : مِن الآية ٢٣٩ .

(٣) سورة ال عمران : مِن الآية ١٣٥ .

(٤) سورة الأنعام : مِن الآية ٤٤ .

(٥) سورة يوسف : مِن الآية ٤٢ .

(٦) سورة النحل : مِن الآية ٤٣ .

(٧) سورة الأنبياء : مِن الآية ٢٤ .

(٨) سورة الأنبياء : مِن الآية ٥٠ .

(٩) سورة الأنبياء : مِن الآية ١٠٥ .

(١٠) سورة الجمعة : مِن الآية ٩ .

(١١) سورة الزخرف : مِن الآية ٤٤ .

ثلاثة عشر: الرسول: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾(١)، أي: رسولاً(٢) .

ويقسّم الشيخ عبد القادر الجيلاني الذكر إلى ثلاثة أنواع (٣):

١. الذكر باللسان: ويكون للتائبين .

٢. الذكر بالقلب: ويكون للسالكين .

٣. الذكر بالسر: ويكون للعارفين .

والذكر حياة النفوس؛ فالذي يذكر الله مثله مثل الحي، والذي لا يذكر الله مثله كمثل الميت؛ قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: ((يا موتى القلوب داموا على ذكر ربِّكم عليه السلام، وتلاوة كتابه، وسنَّة رسوله، وحضور مجالس الذكر، وقد حيت قلوبكم كما حيت الأرض الميتة بنزول الغيث عليها))(٤) .

ويرى الشيخ الإمام أنَّ الإنسان إذا ذكر ربَّه بصدقٍ وإخلاص انشغل قلبه عن الخلق، وجعل بينه وبينهم حجاب؛ فلا يسأل إلاَّ الله، ولا يستعين إلاَّ بالله، ولا يلتفت إلاَّ إلى الله، فيصبح الله مقصوده ومطلوبه' وإذا داوم القلب على ذكر الله صقل الله ذلك القلب بنور المعرفة والتوحيد؛ فيصبح الإنسان متَّصلاً مرتبطاً بالله؛ عيناه تنامان وقلبه لا ينام(٥)؛ لأنَّ الذكر ثناء على الله؛ مثل قوله (سبحان الله والحمد لله)، ومِن الذكر ما يكون دعاءً، ومنه ما يكون مناجاة؛ مثل طلب حماية الله، والنصر على الأعداء والشيطان، ومنه ما يكون للرعاية الأخروية؛ كطلب زيادة الدرجات(٦) .

ولاشكَّ أنَّ أفضل هو كلمة التوحيد (لا إله إلاَّ الله)؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) سورة الطلاق : مِن الآية ١٠ .

(٢) الغنية : الجيلاني، ٢/ ٤٤ .

(٣) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٢١، المجلس (٥٨) .

(٤) جلاء الخاطر: الجيلاني، ص ٤٣ .

(٥) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٢٢٢، المجلس (٥٨) .

(٦) أنظر: مفتاح الفلاح: ابن عطاء الله الاسكندري، ص ٣ .

ٱللَّهُ ﴾[١] . وقد وضَّح الشيخ الجيلاني مِن خلال منهجه التربوي أنَّ الشيخ يلقِّنُ مريدَه كيف يذكر الله عليه السلام، ويكون ذكره بحضوره مقتدياً بتوجيهه هذا بها ورد عن (أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: " قَالَ مُوسَى عليه السلام : يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ، يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبُّ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ كَانَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعُ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ")[٢] . وهذه هي كلمة التوحيد التي يلقنِّها الشيخ لمريده، ودليلها الحديث الشريف الذي مرَّ آنفاً .

ولقد حثَّ الشيخ الإمام مريديه على إقامة حلقة ذكر كل نهار جمعة بين العصر والمغرب؛ رجاء أنْ يدركوا أفضل ساعات الجمعة على القول المشهور المعتمد عند أهل النقل مِن أهل العلم والفقه .

*** ونهجه في الذكر بالصيغ الآتية :**

لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلِّ شيء قدير (٢٠٠) مرَّة .

سبحان الله العظيم وبحمده (١٠٠) مرة .

لا إله إلاَّ الله الملك الحق المبين (١٠٠) مرة .

اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك النبي الأُمِّي (١٠٠) مرة .

---

(١) سورة محمد : مِن الآية ١٩ .

(٢) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم (ت: ٤٠٥هـ)، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ١/ ٧١٠، برقم (١٩٣٦)، وقال عنه : ((هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه)) وسكت عنه الذهبي، والنسائي في السنن الكبرى: أحمد بن شعيب بن علي، أبو عبد الرحمن الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ) كتاب عمل اليوم والليلة، باب أفضل الذكر وأفضل الدعاء، ٩/ ٣٠٧، برقم (١٠٦٠٢) .

أستغفر الله الحي القيوم وأسأله التوبة (١٠٠) مرة .

ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله (١٠٠) مرة .

* **ومِن آداب الذكر :**

الخشوع، والتأدُّب، واستحضار معانيه، وخفش الصوت ما أمكن مع اليقظة التامة، ونظافة الثوب والمكان وتطييب المجلس، وأنْ يختار الذاكر ما هو مأثور مِن الذكر وتفرُّغ القلب مِن كلِّ موجود .

وعلى هذا أرسى الشيخ عبد القادر قواعد نهجه في الذكر، وعلى هذا النهج الحميد ترك أصحابَه، وأنَّ كلَّ ما خالفه فهو مردود غير مقبول، فالذي يصنعه اليوم بعض مُدَّعي التصوف مِن خلال ذكرهم مِن أصوات عالية؛ ترتفع ولا تتجاوز الحناجر إلى ما وراءها ليس ذكراً؛ إنَّما يراد بالذكر أنَّ المؤمن يكون على صلة دائمة بربِّه في عبادته وعمله وخلواته وجلواته[١] .

ولَمَّا كانت بعض مجالس الذكر في الطريقة القادرية قد تحوَّلت إلى مجالس سماع وإنشاد قصائد وأشعار؛ صحبها بعض آلات الطرب وجبَ – علينا – بيان رأي الشيخ عبد القادر في السماع .

* **رأي الشيخ في السماع :**

السماع: ((هو كلُّ ما يستلذُّه الإنسان مِن صوتٍ طيِّبٍ))[٢]، وقيل: هو التغنِّي وإنشاد الشعر والمنظومات والتمايل بالقصائد الملحَّنة والاجتماع عليها، فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع؛ كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي، وأمثالهم مِن المتأخرين؛ كالشيخ عبد القادر الجيلاني، وعدي بن مسافر؛ فإنَّهم لم يحضروا السماع البدعي، بل كانوا يحضرون السماع الشرعي، سماع الأنبياء وأتباعهم كسماع القرآن[٣] .

---

(١) أنظر: مجلة منبر الإسلام : مقالة للأستاذ مصطفى زيد، القاهرة، لسنة (١٣٨٦هـ) ص ١١٢، والحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي: أحمد شلبي، ص ٢٠٥ .

(٢) الكليات اللغوية : أبو البقاء الكفوي، ص ٤٩٥ .

(٣) أنظر: مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ١١/ ٦٠٤ .

وإذا كان السماع يهدف إلى اللعب بالغرائز والشهوات؛ فهو منهي عنه؛ كإثارة الحزن لأصحاب المصائب مِن خلال النياحة وغيرها .

ولَمَّا كانت حلقات الذكر تتحوَّل إلى مجال غناء وتغزُّل؛ تتحرَّكُ فيها نزوات الحاضرين، وتتخلَّلُها آلات الطرب؛ فتصبح حلقات رقصٍ ومجون، الأمر الذي دفع كثيراً مِن الفقهاء – ومنهم مَن سبق ذكره – إلى مهاجمة السماع، والنهي عنه، فالشيخ عبد القادر يقول: ((القلب هو المؤمن، هو الموحِّد، هو المخلص، هو المتقي، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقن، هو العارف، هو العامل، هو الأمير، ومَا سواه جنوده وأتباعه، إذا قلتَ : (لا إله إلاَّ الله) فقل أولاً بقلبك ثمَّ بلسانك))[1]، ((مَن كان ذاكراً لله عليه السلام بقلبه فهو الذاكر، ومَن لم يذكره بقلبه فليس بذاكر. اللسان غلام القلب وتبعٌ له))[2] .

الشيخ عبد القادر الجيلاني في حالة السماع يفرِّق بين المريد الصادق وغيره، فالذي يكون سماعه شرعياً؛ كتلاوة القرآن والصلوات والأذكار والتسبيح والأوراد؛ فهذا يعبَّر عنه بأنَّه مريدٌ صادقٌ؛ لقوله – رحمه الله – : ((المريد الصادق نائرته غير خامدة، وشعلته غير هامدة، ومحبوبه غير غائب))[3] .

والعلماء انقسموا في هذه القضية إلى مؤيِّدٍ؛ يدعم رأيَه بالدليل، ويبرِّرُه بالتبريرات، وبين مُعارض؛ جزم بحرمته والنهي المطلق عنه .

فالعز بن عبد السلام – وهو أحد الفقهاء في القرن السابع الهجري – يرى أنَّ أهل العلم قد اختلفوا في السماع على ثلاثة آراء :

ما هو حرامٌ محضٌ: وهو لأكثر الناس مِن الشباب، وقد غلبت عليهم شهواتهم ولذَّاتهم،

---

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٧٣، المجلس (١٥) .

(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٠٢، المجلس (٢٣) .

(٣) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٧٨ .

وملكهم حبُّ الدنيا، وتكدَّرتْ بواطنهم، وفسدت مقاصدهم؛ فلا يحرِّك السماع منهم إلاَّ ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم مِن الصفات الذميمة ولاسيما في زماننا هذا .

ومنه ما هو مباحٌ : وهو لمن لا حظَّ له منه إلاَّ التلذُّذ بالصوت الحسن، واستدعاء السرور والفرح، ومنه ما هو مندوب، وهو لمن غلب عليه حبُّ الله عليه السلام، والشوق إليه، فلا يحرِّكُ السماع منه إلاَّ الصفات المحمودة، ويضاعف الشوق إلى الله عليه السلام بقوله : ((ومجمل القول في ذلك: أنَّ مَن سمع؛ فظهرت عليه صفات نفسه، وتذكر به حظوظ دنياه؛ فاستثار سماعه وساوس هواه؛ فالسماع عليه حرام، ومَن سمع فظهر له ذكر ربِّه، وخوفه مِن ذنبه، وذكر آخرته؛ فأنتج له ذلك الذكر شوقاً إلى الله، وحبّاً فيه، ورجاءً لوعده، وخوفاً مِن وعيده؛ فسماعه ذكر مِن الأذكار مكتوبٌ في صحائف الأبرار))[١] .

وخلاصة قول الشيخ عبد القادر – رحمه الله – في هذا الموضوع : أنَّه يعارض السماع الذي يصاحبه الرقص واستعمال آلات الطرب، وهذه الأمور تعدُّ عنده مِن المكروهات، والظاهر أنَّها كانت سائدةً في وقته في المساجد وحلقات الذكر، والمقبول عنده، بل والمستحب قراءة القرآن والذكر الشرعي[٢] . أمَّا أصحاب الصراخ والقيانة؛ فيسمِّيهم الشيخ بـ(شركاء الشيطان)، وحتى قراءة القرآن إذا كانت ممَّا تشبه الأغاني؛ فيعبره الشيخ انتقاصاً مِن مقام القرآن؛ لأنَّ الغاية مِن قراءته هي الخشية والقرب والاستجابة لمواعظه[٣] . فالمؤمنون هم الذين لا تطمئن قلوبهم ولا ترتاح نفوسهم إلاَّ إذا سمعت كلام الله؛ إذ هو كلام محبوبهم وصفته، وفيه ذكره، وذكر الأولياء الأولين والآخرين والماضين والعابرين، والمحب والمحبوب والمريد والمراد، وعتاب المدَّعين لمحبَّته ولومهم[٤] .

---

(١) بين الشريعة والحقيقة : العز ابن عبد السلام، ص ٢٨ – ٢٩ .
(٢) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٣١٧ .
(٣) أنظر: المصدر نفسه، ٣/ ١٣١٧ .
(٤) أنظر: المصدر نفسه، ٣/ ١٣١٧ .

فإنشاد الشعر عند الشيخ إمَّا أنْ يكون مباحاً أو محظوراً، فالمباح هو الشعر الذي لا فُحش ولا سخف فيه، وأمَّا إذا كانت فيه كلمات تحرِّكُ في الإنسان كوامن نزواته؛ فهي لاشكَّ مِن الكلام المنهي عنه، وقد فسَّر بعض المفسِّرين قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1]؛ بالغناء [2] .

وللسماع في نظر الشيخ آداب؛ منها : أنْ يكون المستمع ذاكراً لربِّه بقلبه؛ محافظاً على قلبه مِن طوارق الهوى ونوازع الشيطان وسوء الغفلة والنسيان[3] .

وأهم ما امتازت به الصوفية هو التحرُّز في السماع، وهم يكرهونه إذا كان الغرض منه الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود[4] .

❊ ❊ ❊

المبحث الرابع

(١) سورة لقمان : مِن الآية ٦ .
(٢) أنظر: الغنية : الجيلاني، ١/ ١٢٩ .
(٣) . أنظر: الغنية : الجيلاني، ١/ ١٢٩ .
(٤) . أنظر: المصدر نفسه، ٣/ ١٣٧٨ .

رأي أهل العلم بالطريقة القادرية وما طرأ عليها

قال الشيخ العارف أبو الحسن علي القرشي: ((كانت طريقته التوحيد وصفاً وحالاً وحكماً، وتحقيق الشرع ظاهراً وباطناً، ووصفه قلب فارع وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرةٍ لا يجاذبها الشكوك، وسر لا ينازعه الأغيار، وقلب لا يفرِّقه التفات جعل الملكوت الأكبر مِن ولائه والملك الأعظم تحت قدميه رضي الله عنه))[١] .

أمَّا علي الهيتي (ت: ٥٦٤هـ) فقد سُئل عن طريقة الشيخ عبد القادر؛ فقال: ((كان قدمه التفويض والموافقة مع التبرِّي مِن الحول والقوة، وطريقة التوحيد، وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية بسرٍّ قائم مقام العبودية لا بشيء ولا لشيء، وكانت عبوديته صحيحة مشتملاً في لحظ كمال الربوبية، فهو عبدٌ سما عن مصاحبة التفرقة إلى مطالعة الجمع مع لزوم أحكام الشريعة))[٢] .

وقال عدي بن مسافر – رحمه الله – (ت: ٥٥٧هـ) : ((طريقة الشيخ الذبول تحت مجاري القدر بموافقة القلب والروح، واتِّحاد الظاهر والباطن، وانسلاخه مِن صفات النفس مع الغيب عند رؤية النفع والضر والقرب والبعد))[٣] .

وقال الشيخ بقا بن بطو – رحمه الله – (ت: ٥٥٣) : ((كانت قوة الشيخ عبد القادر في طريقه إلى ربِّه كقوى جميع أهل الطريق شدَّةً ولزوماً، وكانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً))[٤] .

---

(١) الطبقات الكبرى: الشعراني، ١/ ١١٠ .
(٢) المصدر نفسه، ١/ ١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه، ١/ ١٠٩ .
(٤) المصدر نفسه، ١/ ١٠٩ – ١١٠ .

وعلى هذه الطريقة القائمة على أسس وقواعد علمية متماسكة ضمن نظام يسوده التمسُّك بالله وبأحكامه المتحلِّي بالآداب الشرعية، المتَّسم بالحب والطاعة والاحترام والمساعدة فيما بينهم، ربَّى الشيخ أتباعه وتلاميذه، ولكن هل بقيت طريقة الشيخ على ما كانت عليه في زمانه أم أنَّها خالطها اليوم ما ليس منها ؟

الملاحظ على الطريقة القادرية في الوقت الحاضر أنَّها كغيرها مِن الطرق التي دخل فيها ما ليس منها، فقد انحرفت عن خطِّ سيرها الصحيح السليم الذي رسمه المربِّي الكبير والموجِّه العظيم الشيخ عبد القادر، فالطريقة عند الشيخ أساسها الاتِّباع لا الابتداع، والتمسُّك بالآداب لا التحلُّل منها، والتواضع لا الكِبْر، وأكل الحلال لا أكل الحرام، والزهد لا حب الظهور .

نعم لقد دخل في الطريقة القادرية أُمورٌ شاعت بين الناس أنَّها مِن صميمها ولكن في الحقيقة هي مِن الأمور التي طرأت عليها مِن أساليب الطرق الأخرى، وهي في الحقيقة ليست ممَّا دعت إليه الطريقة القادرية؛ فمثلاً : المنتسبون إليها اليوم يقومون بأفعال غريبة؛ كالطعن بالحراب، وحمل الحيَّات، واستعمال النار، وحمل الحديد المتوهِّج بالأفواه، أو على الرؤوس، والميل يميناً ويساراً متبخترين؛ شعارهم الادِّعاء، يردِّدون اسم شيخهم أكثر مِن ذكر الله .

فالطريقة القادرية ما بُنيتْ على هذا الأساس، بل أساسها وجوهرها الفناء التام، وقد أكَّد ذلك الشيخ – رحمه الله – بنفسه؛ فقال: ((ومعنى الوصول إلى الله عليه السلام خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والثبوت، مع فعله، ومِن غير أنْ يكون منك حركة فيك، ولا في خلقه، بل بحكمه وأمره وفعله، فهي حالة الفناء يعبّر عنها بالوصول، فالوصول إلى الله عليه السلام ليس كالوصول إلى أحدٍ مِن خلقه))[1] .

إنَّ الشيخ – رحمه الله – لا يقبل ولا يرضى أمثال هذه الأساليب أنْ تكون في طريقته؛ لأنَّ

(١) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٣١ – ٣٢ .

طريقته مبنيَّة على إقامة شرع الله والأدب المطلق مع الحق عليه السلام، فشتان بين الطريقة وبين بعض مَن يدَّعون الانتساب إليها؛ لأنَّ الطريقة الصحيحة الواجبة الاتِّباع مِن قبل المريد الصادق هو أنْ يكون على حدِّ قوله – رحمه الله – : ((إنَّ المريد الصادق نائرته غير خامدة، وشعلته غير هامدة، ومحبوبه غير غائب، وأنيسه غير مستوحش؛ فهو – إذاً – في ريادة دنو وقُرب، ولذة ونعيم؛ فلا يغيِّره ويهيِّجه عن حالته غير كلام مراده وحديثه الذي هو ربه، لا الأشعار والقيانة والأصوات وصراخ المدَّعين شركاء الشياطين، وركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع، أَتباع كلِّ ناعق وزاعق))[1] .

لقد اتَّضح – لنا ممَّا تقدَّم – أنَّ الطريقة القادرية قائمة عملياً على الذكر المجرَّد والاشتغال به عمَّا سواه، فالسيد الجيلاني كان يصبُّ أكثر اهتمامه في تربيته لمريديه على الذكر والخلوة والتربية الروحية والزهد، لا حبُّ الدنيا والركون إليها والركوع بين يديها .

أقول: إنَّ بعض أتباع الطريقة قد شوَّهوا صورة الطريقة التي أرسى قواعدها الشيخ الجيلاني، فكثير ممَّن يرتكب الكبائر ويترك المفروضات، ويرى المنكرات مِن المستحبَّات يدَّعي أنَّه منتسب لتلك الطريقة، والعيب فيه لا في الطريقة التي ينتسب إليها، والخلل فيه لا في الشيخ الذي يدَّعي الانتساب إليه، فطريقة الشيخ طريقة الفضائل لا الرذائل، والمكرمات لا الموبقات، طريقة الشيخ زهدٌ وصفاء، وحبٌّ وإخاء وولاء .

❊ ❊ ❊

(١) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٨٧ .

[الفصل الرابع]

المنهج الإصلاحي والتربوي وأسسه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني «قدس سره»

ويشتمل على مبحثين:

* المبحث الأول: المنهج الإصلاحي عند الشيخ عبد القادر .
* المبحث الثاني: المنهج التربوي وأسسه عند الشيخ عبد القادر.

المبحث الأول

المنهج الإصلاحي عند الشيخ عبد القادر

تستهدف التربية توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات، والقضاء على أسباب التفكُّك الاجتماعي الذي ساد في المجتمع في تلك الحقبة .

ومِن هنا قام الشيخ عبد القادر الجيلاني بواجبه في إصلاح النفوس حسب منهج مرسوم وخطة راشدة، ولقد شخَّص الشيخ الجيلاني الداء أولاً، ووصف له الدواء مباشرةً؛ فما توانى عنه، ولا كسل، بل ولا أوكله إلى غيره، ولا قال كما يقول المتوانون المتثاقلون عن الواجبات : ليس هذا ممَّا يجب عليَّ وحدي؛ فليقم به غيري، لالا لم يقل الشيخ مثل هذا، ولا خطر على باله كيف . وواجب الوقت يدعوه إلى أنْ يقوم بواجب النصح والارشاد في إصلاح النفوس والعودة بها إلى طريق الحق .

نعم؛ بدأ الشيخ الجيلاني بمعالجة أمراض القلوب والنفوس التي سرت في كيان الأُمَّة ممثّلةً في رجال العلم والمعرفة، فأخذ في إبداء النصح لأهل العلم، إذ لم تكن حالة الكثيرين منهم تتَّفق والرسالة التي يحملونها، والأخلاق التي يجب أنْ يتحلَّوا بها، إذ أنَّ الكثيرين مِن هذا الصنف اشتركوا في الفتن التي كانت تدور بين رجال السلطة الحاكمة (الخلفاء، والسلاطين السلاجقة) فكانوا يؤيِّدون المنتصر، ويفتون بفساد المهزوم[1] .

إضافة إلى تنافسهم على الجاه؛ لاعتلاء منابر الوعظ والخطابة، ولاسيما في الأماكن المشهورة، ولم يألُ البعض منهم في الإيذاء لبعضهم الآخر عند الخليفة أو الوزراء وغيرهم مِن أصحاب

---

(١) كما فعلوا عند انتصار السلطان السلجوقي على الخليفة المسترشد سنة (٥٣٠هـ) . أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

الحَلِّ والعقد[١]، ومنهم مَن عُرِف بسوء الخُلُق[٢]؛ فضلاً عن اشتغالهم بالخصومات المذهبية، روى ابن الجوزي وقائع كثيرة ممَّا شاهده مِن خصومات الفقهاء؛ فقد حدثت عام (٥٤٦هـ) فتنة في (جامع المنصور) حيثما جلس ابن العبادي للوعظ، فلم يمكِّنه الحنابلة مِن ذلك، وأدَّى إصرارُه إلى قيام فتنة في الجامع المذكور، حيث تراشق الناس بالآجُرِّ، وطارت العمائم، وتفرَّق الناسُ منهزمين كل قومٍ يطلبون جهة[٣] .

سمع الشيخ الجيلاني هذه الحادثة وغيرها - فهو مِن المعاصرين لابن الجوزي -؛ فانتقد هؤلاء القوم انتقاداً لاذعاً، وعدَّهم تجَّاراً؛ يتاجرون بالدين، ويساهمون في تفشِّي التحلُّل والأمراض الاجتماعية بكلِّ صورها، وكان الشيخ عبد القادر شديداً عليهم؛ يظهر ذلك في قوله : ((يا سلاَّبين الدنيا بطريق الآخرة مِن أيدي أربابها، يا جهَّالاً للحق: أنتم أحقُّ بالتوبة مِن هؤلاء العوام، أنتم أحقُّ بالاعتراف بالذنوب مِن هؤلاء، لا خير عندكم))[٤] .

وجلس يوماً مِن أيام رجب سنة (٥٤٦هـ) يعِظُ الناس وفيهم مِن أهل العلم والمعرفة عددٌ غير قليل، فقال مخاطباً العلماء بين جمهور الناس: ((لو كانت عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيتَ إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العالم لا رِجلين له؛ يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يدين له بأخذ بهما أموال الناس، والمحبُّ لله عليه السلام لا عينين له؛ ينظر بهما إلى غيره))[٥] .

---

(١) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ٢٤٠ .

(٢) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٧/ ٣٣٦ . بيان قصة الواعظ المغربي الذي منحه السلطان مكاناً في داره للتدريس، وبعد سنتين قبض عليه، فوجد في بيته (نبيذ وآلات طرب) فلمَّا سُئل عنها ؟ قال: إنَّها لزوجته المغنية .

(٣) أنظر: المنتظم: ابن الجوزي، ١٨/ ٨١ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٩ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٣ .

إنَّ الشيخ عبد القادر يدرك ويعلم أنَّ صلاح الناس بصلاح العلماء، ومِن هنا انصبَّت دعوتُه الاصلاحية بادئ ذي بدء في أهل العلم والمعرفة، فإنَّ الواحد منهم بألف مِن العامّة وزلَّةُ العالِمِ زلَّةُ العالَم، وليحتمل هؤلاء مِن الشيخ الجيلاني مواعظه ونصائحه؛ فتحيي قلوبهم ونفوسهم مِن قبل أنْ يُقذَفوا في النار قبل كلِّ أحدٍ مِن الخلق. ليحتملوا مِن الشيخ عبد القادر هذه الموعظة ((يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عليه السلام أنتم في ظلم ظاهر، ونفاق ظاهر، هذا النفاق إلى متى يا علماء ويا زهَّاد ؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين؛ حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذَّاتها ؟ أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظَلمة خونة في مال الله عليه السلام في عباده، اللَّهمَّ اكسِر شوكة المنافقين، واخذلهم أو تُبْ عليهم، واقمع الظلمة، وطهِّر الأرض منهم أو أصلحهم آمين))[1] .

ويرى الشيخ الجيلاني أنَّ مِن واجبه التربوي أنْ يحذِّر تلاميذَه مِن الدراسة على يد هؤلاء وأمثالهم ممَّن تصدَّوا للتدريس والوعظ؛ ممَّن رآهم بأنَّهم لا يصلحون لشيءٍ مِن ذلك، ولقد نصح مِن قبل الإمام محمد بن سيرين فقال: «العلم دينٌ؛ فخذوا دينكم عمَّ تثقُّون به»، وهكذا قام الشيخ عبد القادر بنصيحته لطلبة العلم عامة؛ فقال: ((يا غلام لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهَّال بالله عليه السلام، كلُّ علمهم عليهم لا لهم ! هم علماء بحكم الله – تعالى –، جهَّال بالله – تعالى –، يأمرون الناسَ بأمرٍ ولا يمتثلونه وينهون عن شيء ولا ينتهون عنه، يدعون إلى الله عليه السلام وهم يفرُّون منه، ويبادرونه بمعاصيهم وزلاَّتهم، أسماؤهم عندي مؤرَّخة مكتوبة معدودة))[2] .

وكما حذَّر الشيخ طلبة العلم، مِن هؤلاء (!) فقد حذَّر عامة الناس – أيضاً – مِن حضور مواعظهم وخُطَبهم بقوله : ((يا عباد الله؛ لا تسمعوا مِن هؤلاء الذين يفرِّحون نفوسكم، يذلُّون للملوك، ويصيرون بين أيديكم كالذر، لا يأمرونهم بأمره ولا ينهونهم عن نهيه، إنْ

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٩٥، المجلس (٥١) .

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨، المجلس (١١) .

فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلُّفاً، طهَّر الله الأرض منهم ومِن كل منافق، أو يتوب الله عليهم، ويهديهم إلى بابه، إنِّي أغار إذا سمعتُ واحداً يقول: الله الله، وهو يرى غيره))[١] .

ولقد اهتمَّ الشيخ عبد القادر الجيلاني بأكابر العلماء وأصحاب الرأي فيهم، ولم يرض لهم الاشتغال بما هو مِن شأن الأصاغر مِن طلبة العلم، فالتعصُّب للرأي دليلُ الإعجاب أو الضعف أو كليهما !

فكان يقول محذِّراً مِن مغبَّة التعصُّب الذميم : ((دع عنك الكلام فيما لا يعنيك، أُترك التعصُّب في المذهب، واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة))[٢] .

ولقد ندَّد بخصوماتهم مِن أجل الظهور والجاه في مجال الوعظ والخطابة؛ فقال ناصحاً ومرشداً : ((أنت هوس تؤلِّفُ كلامك مِن الكتب، وتتكلَّم به، إنْ ضاع كتابك ما تصنع؟ أو وقع الحريق في كتبك، أو انطفأ مصباحك الذي تبصر به ؟إذا انكسرت جرَّتُك وتبدَّد الماء الذي فيها ؟ أين مقدحتك وحراقك وكبريتك ومعينك؟ مَن تعلَّم العلم وعمل وأخلص صارت المقدحة والمعين في قلبه نوراً مِن نور الله عليه السلام؛ فيضيء هو وغيره، تنحَّوا يا أبناء اللقلقة ! يا أبناء الصحف المؤلفة بأيدي النفوس والأهوية، ويلكم تنازعون المخصوص، تنقصمون وتهلكون، ولا تبلغون حظَّكم كيف تتغيَّر السابقة والعلم بجهدكم؟!))[٣] .

وهكذا نرى أنَّ الشيخ عبد القادر قد ركَّز على محاربة الأخلاق الاجتماعية السيئة التي ظهرت في عصره، ورأى أنَّ ذلك مِن أولى ما يتسابق إليه الناصحون لأُمَّتهم والمرشدون لأبناء جنسهم وطبقتهم، وعدَّ نصحه هذا جهاداً في محاربة ذلك الفساد، وأنَّه سلط على كلِّ كذاب منافق دجال[٤] .

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨، المجلس (٣) .
(٣) أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٥٤، المجلس (٦٢) .
(٤) أنظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٣، المجلس (٥٩) .

ولقد أغضب الشيخ عبد القادر نفاق نفر مِن هؤلاء الذين عزَّ عليه أنْ يراهم تلطَّخوا بهذا الداء المُهلك؛ فقال وبلسان المتحرِّق عليهم : ((ملائكتكم تتعجَّبُ مِن وقاحتكم، تتعجَّبُ مِن كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجَّب مِن كذبكم في توحيدكم، كلُّ حديثكم عن الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء، أكل فلانٌ، لبس فلانٌ، تزوَّجَ فلانٌ، استغنى فلانٌ، افتقرَ فلانٌ، كلُّ هذا هوسٌ، ومقتٌ وعقوبة؛ توبوا واتركوا ذنوبكم، وارجعوا إلى ربِّكم دون غيره، واذكروه وانسوا غيره، الثبات على كلامي علامة الإيمان، والهرب من علامة النفاق، يا مَن يطعن في تعالٍ؛ حتى نحك حالتي وحالتك على الشرع، فمَن خرجت حالته شبهاً وفضة استحقَّ أنْ يطعن فيه، وأنْ يهجر ويموت باسم الله – تعالى – أبرز ولا تختبئ، وتهرب كالمخانيث ذاك لا شيء، وهوس وتوان))[1] .

كما أنَّ منهجه الإصلاحي العام تضمن الدعوة لإنصاف الفقراء، وعدم التفرقة بينهم وبين الأغنياء، فقد جعل الاهتمام بشؤون الفقراء مِن شروط الإيمان[2]، وشدَّد في الإنكار على الولاة الذين لا يرفقون برعيَّتهم، وعلى الأغنياء الذين يخصُّون على أنفسهم دون إخوانهم مِن الفقراء بأطاييب الأطعمة، وأحسن الكسوة، وأطيب المنازل، وأحسن الوجوه، وكثرة الأموال، وأفتى بأنَّ انتسابهم إلى الإسلام دعوى كاذبة، وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين[3] .

ويبدو ممَّا كتبه المؤرخون الذين أوردوا أخبار عبد القادر أنَّ اهتمامه بالفقراء لم يقف عند الوعظ في الحض على مساعدتهم ومواساتهم، بل بادر هو بكفاية الفقراء والمعوزين، وقد مرَّ بنا بأنَّه فتح بابَه للفقراء والغرباء، ويقدِّم لهم الغذاء، والمنام، ويعطيهم ما يحتاجون[4] .

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦١، المجلس (٦٢) .
(٢) أنظر: المصدر نفسه، ص ٨٣، المجلس (١٨) .
(٣) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٨٣، المجلس (١٨) .
(٤) أنظر: مسالك الأبصار: ابن فضل الله العمري، ١/ ١٠٤ .

وقد حرص الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني على تنمية أسباب الوفاق والتآلف بين المسلمين، وتجميع جهودهم لمواجهة التحديات القائمة والتي تمثَّلت في محاربة الخصومات المذهبية، فقد حارب التعصُّب المذهبي، ونهى تلاميذه ومريديه عنه، وكان يوصي الذين يهيئون منهم للعمل في ميدان الدعوة والإرشاد أنْ يبتعدوا عن الخصومات المذهبية، وأنْ لا يتعرَّضوا للخلافات بين المذاهب، وانفتح الشيخ الإمام على المذهب الشافعي، وتعاون مع الشافعيين، وأفتى على المذهب الشافعي إلى جانب المذهب الحنبلي[١]، ولذا وصفه الإمام يحيى النووي الشافعي بأنَّه ((كان شيخ السادة الشافعية والحنابلة))[٢] .

وكان إماماً ربانياً مربِّياً جيلاً مِن خلال منهجه الإصلاحي؛ لتهذيب النفوس وتقويم اعوجاجها وإصلاح خللها وتثقيف العقول، وكان لا يهاب أحداً مِن الخلق .

هذا وإنَّ منهج الشيخ الإمام القدوة الجيلاني اتَّسعت دائرته الإصلاحية؛ فشمل أخص طبقات المجتمع آنئذٍ ألا وهم (المتصوفة) وما طرأ على (منهج التصوف) مِن انحراف عن نهجه السوي، ومقصده الأسنى، فعمل الشيخ القدوة أبو محمد على العودة بالتصوف إلى وظيفته الأولى في أداء رسالته في خدمة الإسلام مِن خلال الارتقاء بالمسلمين والمؤمنين إلى درجة ومقام المحسنين، وركَّز جهده في هذا الميدان على :

تنقية التصوف؛ ممَّا طرأ عليه مِن انحرافات وردِّه إلى الاتجاه الصحيح، فكان يعد مدرسة تربوية؛ هدفها الأساس غرس معاني التجرُّد الخالص والزهد الصحيح والحب العميق لله ولرسوله وجماعة المسلمين .

وكان مصنَّفاه : (الغنية لطالبي طريق الحق) و(فتوح الغيب) خلاصة أفكاره، ونظراته الإصلاحية، ولم يكن يعتمد في هذه المهمَّة الإصلاحية على البحث النظري أو الحديث والوعظ؛ وإنَّما طبَّقَه في ميدان التربية العملية في مدرسته .

(١) أنظر : الطبقات الكبرى : الشعراني، ١/ ١٠٨ .

(٢) قلائد الجواهر : التادفي، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

نقد المتطرفين مِن (المتصوفة) حيث حمل عليهم مِن خلال كتبه ومواعظه لِما رأى عليهم مِن تلبُّسٍ بالتصوف، وتحريف لمعناه؛ لأنَّ التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحقَّقُ بتغيير الخرق، وتصغير الوجود، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنَّما يجيئ بالصدق في طلب الحق عليه السلام، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق مِن القلب، وتجرُّده عمَّا سوى مولاه عليه السلام[١] .

كذلك انتقد ما شاع بين (المتصوفة) مِن بدع؛ كسماع الألحان، والرقص، والضرب بالدفوف التي لا تتفق مع كتاب الله عليه السلام، ولا سنَّة رسوله ﷺ .

وقرَّر أنَّ المريد الصادق في سلوكه لا يهيِّجهُ كلامٌ غير كلام الله عليه السلام، والله غنيٌّ عن الأشعار، والقيان، والأصوات، وصراخ المدَّعين؛ شركاء الشياطين، رُكَّاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباعُ كلِّ ناعقٍ وزاعق[٢] .

وهكذا نرى أنَّ الشيخ الإمام القدوة الجيلاني كان هدفه منصبّاً في تربية الإنسان تربيةً روحية قوامها الإيمان بالله عليه السلام، والسموِّ به، وتحصينه مِن الأزمات النفسية، وتنقيته مِن الصفات الذميمة؛ لكي تحقِّقُ التربية الإسلامية أهدافها .

وقد جمعت الطريقة القادرية بين المادية والروحية؛ كي تكون متوازنة، فلا ترجح إحداهما على الأخرى؛ لأنَّ الرجحان في ذلك يؤدِّي إلى خسارة إحداهما، ولهذا جاء القرآن الكريم محقِّقاً التوازن؛ فخاطب الروح والجسد معاً مادام الإنسان يأخذهما بطريق مشروع؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[٣]، ونحن نحتاج إلى هذه التربية الروحية؛ حتى يشرق الإيمان مِن جديد على أبناء مجتمعنا؛ لكي يوحِّدوا الله - سبحانه -، ولا يقعوا في عبادة الأنداد التي تمزِّقُهُم وتضربُ بعضهم ببعض؛ نحتاج

(١) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١١٠، المجلس (٢٥) .
(٢) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٧٨ .
(٣) سورة القصص: مِن الآية ٧٧ .

إلى تلك التربية؛ حتى يسمو المجتمع بروحه ولا يتحوَّل إلى قطيع مِن الحيوانات يفترشون الحدائق والشوارع، ويرتكب المفاسد والرذائل، ويستسلم إلى الضياع والانحدار، وينحدر إلى كهوف الدعارة والقمار؛ لأنَّ الحياة الروحية قوة هائلة لبناء المجتمع والأُمة التي تريد أنْ تكون خير أُمَّة أُخرجت للناس[1] .



(١) مجلة التربية الإسلامية : مقالة للدكتور محسن عبد الحميد، العدد (٢) لعام (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) ص ٩٠.

المبحث الثاني

المنهج التربوي وأسسه عند الشيخ عبد القادر

عني الشيخ – رحمه الله – بعدما أتمَّ دراسته العلمية وسلوكه الروحي على يد جهابذة العلماء والفقهاء والعارفين، وجمع بين الرئاسة العلمية والرئاسة الدينية بالإصلاح وإرشاد الخلق إلى الحق تبارك وتعالى .

وكان الشيخ – رحمه الله – يرى: أنَّ قيامه بهذا العمل فرضٌ حتمٌ، وأنَّه مختار لهذه المهمة التربوية والعمل الإصلاحي؛ فهو القائل: ((سبحان مَن ألقى في قلبي نُصحَ الخلق، وجعله أكبر همِّي))[1] .

ومنهج الشيخ عبد القادر – رحمه الله – في التربية الروحية لتلاميذه ومريديه منهجٌ قوامه التجربة الذاتية، وهي حصيلة واسعة اكتسبها مِن تجارب السابقين في طريق الولاية والمعرفة، ومِن ارشادات وتعاليم المشايخ الصادقين مِن أهل السلوك والتربية .\ومنهج الشيخ جاء مبثوثاً في كثيرٍ مِن كتبه، ونحن بهذا الجهد المبذول حاولنا أنْ نلمَّ بأهمِّ وأبرز الأسس لمنهجه التربوي، والله ولي التوفيق والقادر عليه .

❋ **أهمُّ أسس المنهج التربوي عند الشيخ عبد القادر - رحمه الله -:**

❋ **أولاً : الصحبة :**

إنَّ الله عليه السلام خلق الإنسان مجبولاً على ألفة غيره، والصحبة مِن دواعي الفطرة السليمة؛ إذ لها أثرٌ بالغٌ على سلوك المرء، فالمرء تنطبع فيه أخلاق صاحبه انطباع الصورة في

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٤١، المجلس (٦) .

المرآة؛ لذلك حثَّت الشريعة الإسلامية – في منهجها التربوي – على اختيار الصاحب الذي يأخذ بيد المصحوب إلى الفوز والنجاة .

والصحبة لها أهمِّيَّة كبيرة في نظر الشيخ عبد القادر معتمداً في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(٢)] .

وحديث النبي ﷺ : (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)[(٣)]، وعن ابن العباس – رضي الله عنهما – قَالَ: (قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عَمَلِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمُ الْآخِرَةَ عَمَلُهُ)[(٤)] .

وهناك الكثير مِن الأدلة على أهمِّيَّة الصحبة في سلوك الفرد إلى الله عليه السلام، وما مِن إمامٍ مِن أئمة التصوف إلاَّ وقد حثَّ على حسن اختيار الصاحب، وقد أجمل ذلك أحسن إجمال ابنُ عطاء الله السكندري؛ لقوله : ((لا تُصاحب مَن لا ينهضك حالُه، ولا يدلُّك على الله مقالُه))[(٥)] .

وقد بيَّن أئمة الصوفية آداب الصحبة وأقسامها في مكتوباتهم، ومنهم الإمام القشيري؛ إذ قال: ((الصحبة على ثلاثة أقسام: صحبةُ مَن فوقك: وهي في الحقيقة خدمة، وصحبةُ مَن دونك: وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والحرمة، وصحبة الاكفاء والنظراء : وهي مبنية على الإيثار والفتوة))[(٦)] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٦٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند المكثرين مِن الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ١٤/ ١٤٢، برقم (٨٤١٧)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: ((إسناده جيد، رجاله ثقات)) .

(٤) أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان، ٧/ ٥٧، برقم (٩٠٠٠) .

(٥) إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ١/ ٧٤ .

(٦) الرسالة القشيرية، ٢/ ٤٥٧ .

وعلى أساس هذا التقسيم للصحبة نفهم مِن خلاصة قول القشيري في النوع الأول أنَّها خدمة، وهي كلمة شاملة جامعة لآداب المريد مع شيخه .

ويفسِّرها الشيخ عبد القادر بقوله : ((يا غلام لو عرفتني ما برحتَ مِن بين يدي، وتبعتني أينما توجَّهتُ، يا غلام ما كنت تفقد وتبرح سواء استخدمتك أو أبطلتك، أخذتُ منك أو أعطيتك، أفقرتك أو أغنيتك، أتعبتك أو أرحتك))[١] .

وقال – أيضاً –: ((مَن أراد الصلاح؛ فليصِر أرضاً تحت أقدام الشيوخ))[٢] .

ويفسِّرُ الشيخ – رحمه الله – النوع الثاني مِن أنواع الصحبة عند القشيري (الاكفاء والنضراء) المتمثلة بالإيثار والفتوة بما يأتي: ((أنْ لا يرى لنفسه على أحدٍ حقّاً، ولا يطالب أحداً بحقٍّ، ويرى لكلِّ أحدٍ عليه حقّاً، ولا يقصِّر في القيام بحقِّهم، ومِن حقِّ الصحبة لهم : الموافقة لهم في جميع ما يقولون أو يفعلون، ويكون معهم أبداً على نفسه ويتأوَّل لهم، ويعذر عنهم، ويترك منافرتهم، ومخالفتهم، ومجادلتهم، ويتعامى عن عيوبهم، فإنْ خالفه أحدٌ منهم في شيء سلَّم له ما يقول في الظاهر، وإنْ كان الأمر عنده بخلاف ما يقول، وعليه أنْ يتجنَّب فعل ما يكرهونه، وإنْ علم فيه صلاحهم، ولا ينطوي لأحدٍ منهم على حقدٍ، وإنْ خامر قلب واحدٍ منهم كراهيةً له تخلَّق بشيء حتى يزول ذلك، فإنْ لم يزل زاد في التخلُّق حتى يزول، وإنْ وجد هو في قلبه مِن أحد منهم استيحاشاً وأذيةً بغيبةٍ أو غيرها؛ فلا يظهر ذلك مِن نفسه، ويرى مِن نفسه خلاف ذلك))[٣] .

على هذه الأخلاق والمُثُل ربَّى الشيخ عبد القادر – رحمه الله – مريديه وتلاميذه، ومِن ذلك قوله : ((أوصيك بالفقر، وحفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان الأكابر والأصاغر، وترك الخصومات إلاَّ في أمور الدين، وملازمة الإيثار، ومجانبة الإكثار، وترك

---

(١) جلاء الخاطر : الجيلاني، ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨ .

(٣) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٩٣ .

صحبة مَن لست مِن طبقتهم، والمعاونة في أُمور الدين والدنيا))[١] .

أمَّا النوع الثالث مِن أنواع الصحبة عند القشيري؛ فلم نجد الشيخ – رحمه الله – قد ذكره؛ لأنَّه يرى أنَّ المريد لا ينبغي له أنْ يرى نفسه أعلى ممَّن أحسنَ إليه، والشيخ – هنا– يزيد نوعين مِن أنواع الصحبة، ويحدِّد آدابها، وهما: صحبة الأغنياء، وصحبة الفقراء:

أمَّا الأغنياء؛ فآدابها تكون بترك الطمع فيهم، واليأس ممَّا في أيديهم، وأنْ لا يتأمَّل مِن عندهم شيئاً، وأنْ لا يتودَّدُ إليهم قصداً لدنيا يصبها أو عطاء يأخذه منهم، فمن فعل ذلك فقد ضاع دينَه[٢] .

إذن الصحبة معهم تكون بالتعزيز عليهم، وترك الطمع بما عندهم وما يملكونه، وأنْ لا ينظر إليهم نظر كِبْرٍ واستصغار؛ إنَّما يعيش معهم بالمروءة تخلُّصاً مِن النفس وهواها .

وأمَّا صحبة الفقراء؛ فتكون بإيثارهم على نفسه، وتقديمهم عليها في المأكول، والمشروب، والملبوس، والمجلس، وكلُّ شيء نفيس، ويجب أنْ يرى نفسه دونهم؛ يتعامل معهم بالرفق والتواضع، وعدم المنَّة عليهم، وأنْ لا يرى له عليهم فضلاً، وأنْ يبذل جهده بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً، وأنْ يمدَّ يد العون إليهم بلا مَنٍّ ولا أذى، وأنْ يصبر على شكواهم، ولا ينشغل عنهم، وأنْ يكون وجهه بشوشاً سمحاً، لا عابساً ولا ملتفتاً عنهم، وإذا طلبوا منه شيئاً ولم يقدر عليه فليصرفهم بالحسنى دون أنْ يعنِّفهم، أو يؤذيهم؛ فيتحمَّل الذنوب والخطايا .

والشيخ – رحمه الله – يهتمُّ اهتماماً كبيراً بهذه الفئة مِن الناس؛ اقتداءً بسيد العالمين الحبيب محمد ﷺ الذي أدَّبه ربُّه قائلاً : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣] .

---

(١) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ١٥٨ .

(٢) الغنية : الجيلاني، ٣/ ١٢٩٣ .

(٣) سورة الكهف : مِن الآية ٢٨ .

ومِن هنا ربَّى الشيخ – رحمه الله – تلاميذه ومريديه على هذا الخلق، ورغَّبَهم بالإحسان إلى أولئك الصفوة، وحذَّرهم مِن الاعتداء عليهم؛ لأنَّ الفقراء في نظر الشيخ هم أحبَّاء الله وعياله وخاصته مِن عباده[١] .

ويرى الشيخ – رحمه الله – أنَّ الفقر منزلة عالية؛ إذ هي تقدير الله، ولا ينبغي تمنِّي إزالته؛ فيقول: ((أيُّها الفقير لا تتمنَّى الغنى؛ فلعلَّه سببُ هلاكك))[٢]، ويقول: ((الفقير الصابر مع الله أفضل مِن الغني الشاكر له، والفقير الشاكر أفضل منهما، والفقير الصابر الشاكر أفضلهما))[٣] .

وهكذا نرى أنَّ الشيخ – رحمه الله – قد قسَّم الصحبة إلى أربعة أقسام:

١. **صحبة الإخوان .**
٢. **صحبة الأجانب، يعني: غير السالكين.**
٣. **صحبة الأغنياء .**
٤. **صحبة الفقراء .**

والمقصود الأعظم مِن الصحبة لهؤلاء وغيرهم إيصال النصح الواعي المخلص الذي يصل إلى الأفهام والعقول، وينفذ إلى القلب، ويهيمن على الجوارح، ويرى الشيخ – رحمه الله – أنَّ كلَّ ذلك يتحقق في صحبة أهل الصلاح، ومجانبة أهل السوء والجهالة؛ فيقول: ((يا غلام لا تصحب الجهَّال فيتعدَّى إليك مِن جهلهم، صحبة الأحمق صحبة غبن، اصحَب المؤمنين الموقنين العاملين بعلمهم))[٤] .

فصحبة الصالحين والصادقين تعدُّ أعظم شفاء لأمراض القلوب وعللها؛ لأنَّ الدخول تحت جناح تربيتهم، وملازمة رعايتهم وعنايتهم بالصدق والمحبة تحصل له البركة والخير

(١) أنظر: الفتح الرباني: ص ٢٧، المجلس (٣) .
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥، المجلس (٣) .
(٣) جمهرة الأولياء : أبو الفيض المنوفي، ص ٢٠٤ .
(٤) الفتح الرباني: ص ٣٩، المجلس (٥) مع تصرُّف يسير .

والفلاح كلَّ الفلاح، والخير كلَّ الخير لا يكون إلاَّ بصحبة أهل الفلاح والخير، فمَن لم يصب الفحول يبق في الوهم موحل[١] .

ثانياً : المحبة :

تنوَّعت نظرة الصوفية إلى (المحبة) فمنهم مَن يعتبرها مقاماً لأهل التمكين، وممَّن ذهب إلى هذا أبو طالب المكي[٢]، ومنهم مَن يراها حالاً مِن أحوال المقرَّبين، وممَّن ذهب إلى هذا السراج الطوسي[٣]، ومنهم مَن يجعلها فاصلاً بين الظاهر والباطن، وممَّن ذهب إلى هذا عبد الغني النابلسي[٤]؛ فهو ينظر إلى المحبة على أنَّها آخر طور مِن أطوار العلم، وأول طور مِن أطوار المعرفة .

ومنهم مَن يعتبر المحبة السبب الذي خلق الله عليه السلام العارفين لأجله، وممَّن ذهب إلى هذا عبد الرحمن السلمي في (مقدمته)[٥] .

والشيخ عبد القادر لا يرى المحبة إلاَّ أنَّها آخر خطوة يخطوها السالك الصادق؛ فليس بعدها عنده إلاَّ منازل القرب، والوصول إلى فيض تجليات الحضرة الإلهية، ومع هذا فالشيخ عبد القادر يرى أنَّ المحبة ترافق السالك في كلِّ حال بَلَغَهُ أو مقامٍ نالَهُ، فالمحبة عند الشيخ : هي تعلُّق القلب بأمرٍ ما .

وغني عن البيان أنْ نقول : (وتعريف الشيخ للمحبة بأنَّها تعلُّق القلب) احترازٌ عن تعليق النفس بشيء ما؛ ذاك أنَّه مِن المعلوم الواضح أنَّ محاب النفس ومتعلقاتها؛ ممَّا يجب على المريد أنْ ينفطم عنها، ولا يبقى معه شيء مِن ذلك إلاَّ ما به قوامه ووجوده .

---

(١) أنظر: الفتوحات الإلهية : ابن عجيبة، ١/ ٢٠٣ .
(٢) أنظر: قوت القلوب: أبو طالب المكي، ١/ ٣٦٠ .
(٣) أنظر: اللمع: الطوسي، ص ٨٦ .
(٤) أنظر: شرح عينية الجيلي: النابلسي، مخطوطة في دار الكتب، رقم (٣٦٢) ورقة ١١٦ .
(٥) أنظر: مقدمة التصوف: السلمي، ص ٢٨ .

وبعد ذلك يسير في محاب القلب والروح التي خلصت لله عليه السلام مِن بعد طول تلك المجاهدات والمحاسبات للنفس الأمَّارة واللوامة .

والمحبة عند الشيخ : زادٌ في الطريق إلى الله؛ يحتاجه السالكون؛ ليهون عليهم عنف المجاهدة وطول المصابرة ودوام المحاسبة، والاستقامة على خطوات المنهج .

والمحبة – كما ذكرنا آنفاً – ترافق السالك في كلِّ حال ومقام، سواء كان في بدء الطريق، أو وسط الطريق، أو منتهاه، فالمحبة شعار السالكين الصادقين، وهي منبع الصفات الحميدة كلِّها، فهي منبع الصبر إذا ما ابتلوا، وهي منبع الشكر إذا ما أنعم عليهم، وهي منبع الرضا بما قدَّر الله وقضاه .

لقد أفنى المحبُّون إرادتهم في مرادات الحق؛ فأصبحوا لا يريدون إلاَّ ما أراده الحق، ولا يفعلون إلاَّ ما يأمر به، ولا ينتهون إلاَّ عمَّا ينهى عنه .

والشيخ عبد القادر يرى أنَّ المحبة أمرٌ يجب الحذر عند الكلام عنها؛ فقد يخلط الكثيرون ممَّن يتكلَّمون في أحوال القلب بين عدم محبة الأغيار وبين اتِّخاذ الأسباب مِن مالٍ وولدٍ وأهلٍ وصاحبٍ وحكمٍ وعلمٍ؛ فيذمُّون اتِّخاذ الأسباب مطلقاً .

نعم؛ القلب يجب أنْ لا يتعلَّق بحبِّ هذه الأغيار تعلُّقاً يذمُّ عليه؛ حين يقدِّم الفاني على الباقي، تقدم الدنيا على الآخرة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] .

(١) سورة التوبة : الآية ٢٣ – ٢٤ .

ومِن هنا نرى الشيخ لا يلغ الأسباب ولا يهوِّن مِن شأنها لدرجة إهمالها، بل يرى ما يراه أهل العلم جميعاً : أنَّ اتِّخاذ الأسباب والوسائل أمرٌ لا محيص عنها، ولكن يؤكد على عدم فتح باب القلب ليتعلَّق بها ويعتمد عليها متوكِّلاً عليها؛ فذلك هو الشرك، شرك محبة الأغيار؛ نقرأ ذلك له في مقالة مِن (فتوح الغيب) إذ يقول: ((ألم تعلم أنَّ الله عليه السلام غيورٌ؛ خلقك له، وتروم أنْ تكون لغيره ...، أما سمعت قول الله – تعالى -: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]، أما سمعت قول النبي ﷺ : (إذا أحبَّ اللهُ عبداً ابتلاه، فإنْ صبر اقتناه . قيل: يا رسول الله وما اقتناه ؟ قال: لم يذر له مالاً ولا ولداً)[2][3].

قال الشيخ : «وذلك لأنَّه إذا كان له مال وولد أحبَّهما؛ فيصير مشركاً بين الله عليه السلام وبين غيره ...، والله لا يقبل الشريك، هو غيورٌ؛ يحبُّ أنْ يكون العبد خالصاً له لا ينازع حبَّه حبٌّ، فالله سبحانه خلقَنَا مِن أجل عبادته ومعرفته ومحبَّته ...، أي: أنْ نكون له وحده، لكن الإنسان يريد أنْ يكون لغيره»، والمحبة عند الشيخ هي المحبة المشروعة، هي عندما يخلص القلب في محبة المولى عليه السلام، ويتنظَّف مِن الشركاء والأنداد والأهل والأولاد والشهوات واللذات وطلب الولاية والكرامات، فحينئذٍ لا يضرُّ القلب مِن اتِّخاذ الأسباب مِن الولد والأهل والأصحاب والحكم[4]، فإنَّ جميع ذلك يكون خارج القلب؛ فلا يغار الله عليه السلام، بل يكون جميع ذلك كرامة مِن الله لعبده ولطفاً به ونعمةً ورزقاً ومنفعةً للواردين إليه؛ لهذا ولغيره قلَّ كلامُ الشيخ في المحبة .

وإنَّما قلَّ كلامه في (دقائق الطريق) والمحبة واحدة مِن هذه الدقائق؛ لأنَّ الحديث عن هذه (الدقائق) إنَّما ينبع مِن تجاربه الخاصة المفردة، وهذه التجارب قد يضيق اللسان عن الوفاء

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية : ١/ ٢٥، بلفظ (إذا أحب الله عبداً اقتناه لنفسه، ولم يشغله بزوجة ولا ولد) .

(٣) فتوح الغيب: الجيلاني، ص ٧٥ .

(٤) المصدر نفسه.

ببيانها ونشر ما طوي مِن أسرارها، ومعانيها، ونهاياتها .

ومِن هنا اختلفت تعاريف الصوفية للمحبة، ولضيق اللغة في الإفصاح عن بيان مصطلح (المحبة) عند الصوفية، وهو اصطلاحٌ لمرحلة مِن مراحل السير والسلوك، جاء الاعتراض والانتقاد للصوفية حينما ذكروا (العشق) عند كلامهم عن المحبة .

ومِن هنا ضربنا صفحاً عن ذكر تعريف المحبة عند (الصوفية) وذكرنا المحبة كحقيقة مِن حقائق الطريق ودقائقه ورقائقه وأُسسه، وذكرنا المحبة على أنَّها القوة المولِّدة والدافعة بالروح والعقل والقلب إلى العلم والعمل، والقوة الرافعة للهمَّة؛ حتى يصبح السالك صاحب همَّة عالية ونفسٍ ذات شرافة، اللهمَّ ارزقنا علوَّ الهمَّة وشرافة النفس .

فالشيخ – رحمه الله – لم يدخل في (الغنية) كلَّ مراحل الطريق ودقائقه، ومِن هنا لا يمكن اعتماد (الغنية) وحدها لدراسة وتطبيق الجوانب الصوفية عند الشيخ عبد القادر، وعندي أنَّ كتاب (الغنية) يمثِّلُ بداية الطريق عند الشيخ؛ فيما رسمه وبيَّنه للمريد السالك .

ولذلك لم يجد الشيخ حرجاً في النقل عن السابقين مثل: القشيري، والسلمي، وغيرهما، ومنهجه التربوي لا يقف عند كتاب (الغنية) وإنَّما يستفاد مِن مقالاته الذوقية، وبعض أجوبته عن أعمال القلوب والجوارح، وأمراض النفوس وأدويتها، وكذلك مِن كلامه للخاصة مِن مريديه وتلاميذه .

والحقُّ أنَّ طريقة الشيخ عبد القادر طريقة ومنهج مرسوم لأهل العلم والذكر، قبل أنْ يكون مرسوماً للعامة مِن المسلمين والمؤمنين؛ الذين يحضرون مجالسه ودروسه في الرباط والزاوية .

ولهذا – أيضاً – قلَّ كلامُه في بيان المنهج أو نقول وبشيء مِن الدقة : أنَّ منهجه جاء مفرَّقاً في كثيرٍ مِن كتبه، وجاء كلامه عن (المحبة) مقترناً بكثيرٍ مِن موضوعات ورقائق الصوفية، فجاء كلامه عن (المحبة) مقترناً بكلامه عن الزهد، والفقر، والصدق، والغناء، والقرب، وغير ذلك مِن المفردات، ولم يحصر (المحبة) في بابٍ أو فصل؛ كما حصر التوكل والورع والصبر والصدق والرضا، كل واحدٍ في فصلٍ منفردٍ خاص به .

والمريد السالك الصادق هو الذي يواصل السير والسلوك بعد أنْ يعرف بدايات الطريق ومعالمه، والأسس السبعة؛ التي بنى عليها الشيخ طريقته ومنهجه في التربية والسلوك؛ تقيم السالك لهذا الطريق، ويستقيم حاله، والله – تعالى – يتولى الصالحين .

ثالثاً : التوبة :

التوبة مِن الذنوب والمعاصي والآثام أصلٌ مهمٌّ مِن أصول منهجه التربوي، وهي أول المقامات، وهي مفتاح للمريد في سلوكه، وحقيقة التوبة في لغة العرب : الرجوع، ويقال: تاب؛ أي: رجع، فالتوبة : الرجوع عمَّا كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه(١).

وهي أول ما يبدأ به المريد السالك لطريق الله، وهي رأسُ مال الفائزين، ومفتاح استقامة المائلين؛ قال القشيري: ((التوبة أول منزل مِن منازل السالكين، وأول مقام مِن مقامات الطالبين))(٢) .

وقيل: هو أول مقام مِن مقامات المنقطعين إلى الله (٣)؛ لذلك كان الشيخ عبد القادر – رحمه الله – بحث كثيراً على التوبة، ويدعو أتْبَاعَه ومريديه إلى الدخول في هذا الباب؛ فيقول: أبو الحسن الندوي: ((هناك نهضة في بغداد (دار السلام وقلب عالَم الإسلام) رجلٌ قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوة قوي التأثير؛ جدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيق، والعبودية الخالصة، وأخلاق المؤمنين المخلصين، وحارب النفاق الذي اجتمع في المجتمع الإسلامي بقوَّةٍ منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد، وفتحَ باب البيعة والتوبة على مصراعيه؛

---

(١) أنظر: اللمع: الطوسي، ص ٦٨، والرسالة القشيرية، ص ١/ ٢٠٧، ولسان العرب : ابن منظور، ١/ ٤٥٤، مادة (توب) .

(٢) أنظر: الرسالة القشيرية، ١/ ٢٠٧ . والذي يبدو لي أنَّ اتِّفاق أئمة التصوف على أنَّ التوبة أول المقامات؛ ذلك لأنَّهم اتَّفقوا على أنَّ التحلية قبل التخلية، والتحلية لا تكون إلاَّ بطرد الأغيار والكدرات والتجرُّد عن الحجج والمعاذير، وليس مِن سبب لهذه المذكورات إلاَّ المعاصي، ولا دفع لهذه المعاصي إلاَّ التوبة؛ لذلك كانت التوبة أول المقامات .

(٣) أنظر: اللمع : الطوسي، ص ٦٨ .

يدخل فيه المسلمون مِن كلِّ ناحية مِن نواحي العالَم الإسلامي؛ يجدِّدون العهد والميثاق مع الله، ويعاهدون على أنْ لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ولا يبتدعوا ولا يظلموا ولا يستحلُّوا ما حرَّم الله، ولا يتركوا ما فرض الله، ولا يتفانوا في الدنيا، ولا يتناسوا الآخرة))[١].

وللتوبة أربعة أركان: علمٌ، وندمٌ، وعزمٌ، وترك، والقدر الواجب مِن الندم ما يحثُّ على الترك[٢].

فقد ندب الله عليه السلام في كتابه الكريم المؤمنين إلى المبادرة إلى التوبة بقوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣]، ويدلُّ على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٥]، والتوبة النصوح هي الخالصة لله الخالية مِن الشوائب، والتي تستقر في القلب، وتؤدِّي إلى تغيير في السلوك نحو الطاعات وعمل الخير[٦].

فالتوبة تنزل في المحل الأول مِن جميع مقامات السالكين لطريق الله عليه السلام [٧]، وعلى هذا القول اتَّفق أئمة السلوك والتصوف، فالشيخ عبد القادر الجيلاني لم يخرج مِن هذا المنهج؛ فقد عدَّ التوبة بأنَّها أصلُ كلِّ خيرٍ ومفتاح التقوى، والثبات عليها مفتاح القرب مِن الله [٨].

وقد ذكر الشيخ عبد القادر التوبة بعدَّة معانٍ، وصاغ منها عدَّة عبارات؛ لمكانتها العالية ومقامها الرفيع في طريق السلوك إلى الله؛ فيقول: ((التوبة قلب دولة؛ تقلب دولة نفسك

---

(١) رجال الفكر والدعوة: أبو الحسن الندوي، ص ٢٨١، والصوفية في الإسلام : نيكلسون، ص ٣٤ .

(٢) أنظر: روضة الطالبين، ص ١٩٩ .

(٣) سورة النور : مِن الآية ٣١ .

(٤) سورة البقرة : مِن الآية ٢٢٢.

(٥) سورة التحريم : مِن الآية ٨ .

(٦) أنظر: ما هو التصوف ؟ النقشبندي، ص ٨٧ .

(٧) أنظر: الصوفية في الإسلام: نيكلسون، ص ٣٤ .

(٨) أنظر: جلاء الخاطر: الجيلاني، ص ١٣ .

وهواك وشيطانك وأقرانك السوء))[١] .

وقد عرف الشيخ عبد القادر الجيلاني التوبة بقوله : ((هي الرجوع عمَّا كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع))[٢] .

وقد أجمع أهل العلم أنَّ التوبة واجبة مِن كلِّ ذنبٍ صغير أو كبير جليل أو دقيق[٣] .

* **ويقسِّمُ الشيخ عبد القادر الجيلاني الناسَ مِن حيث التوبة إلى ثلاثة أقسام:**

العوام: توبتهم مِن الذنوب .

الخواص: توبتهم مِن الغفلة .

خاص الخاص: توبتهم مِن ركون القلب إلى ما سوى الله عليه السلام .

وقد أخذ الشيخ عبد القادر هذه المعاني مِن ذي النون المصري وأبي الحسن النوري على حدِّ قوله[٤]، أمَّا الذنوب؛ فقد قسَّمها الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى نوعين:

١. **كبائر الذنوب والمعاصي .**

٢. **صغائر الذنوب والمعاصي .**

فكبائر الذنوب اختلف أهل العلم في تعدادها، وعرَّف بعضهم الكبيرة بقوله : "هي كلُّ ما أوعد الله على فعلها النار"، وقيل: "كلُّ ما يوجِب الحدَّ في الدنيا"، وقد أُلِّفَتْ في (الكبائر) كتبٌ لأهل العلم، وقد اختلفوا في عددها؛ كما اختلفوا في تعريفها .

وللشيخ اهتمامٌ خاصٌ بالحديث عن التوبة وأسبابها : ويرى أنَّه مِن الواجب أنْ يبيِّنَها لتلاميذه ومريديه؛ حتى يكونوا على بيِّنَةٍ مِن أمرهم وهم يسلكون طريق الحق ويجتنبون كبائر الذنوب وصغائرها، وقد حصر الشيخ عبد القادر الكبائر في سبع عشرة كبيرة :

---

(١) الفتح الرباني: الجيلاني، ١٠٣، المجلس (٢٣) .

(٢) الغنية : الجيلاني، ٢/ ٥٣٧ .

(٣) أنظر: المصدر نفسه، ٢/ ٥٣٨ .

(٤) أنظر: المصدر نفسه، ٢/ ٥٤٥ .

أربعٌ قلبية وهي: الإشراك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط مِن رحمته، والأمن مِن مكرِه .

وأربعٌ لسانية وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنة، واليمين الغموس، والسحر.

وثلاثٌ بطنية وهي: شُرب الخمر والمسكر مِن كلِّ شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم به .

واثنتان في الفروج وهما: الزنا، واللواط .

واثنتان في اليدين وهما : القتل، والسرقة .

وواحدة في الرجلين وهي: الفرار مِن الزحف .

وواحدة في جميع الجسد وهي: عقوق الوالدين بعدم البر بقسمهما إذا أقسما، وعدم إعطائهما إذا سألا، وبعدم إطعامهما إذا جاعا، وضربهما .

أمَّا الصغائر؛ فكثيرةٌ جداً، ولا تحصى؛ منها : الضرب، والسب، والشتم، وغيرها مِن الذنوب الباطنة والظاهرة[1]، ودليله على ذلك قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾[2] .

لقد اعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني التوبة بمثابة غرسٍ لابدَّ مِن الاعتناء به والحفاظ عليه؛ يمتدُّ في الأعماق؛ حتى يثمر الخير والبركة، وذلك في قوله : ((تُبْ واثبتْ على توبتك؛ فليس الشأنُ في توبتك، الشأنُ في ثبوتك عليها. ليس الشأنُ في غرسك، الشأنُ في ثبوته وتغصينه وثمرته))[3]، وقد جعل الشيخ عبد القادر التوبة شفاءً مِن داء الذنوب ونوراً مِن ظلمة المعصية، ودواءً يشفي مِن داء الإثم والخطايا، فهي بمثابة ماء ظاهر؛ يزيل كلَّ وسخ مِن الذنوب؛ فيقول الشيخ في وصيته : ((يا غلام لا تيأس مِن رحمة الله – تعالى – بمعصية ارتكبتَها،

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ٥٤١.

(٢) سورة الأنعام : مِن الآية ١٢٠ .

(٣) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ٣٥، المجلس (٤) .

بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها، والإخلاص فيها وطيِّبهُ وبخِّرْهُ بطِيْبِ المعرفة))[١].

* **شروط قبول التوبة :**

لقد بيَّن الشيخ الشروط الشرعية الواجب توافرها في التوبة النصوح المقبولة؛ فقال هي:

الشرط الأول : الندم : والندم هو توجُّع القلب عند علمه بفوات محبوبه؛ فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه، وتنسكب عَبَرَاتُه؛ فيعزم على أنْ لا يعود لمثل ذلك؛ لِما تحقَّق عنده مِن العلم بشؤم المعاصي، وأنَّها أضرُّ مِن السُمِّ القاتل[٢]، فليس المؤمن مَن يصرُّ على الذنب ولو كان صغيراً، وليس المؤمن مَن فرَّط في جنب الله مِن معاصي ومخالفات وانحرافات وزلل، وإنَّما هو مَن يترك الذنب لله خالصاً؛ كما ارتكبه للهوى خالصاً، فالشيخ عبد القادر يستشهد بعبارة يحيى بن معاذ الرازي: ((زلَّةٌ واحدةٌ بعد التوبة أقبح مِن سبعين قبلَها))[٣]، والنبي ﷺ يقول: (الندمُ توبة)[٤]، وعلامة الندم هي رِقَّةُ القلب واصفرار في الوجه وذلٌّ في النفس، وانسكاب في العين[٥]؛ فقد روى الشيخ حديثاً عن النبي ﷺ يقول فيه : (جالسوا التوابين فإنَّهم أرقُّ أفئدةً)[٦] .

الشرط الثاني : ترك الزلاَّت: يبيِّنُ الشيخ عبد القادر أنَّ التائب لابدَّ أنْ يقلع عمَّا كان عليه مِن الذنب؛ فإنْ تاب بالقول ولم يترك بالفعل، ولم يغيِّر ما كان عليه قبل التوبة فهو كاذب في

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤، المجلس (١٣) .

(٢) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ٥٥٨ .

(٣) الغنية : الجيلاني، ٢/ ٦٢٨ .

(٤) مِن حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : مسند المكثرين مِن الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه –، ٦/ ٣٧، برقم (٣٥٦٨)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: ((صحيح، وهذا إسناد حسن)) .

(٥) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ٥٥٨ .

(٦) قال الحافظ العراقي عن هذا الأثر: ((لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبد الله)) . المغني عن حمل الأسفار، ١٣٧٠ .

ادِّعائه، وتوبتُه مردودة عليه، فليس التائب مَن يصرُّ على المعاصي، ويتعرَّضُ لمهاوي الزلل إنَّما التائب مَن يخلع ثوب المعصية ويتجلبب بلباس التقوى .

ثمَّ بيَّن الشيخ أنَّ الإنسان إذا فاته فرضٌ مِن فروض الصلاة أو الصيام أو ما اقترفته جوارحه مِن الآثام؛ فعليه أنْ يحاسب نفسه على كلِّ ما بدر منه، وأنَّه يصلح ما خرَّب، وأنْ يؤدِّي ما فات مِن أول يوم مِن أيام معصيته إلى أول يوم مِن أيام توبته حذراً مِن أنْ يأتيه الموت بغتةً وهو لا يدري، أو تقوم الساعة بغتةً وهو لا يعلم؛ فيسأل فلا يسمع له جواب، ويندم ولات ساعة مندم، ويعتذر ولا يُعذر ويستشفع ولا يُشفَّع؛ لهذا دعا مريديه إلى أنْ يكونوا سائرين على طريق الاستقامة حذرين مِن مكر الله غير مسرفين على أنفسهم، وأوصاهم أنْ يكثروا مِن فعل الخيرات وعمل الحسنات، وكما وجَّههم أنْ يعرف كلُّ ظالمٍ مَن ظَلَمَ؛ حتى يردَّ إليه مظلمَتَه، ويطلب منه العفو ويستحلُّه بعد أداء حقوقه وإرجاعها كاملةً؛ فإنْ لم يجده فإلى ورثته، وهو في هذه الحالة يجب أنْ يكون خائفاً مِن الله عليه السلام ومِن عذابه؛ راجياً مغفرته تائباً مُقلِعاً عن كلِّ شيء يُغضِبُ اللهَ عليه السلام، مجتهداً في طاعته طالباً مرضاته، فإنْ جاءه اليقين (الموت) فقد وقع أجرُه على الله[1] .

ولقد بيَّن الشيخ عبد القادر لتلاميذه أنَّ التائب الحقيق مَن منع لسانَه عن كلِّ ما يؤذي الله ويؤذي الناس مِن الكذب والغيبة والنميمة، وخلص قلبه مِن الحسد والعداوة وغيرها مِن الأمراض، وفارق قرناء السوء الذين يعينونه على معصية الله ويؤيِّدونه على فعل المنكر والقبيح في النجاة منهم، والخلاص مِن شرورهم؛ كبح لجام النفس الأمَّارة بالسوء والشهوات، ويفارق الزلة في الحال، ويعزم أنْ لا يعود لمثلها .

ومِن صفات التائب الصادق أنْ يكون مستعدّاً للقاء الله كثير الندم طويل الاستغفار على ما فات مِن تفريط في جنب الله مجتهداً في طاعة الحقِّ عليه السلام[2] .

---

(١) أنظر: الغنية: الجيلاني، ٢/ ٥٥٥ .

(٢) أنظر: المصدر نفسه، ٢/ ٦٢٢ .

الشرط الثالث : العزم: هو نية العبد التائب أنْ لا يرجع إلى الطريق الذي سلكه في معصية الله، وعليه أنْ يزيل كلَّ أثرٍ مِن آثار المعصية، وأنْ يصبر على دواعي نفسه الأمَّارة التي تحاول أنْ تعيده إلى ما كان عليه مِن معصية، فإنْ تمَّت التوبة على هذه الشروط أصبحت مقبولة نصوحاً، وغدا صاحبها مقبولاً محبوباً عند الله؛ لأنَّ التائب حبيب الرحمن .

* **ويزيد الشيخ الجيلاني أنَّ علامات قبول التائب عند الله أربع :**

١. **الانقطاع عن أهل السوء وقرناء الفتنة، ومخالطة الصالحين .**

٢. **الإقلاع عن الذنب مهما كان، والإقبال على طاعة الله .**

٣. **أنْ يذهب فرح الدنيا مِن قلبه، ويبقى حزن الآخرة وهو الوجل .**

٤. **أنْ يرى نفسَه فارغاً عمَّا ضمِنَ الله له مِن الرزق؛ فيسقط التدبير، ويشتغل بما أمر الله به** (١) .

فمَن توافرت فيه هذه السمات كان مِن المحبوبين عند الله، ومِن الداخلين في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢) .

* **رابعاً : الخلوة :**

الخلوة : اعتكاف واختلاء العبد مع الله عليه السلام في مكانٍ معلوم وزمانٍ مخصوص مقدَّر، وينطبق على الخلوة ما ينطبق على الاعتكاف مِن أحكام وشروط، وزيادةً على ذلك: أنَّ المريد السالك لا يدخلها إلاَّ بإذنٍ مِن الشيخ المرشد وعلمه؛ إذ هي مِن الوظائف التي يرتِّبها الشيخ المربِّي للمريد السالك، فهو أدرى وأعلم بما يصلح للمريد وما لا يصلح ومتى يدخل (الخلوة) وماذا يفعل المريد إذا دخل (الخلوة) تلك وظائف المريد وأعماله يرتِّبها له شيخُه ومرشده .

والخلوة لا تكاد تخلو مِنها طريقة مِن الطرق الصوفية، وهي مِن زاد الطريق إلى الله عليه السلام، وواحدة مِن معالمه وخطواته وأُسس منهجه .

---

(١) أنظر: الغنية : الجيلاني، ٢/ ٦٢٢ .

(٢) سورة البقرة : مِن الآية ٢٢٢.

ويرى الشيخ عبد القادر أنَّ الخلوة يجب أنْ تكون بعد أنْ يصحب المريد الشيوخ، ويأخذ عنهم، ويقهر نفسه، ويلجم هواه، ثمَّ بعد ذلك يلجأ إلى خلوته؛ فينفرد عن الخلق؛ ليشتغل بمحبة الله عليه السلام، فإذا تمكَّن المريد في هذه المرحلة مِن سيرِه وسلوكه تحت عناية المربِّي؛ نال القُرب والتداني، ونشر الله عليه السلام عليه آيات القبول؛ فأقبلَ عليه قلوب الخلق؛ ليهديهم إلى طريق المعرفة والشهود، فهو كما قال الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي: "سلكَ الطريق، ثمَّ عاد ليخبرَ القوم بما استفاد".

والشيخ عبد القادر يرى (الاعتكاف) أصل (الخلوات) فإذا كان المغفور له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر ﷺ الذي أعانه الله على الشيطان فأسلم؛ فكان لا يأمره إلاَّ بخير يعتكف في شهر رمضان، ويعتزل أهله؛ طلباً لِما عند الله مِن عطاءٍ وخيرٍ ورحمةٍ وبركةٍ. فمَن كان دونه، والناسُ جميعاً دونه ﷺ أولى بالاعتكاف والخلوة.

ومع حرص الشيخ عبد القادر على أنْ يأخذ المريد حظَّه ونصيبَه مِن (الخلوة) و(الاعتكاف) فإنَّه يجعل لها شروطاً، وآداباً؛ فالخلوة عنده لا تصحُّ إلاَّ بعد القيام بأحكام الشرع[1].

والخلوة في أصلها اللغوي ومعناها الاصطلاحي الشرعي: الانفراد مع الحقِّ عليه السلام، وقطع الآمال مع الخلق طرّاً كافةً، فلا تصحُّ الخلوة ولا تظهر آثارها للذين ينفردون بالخلوات، ويعقدون فيها وقلوبهم متعلِّقة بالناس يترقَّبون حضورهم بالهدايا والأعطيات والهبات، فمثل هذا الصنيع لا ينفع صاحبَه بشيء.

ومِن وظائف الخلوة: الصلاة، وقراءة القرآن، ودوام الذكر، وملازمة الفكر.

وهكذا كان الشيخ عبد القادر يفعل إذا دخل (الخلوة)، وكان يدخلها في كثيرٍ مِن الأوقات بعد صلاة العشاء، ويبقى فيها إلى طلوع الفجر، ويبيِّنُ - هنا - تلميذه وريده الشيخ أبو الفتح الهروي ما كان يفعله الشيخ في (الخلوة) قال: ((بتُّ عنده ليلةً فرأيتُه في أول الليل صلَّى يسيراً،

---

(١) أنظر: الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٢، المجلس (١٢).

ثمَّ يذكر الله إلى أنْ يمضي الثلث الأول؛ فيقول في ذكره : المحيط الرب، الشهيد، الحسيب، الفعَّال، الخلاَّق، الخالق، البارئ، المصور، ثمَّ يصلِّي قائماً على قدميه؛ يتلو القرآن إلى أنْ يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجودَه، ثمَّ يجلس متوجِّهاً مُشاهداً مراقباً إلى قريب طلوع الفجر، ثمَّ يأخذ في الدعاء والابتهال والتذلُّل إلى أنْ يخرج لصلاة الفجر))[١] .

والصوفية يرون الخلوة مرحلة مِن مراحل الطريق، ولابدَّ للمريد مِن انعزال مؤقَّت عن المجتمع؛ يتفرَّغُ فيها المريد لجهاد نفسه ضدَّ ما يغضب الله عليه السلام مِن أهواء وشهوات، مع المحافظة الكاملة على أداء الواجبات والفروض الدينية .

والشيخ عبد القادر لم ينفك مطالباً المريدين الواصلين إلى مراحل (الخلوة) بالورع والزهد؛ فيقول: ((يا غلام تحتاج مِن خلوتك إلى ورع؛ يخرجك عن المعاصي والزلاَّت، ومراقبة تذكرك نظر الحق عليه السلام إليك، أنت محتاج مضطر إلى أنْ يكون هذا معك في خلوتك، ثمَّ تحتاج إلى محاربة النفس والهوى والشيطان))[٢]، ويقول: ((خرابُ معظمِ الناس مع الزلاَّت، وخراب الزهَّاد مع الشهوات، وخراب الأبدال مع الفكر والخواطر في الخلوات، وخراب الصدِّيْقِين في اللحظات، شغلهم حفظ قلوبهم؛ لأنَّهم نيامٌ على باب الملك، هم قيامٌ في مقام الدعوة))[٣]، فإذا صحَّت الخلوة يحصل المطلوب، ويبلغ الطالب غايته المنشودة .

وإلى هذا أشار الشيخ الجيلاني بقوله : ((يا غلام إذا صحَّت خلوتك مع الله دهش سرُّك، وصفا قلبُك؛ يصير نظرُك عبراً، وقلبُك فكراً، وروحك ومعناك إلى الحقِّ عليه السلام واصلاً))[٤] .

وبعد أرأيتَ أهمِّيَّةَ الخلوة ؟ بل أرأيتَ مخاطر الخلوة في كلام الشيخ، وخراب الأبدال مع

---

(١) جامع كرامات الأولياء : النبهاني، ٢/ ٢٠٠ – ٢٠٢ .
(٢) الفتح الرباني: الجيلاني، ص ١٨، المجلس (١) .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٨، المجلس (١) .
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩، المجلس (٥) .

الخواطر والفكر في الخلوات، وخراب الصديقين مع اللحظات .

ومِن هنا أجمعت السادة الصوفية على أنَّ المريد لا يدخل الخلوة إلاَّ بعد أنْ يأذن الشيخ المرشد المربِّي له بذلك؛ لِما فيها مِن العقبات والمخاطر، ولِمَا لها مِن عظيم الأثر وكبير العوائد والثمار .

والشيخ المرشد المربِّي : هو الذي يرسم للمريد ما يصلح له في (الخلوة)، وعليه أنْ يلتزم بما هو مرسومٌ له، لا أنْ يرتِّبَ لنفسه الوظائف والأوراد والأذكار .

صحيحٌ أنَّ أكثرَ ما يفعله المريد في (الخلوة) هو الذكر والفكر، ولكن ما نوع الذكر؟ وكم عدده ؟ وما هي كيفية الذكر؟ وكيف يجلس؟ كلُّ ذلك وغيره معلومٌ في فقه الشيخ وتجاربه في سلوكه، ومِن المعلوم أنَّ ما يصلح لمريد قد لا يصلح مثله أو عينه لمريدٍ آخر، والمريد في هذه المرحلة بقيَّة ونقص، وهو أشبه بالمريض، ولابدَّ له مِن صحبة الشيخ في هذه المرحلة التي هي آخر مراحل السير والسلوك .

وقد يلزمه الشيخ بالرجوع إليها حتى ولو بعد أنْ فتح الله عليه السلام عليه أبوابَ الفهم والمعرفة والإلهام، ولا يستغرب مثل هذا إلاَّ جهولٌ أو غريبٌ عن القوم، فمثل هذا المريد السالك الذي بلغ مرحلة (الخلوة) يعد نائباً عن الشيخ وخليفته مِن بعده أو في حياته .

ولابدَّ له مِن مزيد عناية ورعاية، ولابدَّ له مِن أنْ ينال مرتبة (الاستقلال)، وبذلك يطمئن الشيخ على مريده، وأنَّه بلغ أشدَّه ورشده واستوى على سوقه، وأصبح أهلاً للإرشاد ونُصح الخلق، وهكذا شأنُ القوم مع (مريديهم) نصحٌ، وإرشادٌ، وتعليمٌ، ثمَّ توبةٌ، وعملٌ، ومجاهدةٌ، ومصابرةٌ، وورعٌ، وتوكُّلٌ، ومحبَّةٌ، وخلوةٌ .

وليس في طريق القوم عموماً وفي منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني خاصة ما يخالف الشرع .

والذي يظهر لي وبوضوح تام أنَّ طريق الشيخ ومنهجه إنَّما هو مرسومٌ للعلماء قبل عامة الناس، وسبق أنْ أشرتُ إلى هذا .

والله يتولَّى الصالحين ..

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؛ والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد الذي أرسله ربُّه بالآيات البينات وجعل رسالته آخر الرسالات وعلى آله وصحبه الأئمة الثقات؛

وبعد: فقد شاءت حكمة الجليل القادر أنْ نعيش مع شخصية رفيعة تواترت الأخبار على مكانتها وسمُوِّها؛ أعني بذلك: **شخصية الشيخ عبد القادر** «**قدس سره**» .

نعم لقد احتل الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية في الشريعة والحقيقة، وذاع صيته في المشارق والمغارب؛ فهو الإمام العارف شيخ العراق في وقته؛ ومَن تُضرب الأمثال بنور بصيرته وصفاء سريرته، له كرامات مشهورة وأخبار مدوَّنة مطرَّزة بالمفاخر مسطورة .

قال في حقِّه الإمام الذهبي: ((هو الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام عَلَمُ الأولياء وقدوة العارفين وصاحب المقامات والكرامات؛ انتهى إليه التقدُّم في الوعظ والكلام على الخواطر))[١] .

ومرَّ بنا كيف أثنى الإمام ابن تيمية على شخصية الشيخ «**قدس سره**»؛ إذ جعله مِن أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي، وأنَّ كلامَه كلَّه يعود على اتِّباع المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور[٢] .

إنَّ الشيخ عبد القادر – طيَّب الله ثراه – كانت حياتُه جهاداً مِن أولِّها إلى أنْ لقي الله عزوجل؛ فقد هيَّأه ربُّه لنصرة دينه وبناء مجتمعٍ إيماني مُخلص، لقد كان أحدَ أركان الولاية، وهو ممَّن وقع

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٤٣٩، والعبر في خبر مَن غبر، ٣/ ٣٦

(٢) الفتاوى الكبرى، ٢/ ٤٣٤ .

الإجماع على ولايته وكراماته التي نقلت إلينا بالتواتر[١] .

وأمَّا مدرسته؛ فقد كانت مركز إشعاع تقتبس نورَها مِن مؤسِّسها «**قدس سره**»، فقد تخرَّج منها تلاميذه ومريدوه، وأصبح الطلاب يقصدونها مِن بقاع الأرض شتى، ويشدُّون إليها الرحال .

وأمَّا رباطه؛ فقد خرَّج الأبطال والمجاهدين والمرشدين الذين نشروا طريقة الشيخ وتربيته وسلوكه في بقاع الدنيا كلِّها، وإلى زماننا هذا؛ بحيث أنَّ المسلمين في العالَم كلِّه يجلُّون الشيخ إجلالاً عظيماً، ومنهم المسلمون في جنوب شرقي آسيا؛ مثل الهند، والباكستان، وأندونيسيا، وغيرها مِن المدن .

لقد كان الشيخ «**قدس سره**» محفوفاً بالعناية الإلهية، مجاهداً، صابراً، جَلِداً، يرى النفع والضرَّ كلَّه مِن الله، الملوك والمملوكون عنده سواء لا يأبَه لعظيم أو وزير؛ يجلُّه الخلفاء، ويهابه الوزراء، يأمرهم وينهاهم وينصح لهم، ولقد انتفع الكثير منهم بكلامه ووعظه وإرشاده .

نعم لقد مكَّن الله للشيخ مكاناً عليّاً، وذلك بعد جهادٍ طويلٍ، وسهرٍ، وجوعٍ، وتشريدٍ في الصحارى، والبراري، والنوم في الخرب، وأكل المنبوذات مِن شاطئ دجلة؛ فصبر واتَّقى؛ فما أضاعَه ربُّه، فـ ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] .

أمَّا مكانته العلمية؛ فإنَّ الشيخ «**قدس سره**» يُشارُ له بالبنان علماً وفتوى؛ يرجع العلماء إليه عند المعضلات، وما مؤلفاته التي ألَّفها إلاَّ دليلٌ على رفعة مكانته في العلم والمعرفة .

أمَّا عن منهجه التربوي؛ فقد وضع الشيخ نظاماً مهمّاً لتربية تلاميذه ومريديه، فكان يحثُّ على الصفاء، ويدعو أتْبَاعه إلى العلم ويرغِّبُهم فيه، ويوصي بالراغبين في طريق الحقِّ خيراً، وكان يحثُّ على ملازمة الشيخ والأدب معه والالتزام بآداب الشريعة، فقد بيَّن «**قدس سره**» أنَّ الوصول إلى الله لا يكون إلاَّ إذا دخل المؤمن في هذا الطريق مِن باب الشريعة، وكان يحثُّ

(١) أنظر: جامع كرامات الأولياء : النبهاني، ٢/ ٢٠٤ .

(٢) سورة يوسف : مِن الآية ٩٠ .

على الاتِّباع، ويحذِّرُ مِن الابتداع .

واستمدَّ منهجَه مِن الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالحين؛ حثَّ مريديه على الفضائل، والخصال الكريمة، ومحاربة الهوى والدنيا والنفس والشيطان .

لقد كان منهجه منهج اعتدال، وطريقته صافية نقيّة خالية مِن الشوائب والكدورات وضع أساساً بالتربية الروحية .

حذَّر مِن الكبائر والفسوق والعصيان والآثام ما ظهر منها وما بطن؛ كما وحذَّر تلاميذَه مِن الادِّعاء وحبِّ الظهور، والشهرة مثلما نشاهده اليوم مِن ضربٍ بالسيوف وطعنٍ بالحراب، وأكل الجمر والحيَّات، فهذا أمرٌ لم نجد الشيخ قد فعله أو حثَّ عليه تلاميذَه، ولكن قد أُدخلت كلُّ هذه الأُمور على طريقة الشيخ بعد وفاته .

والحمد لله عند البدء وعند الختام ..

❊ ❊ ❊

فهرس المصادر والمراجع

* بعد كتاب الله عزوجل :

١. الإبانة الكبرى لابن بطة: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (ت: ٣٨٧هـ) تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض .

٢. ابن الخشاب – حياته ونحوه: علي عبود الساهي، مطبعة الجامعة – بغداد (١٩٩٠م) .

٣. أثر الحروب الصليبية في العالم العربي– بعض مظاهر الحياة اليومية في مصر في عصر سلاطين المماليك «مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية والإسلامية»: قاسم عبده قاسم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى (١٩٨٧م) .

٤. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، مكتبة مدبولي – القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ –١٩٩١م)

٥. الأحكام السلطانية: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ) دار الحديث – القاهرة .

٦. إحياء علوم الدين: محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) دار المعرفة – بيروت .

٧. أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) .

٨. اصطلاحات الصوفية : القاشاني، مصر (١٩٨١م) .

٩. أصول التربية الإسلامية : النحلاوي، دار الفكر – دمشق، (١٩٧٩م) .

١٠. الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر (٢٠٠٢م) .
١١. إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا): محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (ت: ٦٢٩هـ) تحقيق: د. عبد القيوم عبد ريب النبي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ) .
١٢. الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (ت: ٤٧٥هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩٠م) .
١٣. ألفاظ الصوفية ومعانيها : د. حسن الشرقاوي، دار الكتب الجامعية - الاسكندرية (١٩٧٥م) .
١٤. الأنساب : عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (ت: ٥٦٢هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) .
١٥. الأنوار البهية باختصار البدور الجلية : نور الدين البريفكاني، الموصل، (١٩٨٧م) .
١٦. أنوار الحقيقة: النورسي، مطبعة الحوادث - بغداد، الطبعة الأولى (١٩٩٠م) .
١٧. الأنوار القدسية : الشيخ عبد الوهاب الشعراني، دار إحياء التراث العربي .
١٨. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت: ١٣٩٩هـ) عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة : محمد شرف الدين بالتقايا رئيس أمور الدين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٩. أيها الولد : الإمام الغزالي، مطبعة المعارف - بغداد، الطبعة الثانية (١٩٦٨م).
٢٠. الباز الأشهب في حياة السيد الشيخ عبد القادر: إبراهيم الدروبي، مطبعة بغداد .

٢١. البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)

٢٢. البرهان المؤيد : أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني، تحقيق: عبد الغني نكه مي، دار الكتاب النفيس – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ) .

٢٣. بستان الأصاغر والأكابر: الشيخ عبد الحي القادري، مطبعة معهد فرانكو، (١٩٤٠م)

٢٤. بستان العارفين: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، دار الريان للتراث .

٢٥. بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ) تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر .

٢٦. بلدان الخلافة الشرقية : كي لسترينج، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوكيس عواد، بغداد (١٩٥٤م) .

٢٧. البلدان: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه (ت: ٣٦٥هـ) تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ – ١٩٩٦م) .

٢٨. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار: علي بن يوسف الشطنوفي، دار الكتب العربية – مصر (١٣٣٠هـ) .

٢٩. تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

٣٠. تاريخ ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (ت: ٧٤٩هـ) دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ – ١٩٩٦م) .

٣١. تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) : عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ) تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

٣٢. تاريخ إربل: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإِربلي، المعروف بابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، (١٩٨٠م) .

٣٣. تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، ترجمة: د. يعقوب بكر، ورمضان عبد التواب، دار المعارف (١٩٧٧م) .

٣٤. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) .

٣٥. تاريخ الخلفاء : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) .

٣٦. تاريخ الشعوب الإسلامية : كاهين كلود، ترجمة : د. بدر الدين القاسم، بيروت، (١٩٩٧م) .

٣٧. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري): محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، ت: ٣٦٩هـ)، دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية (١٣٨٧هـ)

٣٨. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري: عبد العزيز الدوري، دار المشرق - بيروت، الطبعة الثانية .

٣٩. التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ) الطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان .

٤٠. تاريخ بغداد : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ) .

٤١. تاريخ دمشق : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر (١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .

٤٢. تاريخ دولة آل سلجوق: البنداري .

٤٣. تاريخ علماء المستنصرية : ناجي معروف، مؤسسة دار الشعب – القاهرة .

٤٤. تجديد الفكر الديني في الإسلام: محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، القاهرة (١٩٦٨م).

٤٥. تحفة الأحباب وبغية الطلاب: السخاوي، مصر (١٩٣٧م) .

٤٦. تذكرة الحفاظ : محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م)

٤٧. التصوف في الميزان: مصطفى علوش، دار نهضة مصر – القاهرة .

٤٨. التعرف لمذهب أهل التصوف: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: ٣٨٠هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت .

٤٩. التعريفات : علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ –١٩٨٣م) .

٥٠. التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد : محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (ت: ٦٢٩هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار

الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م) .

٥١. تلبيس إبليس: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ – ٢٠٠١م)

٥٢. تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت: ٧٤٢هـ) تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م).

٥٣. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، (٢٠٠١م) .

٥٤. الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا – أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة بجامعة دمشق –، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) .

٥٥. الجامع المختصر في تواريخ عنوان وعيون السير: ابن الساعي، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد (١٩٣٤م) .

٥٦. جامع كرامات الأولياء : النبهاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٣٨١هـ – ١٩٦٢م) .

٥٧. الجنيد البغدادي ومدرسته الصوفية: طارق سميان، رسالة ماجستير .

٥٨. الجواهر المضية في طبقات الحنفية : عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي (ت: ٧٧٥هـ)، مير محمد كتب خانه – كراتشي

٥٩. حدود العالم من المشرق إلى المغرب: مجهول (ت: بعد ٣٧٢هـ) محقق ومترجم الكتاب (عن الفارسية) : السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، (١٤٢٣هـ) .

٦٠. حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى، مطبعة النواعير، الطبعة الخامسة (١٤١٣هـ

- ١٩٩٢م) .

٦١. الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية : د. عبد الفتاح بركة، مجلة مجمع البحوث الإسلامية (١٩٧١م) .

٦٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، السعادة - بجوار محافظة مصر، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) .

٦٣. الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت: ٩٢٧هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

٦٤. الدر الفريد في إحياء طريقة الجنيد : الشيخ محمد سعيد الكردي .

٦٥. دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون) : القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م) .

٦٦. دعوة الحق: مجلة معربة، العدد (٤)، عام (١٩٨٠م) .

٦٧. دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) .

٦٨. ذيل تاريخ مدينة السلام: أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن الدبيثي (ت: ٦٣٧هـ) تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) .

٦٩. ذيل طبقات الحنابلة : زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م)

٧٠. راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية: محمد بن علي بن سليمان الراوندي، ترجمة : د. إبراهيم شواربي (١٩٦٠م) .
٧١. رجال الفكر والدعوة في الإسلام: أبو الحسن الندوي، دار القلم – الكويت (١٩٦٩م) .
٧٢. رحلة ابن جبير : محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت: ٦١٤هـ) دار ومكتبة الهلال – بيروت .
٧٣. الرسالة القشيرية : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ) تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف – القاهرة .
٧٤. رسالة المسترشدين: المحاسبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب – سوريا، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ – ١٩٧١م) .
٧٥. الزاهر في معاني كلمات الناس : محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ –١٩٩٢م) .
٧٦. زبدة الحلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ) تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ – ١٩٩٦م)
٧٧. الزهد الكبير: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الثالثة، (١٩٩٦م) .
٧٨. الزهد والرقائق لابن المبارك: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت .

٧٩. السر الظاهر في أعقاب الشيخ عبد القادر : الحوات (ت: ١٢٣١هـ) مطبعة مغربية مصورة .

٨٠. السفينة القادرية : الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق: محمد المنلا، مكتبة النجاح – طرابلس – ليبيا .

٨١. سلاجقة إيران والعراق: عبد المنعم حسنين، القاهرة (١٩٧٥م) .

٨٢. سلطان العارفين: صلاح الدين عبد القادر، مطبعة دار السلام – بغداد (١٩٧٩م) .

٨٣. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت: ١١١١هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) .

٨٤. السنة : أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (ت: ٢٩٤هـ) تحقيق: سالم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨م) .

٨٥. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، (١٩٩٨م).

٨٦. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) .

٨٧. السنن الكبرى: أحمد بن شعيب بن علي، أبو عبد الرحمن الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ) تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ – ٢٠٠١م)

٨٨. سياسة نامة : نظام الملك قوام الدين بن علي الحسن بن علي الطوسي، ترجمة وتعليق: محمد العزاوي الدار العربي – بيروت .

٨٩. السيد أحمد البدوي شيخ طريقة : سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، الطبعة

الثانية .

٩٠. سير أعلام النبلاء : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مطبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) .

٩١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي (ت: ١٠٨٩) دار الكتب العلمية - بيروت .

٩٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت: ٤١٨هـ) تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة - السعودية، الطبعة الثامنة، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م) .

٩٣. شرح النسفية في العقيدة الإسلامية : أ. د. عبد الملك السعدي .

٩٤. شرح عينية الجيلي: النابلسي، مخطوطة في دار الكتب، رقم (٣٦٢) .

٩٥. شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ) .

٩٦. شواهد الحق: القاضي الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م) .

٩٧. الشيخ عبد القادر الجيلاني - إلمامات بشخصيته وفكره التربوي: كامل الشبيبي، مقالة في جريدة العراق، بتاريخ (٣٠/ ٩/ ١٩٨٧م) .

٩٨. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق : د. يوسف علي طويل، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، (١٩٨٧م) .

٩٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

١٠٠. صفة الصفوة : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م)

١٠١. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل: عبد الفتاح أبو غدة، تحقيق: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية (١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م) .

١٠٢. ضحى الإسلام : أحمد أمين، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة العاشرة .

١٠٣. طبقات الأولياء: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ) تحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ – ١٩٩٤م) .

١٠٤. طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية (١٤١٣هـ) .

١٠٥. طبقات الشافعيين: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية (١٤١٣هـ – ١٩٩٣م) .

١٠٦. طبقات الصوفية : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (ت: ٤١٢هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) .

١٠٧. الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار): عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، الشَّعْراني، أبو محمد (ت: ٩٧٣هـ) مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه – مصر (١٣١٥ هـ)

١٠٨. العبر في خبر من غبر : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز

الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت .

١٠٩. عمدة الطالب في أنساب أبي طالب جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين الداوودي الحسني: ابن عنبة، مطبعة النجف .

١١٠. عنوان التوفيق في آداب الطريق: ابن عطاء الله السكندري (ت: ٥٧٨هـ) تحقيق: عبد الغني نكه مي، دار الكتاب النفيس – لبنان، (١٤٠٨هـ) .

١١١. الغنية لطالبي طريق الحق: الجيلاني، تحقيق: د. فرج توفيق الوليد، مكتبة الشرق الجديد – بغداد (١٩٨٨م) .

١١٢. الفتاوى الحديثية : أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت: ٩٧٤هـ) دار الفكر .

١١٣. الفتح الرباني والفيض الرحماني: الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الرابعة (٢٠١٠م) .

١١٤. الفتح المبين: ظهير الدين القادري، المطبعة الخيرية – مصر، الطبعة الأولى .

١١٥. الفتوة : ابن العمار، تحقيق: مصطفى جواد وآخرون، بغداد (١٩٥٨م) .

١١٦. الفتوة وأطوارها: مصطفى جواد، مجلة المجمع الفقهي العراقي .

١١٧. الفتوة والفتيان قديماً : مصطفى جواد، مجلة لغة العرب .

١١٨. فتوح الغيب: الجيلاني، طبعة البابي الحلبي – القاهرة .

١١٩. الفرج بعد الشدة للتنوخي : المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (ت: ٣٨٤هـ) تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر – بيروت (١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م) .

١٢٠. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية : عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (ت: ٤٢٩هـ) دار الآفاق الجديدة –

بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٧م) .
١٢١. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) تحقيق: د. عبدالرحمن بن عبدالكريم اليحيى، دار الفضيلة – الرياض .
١٢٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ) مكتبة الخانجي – القاهرة .
١٢٣. فضائح الباطنية : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية – الكويت .
١٢٤. فوات الوفيات : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت: ٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى (١٩٧٤م)
١٢٥. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق – بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر (١٤١٢هـ) .
١٢٦. القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية (١٩٧٠م).
١٢٧. قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر: محمد بن يحيى التادفي (ت: ٩٦٣هـ)، المطبعة العثمانية (١٣٠٣هـ) .
١٢٨. قواعد التصوف: أحمد بن العباس، الشهير بزروق الفاسي (ت: ٨٩٩هـ) .
١٢٩. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد : محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ) تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) .
١٣٠. الكامل في التاريخ : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) تحقيق: عمر عبد السلام تدمر، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ – ١٩٩٧م) .

١٣١. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر مِن الأحاديث على ألسنة الناس: العجلوني: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت: ١١٦٢هـ) مكتبة القدسي - القاهرة، (١٣٥١هـ).

١٣٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (ت: ١٠٦٧هـ)، مكتبة المثنى - بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية (١٩٤١م).

١٣٣. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) : أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٣٤. اللباب في تهذيب الأنساب : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) دار صادر- بيروت.

١٣٥. لسان الميزان: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٠هـ - ١٩٧١م).

١٣٦. اللمع : الطوسي، دار الكتب الحديثة - مصر، (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م).

١٣٧. ما هو التصوف؟ : أمين النقشبندي، بغداد (١٩٨٨م).

١٣٨. مجلة التربية الإسلامية : مقالة للدكتور محسن عبد الحميد، العدد (٢) لعام (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

١٣٩. مجلة جوهرة الإسلام : العدد (٨) السنة السادسة.

١٤٠. مجلة لواء الإسلام: العدد (١٠) عام (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

١٤١. مجلة منبر الإسلام : مقالة للأستاذ مصطفى زيد، القاهرة، لسنة (١٣٨٦هـ) .
١٤٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) .
١٤٣. مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تقي الدين الحراني (ت: ٧٢٨هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م) .
١٤٤. محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت: ٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٧٤م) .
١٤٥. المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (ت: ٧٣٢هـ) المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.
١٤٦. المختصر في تاريخ شيخ الإسلام عبد القادر وأولاده : إبراهيم الدروبي .
١٤٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) .
١٤٨. مدارس بغداد في العصر السلجوقي: عماد عبد السلام، مطبعة البصري - بغداد، الطبعة الأولى (١٩٦٦م) .
١٤٩. مدخل إلى التصوف: التفتازاني، دار الثقافة - القاهرة (١٩٨٣م) .
١٥٠. مدخل إلى الفكر الفلسفي: بوخنسكي، مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة (١٩٨٠م) .
١٥١. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٢م) .

١٥٢. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان : أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (ت: ٧٦٨هـ) وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) .

١٥٣. مروج الذهب : المسعودي، تحقيق: يوسف أسعد واغر، بيروت، .

١٥٤. المسالك والممالك: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المعروف بالكرخي (ت: ٣٤٦هـ) دار صادر، بيروت، (٢٠٠٤م) .

١٥٥. المسالك والممالك: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (ت: نحو ٢٨٠هـ) دار صادر أفست ليدن، بيروت، (١٨٨٩م) .

١٥٦. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

١٥٧. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : الحافظ ابن النجار البغدادي، انتقاء: الحافظ أبي الحسين أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي المعروف بابن الدمياطي (ت: ٧٤٩هـ) دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٥٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م) .

١٥٩. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ) تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (٢٠٠٩م)

١٦٠. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله r (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٦١. المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ) .

١٦٢. مضمار الحقائق وسر الخلائق: محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور ابن المظفر (ت: ٦١٧هـ) تحقيق: الدكتور حسن حبشي، عالم الكتب – القاهرة .

١٦٣. المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة .

١٦٤. معجم البلدان : ياقوت بن عبد الله، شهاب الدين، أبو عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ) دار صادر – بيروت، الطبعة الثانية (١٩٩٥م) .

١٦٥. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م) .

١٦٦. معجم المؤلفين: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت: ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت .

١٦٧. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة – القاهرة .

١٦٨. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش

إحياء علوم الدين): أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت: ٨٠٦هـ)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) .

١٦٩. مفردات غريب القرآن: الأصبهاني، دار المعرفة – بيروت .

١٧٠. المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد : إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (ت: ٨٨٤هـ) تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد – الرياض – السعودية، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م) .

١٧١. الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق : محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – بيروت، (١٤٠٤هـ) .

١٧٢. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ – ١٩٩٢م) .

١٧٣. المنقذ من الضلال: حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تحقيق : محمد محمد جابر، المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان .

١٧٤. منهاج العارفين: الغزالي، مطبعة المعارف، بغداد، (١٩٦٨م) .

١٧٥. منهج التربية الإسلامية – أصوله وتنظيماته : د. علي أحمد مذكور، الكويت، (١٩٨٧م) .

١٧٦. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ) .

١٧٧. المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار

الجيل – بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م) .
١٧٨. مواهب الصمد في حلِّ ألفاظ الزُّبَد : أحمد الفشني، مطبعة دار البشائر الإسلامية – بيروت، مكتبة دار الفجر – دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م) .
١٧٩. موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية : محمد علي الفارقي التهانوي، (ت: ١١٥٨هـ) الخياط – بيروت .
١٨٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت: ٨٧٤هـ) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب – مصر .
١٨١. نشأة المدارس المستقلة في الإسلام: ناجي معروف، مطبعة الأزهر – بغداد (١٩٦٦م) .
١٨٢. نفحات الأُنس: نور الدين عبد العزيز أحمد الجامي، مطبعة لكنو (١٩٠٥م) .
١٨٣. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت: ١٣٩٩هـ)، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية - استانبول (١٩٥١م) .
١٨٤. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس: د. ماجد عرسان الكيلاني، دار القلم – الإمارات، الطبعة الرابعة (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) .
١٨٥. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، (١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م) .
١٨٦. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٤م) .

فهرس المحتويات

❊ ❊ ❊

ملحق ص: 60

ويرى بعض المؤرخين أن ولادته كانت في منطقة الجيل وهي قرية تاريخية قرب المدائن 40 كيلو متر جنوب بغداد وهذا ما قرر ه الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني في كتابه: جغرافية الباز الأشهب، والذي قام بدراسة وتحقيق الروايات التاريخية ووقف على مسألة موطن الشيخ الأول وتتبع الروايات السابقة التي تناولت هذا الأمر ، وقارن بينها ، ورجع الى كتب البلدانيات الاسلامية ورحلات الرحالين ،وآراء المؤرخين وحجهم مثل مصطفى جواد وعباس العزاوي وإبراهيم الدروبي وحسين علي محفوظ وسالم الآلوسي وغيرهم من رجال المدرسة التاريخية العراقية ، وقد استغرق ذلك منه وقتا طويلا وجهدا جهيدا ، وخلص موفقا الى تقرير ولادتة الشيخ كانت في بلدة الجيل التي في العراق وليس في جيلان الواقعة في المشرق الإسلامي [1]

---

[1] انظر مقدمة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف لكتاب جغرافية الباز الأشهب للدكتور جمال الدين فالح الكيلاني ، المؤسسة المغربية للدراسات والنشر ، فاس ، المغرب 2014 ، ص 12